احمد بن طولون

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف مصر وبلاد النوبة في اواسط القرن الثالث للهجرة
على زمن احمد بن طولون ويتخلل ذلك وصف احوالها السياسية
والاجتماعية والادبية . وعلاقة الاقباط باهل الدولة
وما كانوا يضمرونه في نفوسهم او يجول بخواطرهم .
وما بين النوبة ومصر من العلائق السياسية
ووصف احوال البجة وغير ذلك

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

طبع بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٩

المقدمة

هذه هي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي خاصة بوصف مصر في ولاية احمد بن طولون (توفي سنة ٢٧١ ﻫ) وهو أول أمير استقل بادارة حكومة مصر تحت رعاية الدولة العباسية وبنى لنفسه بلداً سماه القطائع بين المقطم الفوسطاط لايزال من آثاره الى اليوم جامع ابن طولون في الصليبة

وبذلنا الجهد في تمثيل مصر في القرن الثالث للهجرة من حيث علائقها السياسية مع بغداد واحوالها الاجتماعية وعلاقة الاهلين بعضهم ببعض . ومثلنا ما بين الاقباط والمسلمين من الاختلاف وبينا اسبابه وأسباب الخلاف بين أهل الدولة الاتراك والعرب وما كان يجول في خواطر كل من الفريقين بالنظر الى الآخر

وهذه هي الرواية الثانية من سلسلة روايات الاسلام المختصة بمصر . أما الاولى فهي رواية ارمانوسة المصرية التي تمثل فتح مصر على يد عمرو بن العاص

ويسرنا ان اقبال القراء على مطالعة هذه السلسلة يزداد في كل يوم فقد اعيد طبع اكثرحلقاتهاغير مرة ونقل معظمها الى اللغات الشرقية في الهند وفارس وتركستان كما فصلنا ذلك في مقدمة عروس فرغانة بالسنة الماضية

ونحن في كل حال لانذخر وسعاً في ما نظنه مفيداً لقراء العربية . وقد ظهر لنا ان سبك التاريخ في قالب الرواية جزيل الفائدة في تحبيب التاريخ الى الناس وترغيبهم في المطالعة على الاجمال . وهذا ما نرمي اليه في تأليف هذه الروايات . والله حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

دميانة

خرجت دميانة من منزل ابيها في قرية طاء النمل بكورة سخا (في مديرية الدقهلية) في اصيل يوم من ايام سنة ٢٦٤ للهجرة ومشت تسترق الخطى في البساتين تلتمس كنيسةً هناك بنيت لصلاة اهل تلك الناحية والقرى المجاورة . وكانت دميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح ولا سيما في ايام الاحاد والاعياد لكنها أرادت الذهاب في ذلك الاصيل لتخلو بقسيسها وتسرَّ اليهِ امراً خالج ضميرها واقلق راحتها وهي ترى في الاعتراف راحة او مشورة او مؤاساة . ولو كانت والدتها حية لاستغنت عن مكاشفة القسيس بالشكوى اليها . واما والدها مرقس فلم تكن ترتاح الى مطارحته ما في خاطرها لانهُ كان مخالفاً لها في الطباع والاطوار — كانت هي تقية ورعة تصلي كل صباح وهو لا يعبأ بالدين ولا يدخل الكنيسة الا نادراً . وكانت تكره المسكرات وهو يتعاطاها مع ميل الى المجون والتهتك لا يهمه الا التمتع بملاذ الجسد من الطعام والشراب والتأنق فيهما توفيت امرأته وابنتها دميانة طفلة ولم يكن له منها سواها فلم يتزوج ليس مراعاةً لها واحتفاظاً بكرامتها ولكنهُ رأى الزواج قيداً ومشغلة فعمد الى التسري واقتناء الجواري اقتداء بسراة المسلمين في ذلك العهد — عهد البذخ والترف والقصف . فالمسلمون وجدوا في بعض قواعد الاسلام متسعاً للتسري واقتناء الجواري فاقتدى بهم بعض الاقباط من اهل الثروة ومرقس من جملتهم

وكان مرقس (ابو دميانة) من اصحاب القرى واهل الثروة لا يشغله طلب الرزق عن شيء من ملاذ الحياة فيقضي نهاره بالاكل والشرب بين الاصدقاء والخلان الذين على شاكلته . وكان العقلاء ينتقدونهُ ويقبحون عمله ولا سيما الذين عاشروه من الصبا وعرفوا حداثة عهده بالثروة لانهُ ربي في صباه متوسط الحال لا يزيد دخله على الكفاف ثم جاءته الثروة فجأة فصادفت منهُ قلباً شرهاً ونفساً ضعيفة فاتجهت قواه الى التمتع بالمشتهيات الحيوانية

أما دميانة فقد ربيت في حجر والدتها الى الثامنة من عمرها واخذت عنها الفضائل والتقوى وتعوَّدت الصراحة في القول وصدق اللهجة والاتكال على الله والمحافظة على الصلاة اليومية . وماتت امها على غرة وهي غائبة ولو شهدت موتها لسمعت منها حديثاً يهمها ويكون

له شأن في مستقبل حياتها . فاصبحت دميانة بعد وفاة والدتها وحيدة لا انيس لها في تلك القرية لان سكانها اكثرهم من الفلاحين الذين يشتغلون في ارض ابيها وهم تابعون للارض ينتقلون معها من مالك الى مالك او من متقبل الى متقبل على نحو ما كانت عليه الحال يومئذٍ في اكثر البلاد ففي المملكة الرومانية باوربا كانت الارضون تنتقل من بارون الى بارون وينتقل فلاحوها معها ويسمونهم سيرف (serfs) وهو ما يعبرون عنهُ في العربية بالقن (الجمع اقنان)

فلم تكن دميانة ترتاح الى معاشرة بنات الفلاحين وان كانت لا ترى بدًّا من مخاطبتهن والالتفات اليهن بالاحسان والبشاشة والملاطفة وهن يتقربن اليها بالهدايا والخدمة . غير ان ذلك لم يكن ليشبع نفسها الكبيرة ولم تكن تجد بابًا للتعزية بالمكاشفة او المطارحة على عادة بنات المدن بمن يتألفنهن من الصواحب او الجارات او ذوات القربى . فكانت اذا طرأ عليها امر يقتضي مكاشفة شغلت نفسها بالصلاة فيعزيها ذلك ولو الى حين

اما في ذلك اليوم فاحست بانقباض صدرها وضاقت ذرعاً عن كتمان ما في خاطرها وهي تحسبه مخالفاً لقواعد التقوى وشروط التدين فقضت معظم النهار في التفكير منفردة في غرفتها حتى اذا مالت الشمس الى الاصيل لاح لها ان تبوح بسرها الى قسيس القرية الاب منقريوس وكانت تأنس به لطول عهده في خدمة الكنيسة ولكبر سنه . واهم من كل ذلك ان الاعتراف للقسيس قاعدة مألوفة عندهم

فخرجت في ذلك الاصيل وحدها تمشي في البساتين كانها تتمتع بمناظر الطبيعة وتنظر في الاغراس وصبيان الفلاحين وبناتهم يقفون احترامًا لها او يفرون منها تخجلاً وبعضهم في شاغل عنها بثور يسوقه الى مربطه او حمار يحمل عليه قضبانًا او فاكهة الى بيت مولاه . فمشت دميانة تظهر انها مهتمة بتلك المناظر وهي بالحقيقة في شاغل عنها بما يتردد في فكرها من الامر الذي تهم بكشفه للاب منقريوس . فلم تكن تسمع غناء الغلمان وهم يحصدون الزرع ولا صياح الاديـاك ولا رفرفة الاطيار التي تلتقط الحب . ولما دنت من الساقية الكبرى على ضفة النيل لم تنتبه لانينها او طقطقة اخشابها ولا خوار ثورها اذ يستحثه الغلام على الدوران

وكانت دميانة في نحو العشرين من عمرها ربعة القامة سمراء اللون مع صفاء ونضارة كبيرة العينين سوداء الحدقتين مع ذكاء ووداعة صغيرة الانف صغيرة الفم ممتلئة الشفتين لها مبسم ينم عن صدق طويتها ورقة احساسها . في اذنيها قرطان من ذهب يمثلان ابا الهول . وقد ضفرت شعرها الاسود ضفيرة واحدة وارسلتها الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب

من الحرير نسيج دمشق اهدته اليها امها في طفوليتهـا وقد طرزت لها على حواشيه بعض الدعوات والآيات بالقبطية وارتدت ثوباً من القباطي الرقيق واسع الاردان التفت فوقه بطرف من الخز مما كان يحمله تجار فارس الى الفسطاط . واحتذت نعالاً محوكة من الخوص وقدد الجلد معاً . وفي عنقها قلادة من الذهب في وسطها صليب محجر

الفصل الثاني

الكنيسة

وكانت المسافة بين المنزل والكنيسة نحو ميل قطعت معظمه على ضفة النيل وعيناها تنتقلان بين الماء واليبس على غير انتباه فمرّت بها عدة قوارب تحمل تبناً او حبوباً او غير ذلك من الغلال وهي لم تنتبه لها ولا لصراخ نوتيتها ولا لفقش الماء او نقر الريح على اشرعتها ولكنها انتبهت فجأة الى سفينة تختلف عما تعوّدت مشاهدته في ذلك النيل لكبرها واتقان بنائها وزخرفها وكبر شراعها وما فيها من الغرف والنوافذ كأنها بيت سابح فوق الماء يشبه ما يعرف اليوم بالذهبيات . فعلمت ان مثل هذه السفينة لا تخلو من بعض السراة وربما كان فيها بعض اصدقاء ابيها فلا تريد ان يراها احد منهم . وكانت قد اشرفت على الكنيسة فاسرعت اليها مهرولة تتوارى بين جذوع الشجر واغصانهـا حتى دنت من باب الكنيسة فاستترت وراء نخلة بين يدي الباب قديمة العهد جذعها هائل الكبر . والتفتت نحو النيل لتعيد نظرها الى تلك الذهبية لعلها تعرف اصحابها . فتفرست في الراية المنصوبة في مقدمها فرأت عليها كتابة بالعربيـة وهي لا تقرأها — واهل القرى كانوا الى ذلك العهد لا يعرفون العربية لقلة اختلاطهم بالعرب لان المسلمين كانوا لا يزالون من زمن الفتح يقيمون في معزل عن اهل البـلاد . إما في الفسطاط مقر رجال الدولة ومن يلحق بهم من الحاشية والاعوان او في اطراف البلاد بالمضارب والخيام . ولم ينزلوا القرى الا بعد قدوم المأمون الى مصر في اوائل القرن الثالث للهجرة اذ جاء لاخماد ثورة انتشبت هناك فاذلّ القبط وامر المسلمين بنزول القرى فابتنوا فيها القصور وحوّلوا بعض الكنائس الى مساجد[1]

(١) المقريزي ٢٦١ ج ٢

فلما رأت دميانة تلك الراية علمت انها لبعض رجال الدولة أو بعض الخاصة منهم أو الجباة من القبط قد خرجوا لجمع الخراج والجزية · ولولا علمها بتقرب والدها من صاحب الخراج لخافت ان يكون عليه بأس من اصحاب تلك الذهبية · ولو كانت تقرأ العربية لقرأت على تلك الراية اسم احمد المادراني متولي الخراج وهو صاحب النفوذ الاكبر عند ابن طولون صاحب مصر · وانتبهت بغتةً لما جاءت من اجله فتحولت نحو الكنيسة ودخلت بابها الغربي

وكان لتلك الكنيسة في اول امرها بابان احدهما غربي والآخر شمالي · فلما نزل المسلمون في القرى بعد قدوم المأمون واحتاجوا الى اماكن للصلاة ابتنى بعضهم المساجد وحوَّل آخرون بعض الكنائس الى مساجد · اما تلك القرية فنزل فيها رجل من الشيعة العلوية يقال له ابو الحسن البغدادي جاء من بغداد في جملة اصحاب المأمون واحب المقام بمصر فاستأذنهُ في البقاء هناك فأُذن لهُ وظل مدة يقضي فروض الصلاة في منزله · وكان معتدلاً منصفاً فلم يرَ ان يسلب اهل تلك الناحية كنيستهم فاتفق مع صاحبة القرية وهي يومئذ مارية القبطية المشهورة ان يقتطع من الكنيسة جانباً يتخذه مسجداً يصلي فيه كما فعل المسلمون بالجامع الاموي لما فتحوا دمشق · فاذنت لهُ فقسم الكنيسة شطرين بحائط واصبح الباب الشمالي خاصاً بدخول المسلمين وليس منهم هناك الا ابو الحسن البغدادي وحاشيتهُ وظل الباب الغربي مدخلاً للنصارى

دخلت دميانة من ذلك الباب ومشت في الدهليز باحترام وخشوع حتى اقبلت على واجهة الهيكل وعليها الايقونات الملونة والاستار المصورة فرسمت علامة الصليب وعرجت الى ايقونة مريم العذراء في جهة اليمين وهي تمثل العذراء تحمل طفلها في شكل جميل · وقد جلبت هذه الصورة من القسطنطينية · فجثت دميانة امامها واخذت تصلي بحرارة وخشوع · وتمثل لها الامر الذي جاءت من اجله فخفق قلبها تهيباً من الخوض فيه · فتجلدت واخذت تتضرع الى ام الاله ان تقويها وتشددها ولمست وجه الصورة باناملها ثم مسحت بها وجهها تبركاً بكرامتها

وهي ذلك سمعت تمتمة القسيس في الهيكل للصلاة التي اعتاد اقامتها هناك قبل الغروب كل يوم و يندر ان يحضرها احد · وتنسمت رائحة البخور ورأت ضوء الشموع فازدادت خشوعاً وتهيباً لانفرادها في ذلك المكان المقدس · ولم ترَ القسيس لان باب الهيكل كان مغطى بستارة من الديباج المزركش صنع دار الطراز في تنيس · ولما فكرت في ما قدمت

من اجله اكبرته وحدثتها نفسها ان تعدل عن مكاشفة القسيس بسرها وهمت بالرجوع واذا بالقسيس قد ازاح الستار ووقف بباب الهيكل وبيده الصليب والانجيل وهو يتلو الصلاة فلم تتمالك عن التقدم نحوه واحناء رأسها تحت الكتاب فقرأ فصلاً من الانجيل بالقبطية على جاري العادة فتشددت ورجعت الى عزمها على الاعتراف

فلما فرغ القسيس من الصلاة مد يده اليها فقبلتها واحس القسيس بارتعاش انامها . وكان الاب منقريوس شيخاً طاعناً في السن عرف دميانة منذ طفوليتها وهو الذي كلل امها وعمدها هي وكان عطوفاً عليها وهو طيب السريرة صادق التدين مع سذاجة وصفاء طوية وقد اطلع على اسرار اعترف له بها اصحابها زادته اشفاقاً على دميانة ورعاية لها — وقسيس الشعب الذي يطلع على اسرار رعاياه اذا كان صادق التدين طيب السريرة كان وجوده بركة وسعادة لانه يستخدم تلك المعرفة للتوفيق بين بنيه وازالة ما يكدر صفوهم من سوء التفاهم . اما اذا كان طامعاً منافقاً فانه يكون شراً عظيماً عليهم لانه يستخدم تلك الاسرار لسلب الاموال والتمتع بالسيادة وغيرها من مطالب العالم

اما الاب منقريوس فكان شيخاً جليلاً قد ابيض شعره واسترسلت لحيته . لا مطمع له في شيء من حطام الدنيا وانما همه خدمة رعيته والتوفيق بينهم . فلما رأى دميانة على تلك الحالة في ساعة لم يتعود ان يراها فيها بالكنيسة ابتدرها بالكلام ليجرئها على بث شكواها فقال « كيف انت يا ابنتي ؟ »

فهمت بالكلام فسبقتها العبرات فاطرقت حياء ووجلاً فقال « ما بالك تبكين ؟ .. ان من كان في مثل حالك من التقوى والاعتقاد بالسيد المسيح لا ينبغي له ان يحزن أو يخاف »

فتشددت وقالت « نعم يا سيدي صدقت وانا قد جئت الآن لاعترف لك بامر اتعبني واقلق ضميري فهل تسمعه ؟ »

قال « كيف لا ؟ .. تفضلي الى كرسي الاعتراف » قال ذلك وتحول الى كرسي بجانب الهيكل يقعد عليه لسماع اقوال المعترفين وامرها ان تقعد على كرسي بين يديه . وبعد ان تلا بعض الصلوات او الطقوس التي تتلى في مثل هذا الوقت قال لها اعطي خبرك يادميانة ولا تخافي فانك تخاطبين نفسك ومهما يكن من خطارة سرك فانه يبقى مكتوماً لا يعلم به احد . كانك تناجين الله في ضميرك »

فاطرقت دميانة خجلاً وقد بدا الاصفرار في وجهها وسكتت فقال « قولي يا ابنتي قولي »

الفصل الثالث

الاعتراف

فرفعت بصرها اليه وتناولت يده وقبلتها و بللت قفاها بدموعها فاجتذب يده منها وقال « قولي يادميانة لا تخافي يا ابنتي . . . ولا اظنك تقولين شيئاً اجهله لاننا معاشر القسيسين لا يخفى علينا شيء من اسرار الرعية بما وهبنا السيد المسيح من سر الاعتراف . وانت تعلمين اني بمنزلة ابيك وقد عرفتك وانت طفلة وعرفت والدتك من قبلك ولا تخفى عليَّ خافية من احوالك »

فلما سمعت قوله صاحت « تعرف ما في نفسي ؟ صحيح تعرف ؟ قل بحياة قدسك . . قل ما تعلمهُ وخفف عني مشقة القول »

فتنحنح القسيس ومسح فمه ولحيته بمنديله وقال « لا يا ولدي لا يجوز ان ابدأ بالقول ولكنني قلت لك ذلك لاهون عليك التصريح »

فقالت « اتعرف جارنا ابا الحسن البغدادي نزيل هذه القرية »

قال « كيف لا اعرفهُ ؟ أليس هو صاحب هذا القصر بجانب قصر ابيك ؟ »

قالت « نعم هو . . انهُ بالحقيقة من اهل اللطف والانس واراه يحب القبط و يلاطفهم ويجاسنهم خلافاً لسواه من اهل الدولة »

فلم يرَ القسيس رابطة بين ما سمعهُ وما كان يتوقع ان يسمعه ولكنهُ ظنها تتدرج في الحديث على سبيل الاسترسال فقال « اراك تحسبين اضطهاد اهل الاسلام للاقباط قاعدة من قواعد حكومتهم . والواقع ان ذلك يختلف باختلاف الرجال فقد كان المسلمون في اوائل دولتهم بمصر اكثر الناس رعاية لنا ورفقاً بنا واحتراماً لعاداتنا وطقوسنا وقد تخلل ذلك اضطهادات كان الحق في بعضها علينا لطمع كبارنا باموال الدولة والامساك عن دفع الخراج او الجزية ومنها السنة التي جاء بها المأمون وقد عاقبنا اشد العقاب مما لا محل لتفصيله الآن . اما ابو الحسن فهو رجل عاقل ومعتدل . عرفت اعتدالهُ على الخصوص من تساهله في معاشرتنا واقتناعه بجزء من هذه الكنيسة لصلاته وقد رأينا غيره يحولون الكنائس الى جوامع (١) » ثم سعل و بلع ريقه وقال « وهناك سبب آخر لتقربه منا

(١) المقريزي ٢٦١ ج ٢

لا اظنك تعرفينه .. وهو ان ابا الحسن هذا ينتمي الى طائفة من المسلمين يقال لها الشيعة العلوية يضطهدها رجال الدولة لانها تخالف مذهب الخليفة وامرائه كما كان حالنا قبل الاسلام اذ انقسمت الكنيسة الى ملكية ويعقوبية وكانت دولة الروم تنصر الملكية لانهم على مذهبها وتضطهد اليعاقبة حتى تمنى هولاء خروج هذه البلاد من حوزتها وقد حصل .. الا تذكرين يوم جاءت اوامر المتوكل خليفة بغداد الى قبط مصر منذ بضع عشرة سنة .. اظنك لا تذكرين ذلك لانك كنت طفلة — انه بعث الى عامله بمصر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ونهى ان يستعان بهم في الاعمال او ان يظهروا الصلبان في شعانينهم وامر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب وان يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في موخر السرج وان يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس آزاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (١) وما زالت هذه الاوامر جارية حتى تولى ابن طولون فابطلها »

« والشيعة قد اصابهم في ذلك الوقت من الاضطهاد نحو ما اصابنا فان ابن الخليفة الذي نحن بصدده كتب الى عامله بمصر ان لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين احد من العلويين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة »(٢)

« وطبيعي يا ابنتي ان الذين يقاسون الذل معاً يتآلفون ويتحابون ولو بعدت اصولهم وتباينت مذاهبهم »

وكان القسيس يتكلم ودميانة تظهر الاصغاء وفكرها يشتغل في تهيئة عبارة تبدأ بها شكواها او تبث بها غرامها فلما فرغ من كلامه قالت « وسعيد المهندس ضيف ابي الحسن او ابنه او مولاه هل تعرفه ؟ »

فنظر القسيس اليها خلسة فوجد سحنتها تغيرت وامتقع لونها وابرقت عيناها فادرك ان ظنه لم يكن مخطئاً فاراد ان يشجعها على التصريح فقال « وانت ... الا تعرفينه يا دميانة ؟ »

فلما سمعت سؤاله نزلت عن الكرسي وجثت بين يديه واخذت تبكي وتهم بالكلام فيمنعها البكاء فصبر عليها حتى هدأ روعها فقال « اظنك تحبينه ... انه شاب حميد الخصال بارع ماهر »

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٣٢ ج ٤ (٢) المقريزي ٣٣٩ ج ٢

فتنهدت دميانة وهي تمسح دموعها وقالت « نعم يا ابتي ‥ اني احبه ‥ وهذا هو الامر الذي جئت لاعترف به واستغفر الله من اجله ‥ احببته رغم ارادتي ياسيدي وانا لم اخاطبه بعد . وانما كنت اشاهده داخلاً الى منزله او خارجاً منه وربما حياني بكلمة او اشارة لا تتجاوز الكلمة وجوابها . ولكنني كنت اسمع بخصاله ومناقبه ومهارته بالهندسة ولم يتفق لي اني اجتمعت به في مكان لان ابي لا يريد ان يرى ابو الحسن احداً من اهله النساء فحجبنا عنه كما يحجب ذاك نساءه عن رجالنا . وقد فعل حسناً فان في ذلك دفعاً للشر وكثيراً ما حاولت البعد وغض الطرف لعلي انسى فلم اقدر » قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقال القسيس « تبكين لانك احببت سعيداً ‥ ؟ وهل الحب محرم ؟ »

قالت « انما ابكي لاني احببت رجلاً لا سبيل لي اليه وان كنت لم احبه بارادتي . ولكنني أحسبني اخطأت خطيئة عظمى لاني احببته وهو مسلم »

ففهم القسيس سر اضطرابها فانهضها واجلسها على الكرسي بجانبه وهو يبتسم فلما رأته يبتسم خف اضطرابها ولبثت تنظر ما يقوله فقال « وما الذي جعلك تحسبينه مسلما ؟ »

قالت « لان اسمه سعيد ولم اعرف احداً سمي به غير المسلمين وقد سمعت انه يلقب بالفرغاني وهذا ايضاً من القاب المسلمين وزد على ذلك اني لم اره في هذه الكنيسة ورأيته مقيماً مع ابي الحسن كاحد اولاده ‥ »

قال « اما اسمه فابو الحسن سماه سعيداً وليس ما يمنع تسميته به . وكذلك اللقب فانه لقب به نسبة الى احد اساتذته المسلمين الذين اخذ الهندسة والرياضيات عنهم في بغداد مدينة العلم لانه سافر اليها مع ابي الحسن وتلقى العلم فيها . واما الصلاة في الكنيسة فلعله لم يتخلف عنها الا وهو غائب عن القرية في عمل او سفر ولعله كان يأتي متاخراً فلا ترينه »

قالت والدهشة بادية في محياها « ليس هو مسلماً ؟ »

قال « كلا يا ابنتي انه مسيحي مثلك »

« فلما سمعت قوله وثبت من مجلسها رغم ارادتها وحملقت بالقسيس وقالت « مسيحي ‥ نصراني مثلنا ؟ »

قال « نعم انه مسيحي يا ابنتي »

قالت « هل انت مؤكد ذلك ؟ »

قال « لا ريب عندي في نصرانيته وقد جلس على هذا الكرسي واعترف لي مراراً »

قالت « جلس على كرسي الاعتراف ؟ واعترف لك ؟ .. واطلعك على مكنونات قلبه ؟ .. آه ... هل اعترف لك انه ؟ .. » وهمت ان تسأله اذا كان اعترف بحبه لها ثم تراجعت خجلاً وعلمت ان سؤالها يخالف قانون الاعتراف فاطرقت وسكتت

فقال « يكفي انك عرفت بانه مسيحي »

فتنهدت وقالت « نعم يكفي » ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت « اشكر الله على ذلك » وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدمع يقطر من عينيها وهي تردد قولها « هو مسيحي .. سعيد مسيحي » ثم انتبهت ان مسيحيته لا تكفي وحدها لاطمئنان قلبها في الحصول عليه . فسكتت وجعلت تتشاغل بمسح عينيها واصلاح نقابها ثم قالت « وهل يعدّ حبي له خطيئة يا ابانا ؟ »

فاجابها القسيس « ان الحب الطاهر يا دميانة ليس خطيئة بل هو من الفضائل التي يثاب الناس عليها ونظرًا لما اعلمه من تقواك وتعقلك لا اخاف تورطك وخروجك عن الحدود التي وضعتها الكنيسة »

فقالت « معاذ الله ان افعل ما يخالف تعاليم الكنيسة ولكن هل تظن والدي ... » قالت ذلك ومنعها الحياء عن الكلام

فادرك انها تسال اذا كان والدها يمانع في زواجها به فقال « ان والدك صعب المراس ولا ادري اذا كان يرضى به بعلاً لك ... »

فقالت « اذا كنت قدسك في مكان والدي هل ترى سعيدًا لائقًا بي ؟ »

قال « اني اراه أهلاً لك لانه من خيرة الشبان تعقلاً وذكاء ومهارة ولا سيما الآن فانه قد احرز ثقة صاحب مصر احمد بن طولون نظرًا لمهارته في فن الهندسة ففضله على مهندسي مصر كافة .. اظنك تعلمين سبب ذلك »

قالت « كلا .. وما هو ؟ »

قال « لما افضت حكومة مصر الى ابن طولون هذا وهو تركي الاصل وجنده اتراك وسكان الفسطاط (قصبة المسلمين بمصر) عرب لا يرضون الرضوخ له لانهم هم اصحاب الدولة ومنهم ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية وكانوا في اول الاسلام يعدون الاتراك والفرس وغيرهم من الامم الاخرى اقل منهم مرتبة وكانوا يسمونهم الموالي . فلما تغلب العنصر التركي في بغداد على ايام المعتصم انحط شأن العرب وخرجت مقاليد الدولة من ايديهم وتولاها الاتراك او الفرس او غيرهم فاصبح العرب ينظرون الى هولاء بعين الغدر والحسد .

وعلم ابن طولون ذلك فلم يعد يأمن القيام بينهم فعزم على ان يبني لنفسه بلدًا خاصاً يجعله معقلاً له ولجنده فابتنى بين الفسطاط والمقطم قطائع انزل فيها رجاله وبنى قصرًا له فاعوزه الماء لان القطائع بعيدة عن النيل ومرتفعة عنه لا يسهل الاستقاء بها فاراد ان يجرّ الماء اليها فلم يجد من يستطيع ذلك الا سعيدًا فانه تعهد له باستنباطه وقد وضع له رسماً هندسياً لم يستطعه سواه وباشر العمل واظنه فرغ منه الآن وجري الماء في القطائع في جهة تعرف بالمغافر وعما قليل يحتفل ابن طولون بمشاهدة هذا الماء يجري . فاذا راى العمل متقناً كافأ سعيدًا مكافأة يحسده عليها كثيرون

فسرت لاول وهلة سرور المحب بما يناله حبيبه من الرقي ثم انقضبت نفسها مخافة ان يحول ذلك الرقي دون مرادها وهي الى تلك الساعة لم تعلم رابه فيها وان كان قلبها يدلها على تبادل المحبة بينهما . فاصبحت كثيرة الشوق الى مقابلته لترى ما يبدو منه ولا تعرف وسيلة للاجتماع به لانه كان يقضي معظم ايامه في الفسطاط او القطائع

ولما علم القسيس انها قد فرغت من الاعتراف فوقف ووقفت فرفع يده على رأسها وباركها وصلى ودعا لها فقبلت يده والصليب الذي يحمله وخرجت . وانصرف هو الى غرفة يقطنها بلصق الكنيسة ولم يعرض عليها من يوصلها الى بيت ابيها وقد امسى المساء لعلمه انها لا تخرج الا وخادمها العم زكريا معها . ولم يدر انها اتت وحدها خلسة في ذلك اليوم

الفصل الرابع

سعيد

ولما خرجت من الكنيسة كانت الشمس قد غربت واخذت الاظلال تتكاثف ولكن القمر كان في رابعه الاول . ظلت بضع دقائق تتردد في هل تطلب من القسيس من يوصلها الى بيت ابيها او تسير وحدها وكانت وهي تفكر في ذلك تخطو بغير انتباه حتى تجاوزت تلك النخلة واطلت على البساتين . واشرفت على النيل وقد اكمد لون مائه من ظل السماء لكن سطحه زاد لمعاناً لتكسر ضوء القمر على وجهه المتجعد كان الزمان اثر فيه فتكمش مثل تكمش وجوه الشيوخ . فعولت دميانة على المسير وحدها وهي تستغيث بام الاله صاحبة تلك الكنيسة وحامية تلك الناحية ان لا يراها احد حتى تدخل غرفتها

وهي في ذلك سمعت وقع حوافر جواد تعودت ان تسمع مثله مارًا بجانب منزل ابيها وسمعت صهيل الفرس تخفق قلبها لعلمها انهُ فرس سعيد ولانها ستلتقي به منفردة في ذلك الليل هناك وهي لم تتعود هذه الحرية ولا سبق لها مخاطبة سعيد بغير التحية بين يدي والدها وزد على ذلك انها خارجة من ذلك الاعتراف وقد تنبهت شعائرها فوقفت في حيرة بين ان تتوارى عن الطريق حتى لا يراها او تقف له وتغتنم تلك الفرصة لمعرفة ما في نفسه منها وكلا الامرين شاق عليها

وهي تتردد وتعمل فكرتها رأت الفارس اصبح امامها وحالما وقع بصره عليها عرفها فترجل باسرع من البرق وتقدم وهو ممسك لجام الفرس بيساره ووقف بين يدي دميانة وقفة احترام وتخشع وعليه لباس السفر وعلى رأسه بدل القلنسوة او العمامة الكوفية والعقال وقد التف بعباءة من الحرير فوق القباء والسراويل . وكان اسمر اللون يغفي الوجه على العينين مع وداعة وذكاء قصير الحاجبين صغير الفم خفيف الشاربين واللحية تلوح الصحة في محياه و يتدفق الذكاء والحدة من عينيه — واتفق وقوفه مواجهًا للقمر فظهرت تلك الملامح ظهورًا واضحًا وزادها ضوء القمر هيبة

اما هي فكان الضوء واقعًا على جانب رأسها فاكتسب وجهها من تكسر الاشعة واختلاف كثافتها على تقاطيعه رونقًا . وكانت عيناها قد ذبلتا من البكاء بين يدي القسيس فزادتا ذبولًا عند رؤية سعيد لما جاش في خاطرها من لواعج الحب وما يتنازعها من عوامل الدهشة والرجاء والخوف فوقفت كالصنم لا تتحرك . لكنك لو جسست يديها او سمعت حركة قلبها لظننتها بطارية كهربائية عليها مرجلٌ يغلي ماءه و يتدفق بخاره لما يبدو لك من ادلة ذلك في ارتعاش اناملها وخفوق قلبها واصطكاك ركبتيها

اما هو فتقدم نحوها بخشوع ووقار وكلها — وطالما تمنى ان تسنح له مثل هذه الفرصة اذ لا حرج عليه اذا خاطب الفتاة يعرض عليها خدمة لانفرادها هناك في ذلك العشاء فقال « هل تأذن سيدتي دميانة بمخاطبتها »

فلم تجب بلسانها وانما اجابت بعينيها ولم تحركهما فقال « اراكِ وحدكِ هنا ولعل خادمكِ ابطأ عليكِ فهل تأمرين ان اكون في خدمتك الى المنزل او حتى يأتي الخادم فاتشرف بهذه الخدمة »

فاطرقت وهي تصلح طرف نقابها وقالت بصوت تخامره بحة « اشكرك ياسيدي واخشى ان يكون في ذلك تعب عليك »

قال « كلا ‥ واذا خفت التعب لان الطريق طويل فاركبي هذا الفرس وانا اقوده وارعاه ولا بأس عليك منه »

فقالت وقد استأنست بتلطفه واستدلت منه على انهُ يضمر لها مثل ضميرها له فقالت « لقد بالغت في التلطف يا سيدي بل يكفيني حظاً ان امشي الى جانبك فاكون في ظلك لا اخشى باساً ولا اخاف تعباً » قالت ذلك وهي تكاد تشرق بريقها من شدة الاضطراب وتشاغلت بالمسير وهي تتعثر بثوبها وركبتاها ترتعدان

الفصل الخامس

المشاكاة

فتبعها سعيد وهو يقود جواده وقد رأى المقام ذا سعة ليشكو لها ما يكنهُ ضميره فقال « اذا سرنا معاً فانا اكون في ظلك يا سيدتي لانك صاحبة هذه الارض ومالكة رقاب اهلها وقلوبهم وما انا في شيء من مثل ذلك كما تعلمين »

فالتفتت اليه ونظرت نظرة عتاب وقالت « لا تقل يا سيدتي »

فقال « وماذا اقول اذا ؟ »

قالت « قل دميانة وهذا يكفي »

فلما سمع قولها تهلل وجهه فرحاً وقال « هل تاذنين بذلك ‥ هل تاذنين ان اسميك باسمك فقط ؟ »

قالت « بشرط ان تاذن لي ان ادعوك سعيداً »

قال « انت صاحبة الاذن الاول ويكفيني حظاً انك اذنت ان اكون في خدمتك هذا المساء في اثناء هذا الطريق ‥ على اني ارى مسافة هذه الخدمة قصيرة فهل يتاح لي يا ترى ان تطول مدتها ؟ »

فتراجعت ونظرت اليــه نظرة تغني عن خطاب طويل وقالت « لا تقل خدمة فانما هي رفقة »

فقال « وهل تاذنين ان تطول هذه الرفقة يا دميانة » قال ذلك وفي غنة صوته معنى لا يعبر عنه بالكتابة »

فادركت تلميحه وفهمت مراده فاخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً وسرها تصديه لهذا السؤال فنظرت الى وجهه على ضوء القمر وعيناها شاخصتان ببسمة وقالت وصوتها يرتجف « طول الحياة . . . » وغلب عليها الحياء فتوردت وجنتاها واطرقت تنتظر جوابه . فلما ابطأ خافت ان تكون قد تسرعت بهذا التصريح فتباطأت في المسير فطاوعها سعيد في التباطوء ولحظ استغرابها سكونه فقال « قد تستغربين سكوتي يادميانة بعد أن سمعت كلمتك الثمينة التي قلدت بها عنقي . . . انما سكت من الدهشة والاكبار لاني شعرت بالانتقال فجأة من مصاف الاشقياء الى مراتب اهل السعادة . . . ان هذه الكلمة يا دميانة كتاب كبير وجلد ضخم . . بل هي وحي سماوي نزل على قلبي فاناره وأراني مستقبلاً مجيداً لم اكن احلم به وفوق ما كنت اطمع بمثله . . بل هي روح حلت في ميت امالي فبعثته من القبر . . مرت بي احلام الصبا يادميانة وحدثتني نفسي بضروب من السعادة تخطر في اذهان الاحداث و يندر ان ينالوا عشر معشارها فلم يخطر ببالي سعادة كالسعادة التي اكتنفتني عند سماعي هذه الكلمة الثمينة . . . انها ابلغ ما نطق به الشعراء واسمى ماخطر على بال بشر . . طول الحياة ؟ . اطال الله حياتك يا دميانة حتى تطول اسباب سعادتي . . » ثم تراجع وقد انتبه لتسرعه في تفسير قولها والتفت اليها وهي تنظر اليه وقد حدقت بصرها في وجهه كانها تهم ان تحتضنه باجفانها فاحس بسهم اصاب قلبه وانه غلب على رشده فقال « اخشى يا دميانة اني تسرعت في تفسير مرادك . . هل تعنين ما فهمته ؟ . . ام غلب علي الوهم ففهمت ما اتمناه ؟ . . »

فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت « ابعد ما تراني فيه من دلائل !! . . . تغالطني وتطلب مني زيادة الايضاح . . . اشفق على عواطفي واكتف بما تراه من اضطرابي . . . وبعد ما ظهر لي من احتفائك بتلك الكلمة ومغالاتك في قيمتها . كيف لا اعني ما فهمته . . نعم انك قد فهمت مرادي كانك تقرأ أفكاري . . ولا عجب فانك مقيم في قلبي »

فلم يتمالك ان صاح من الفرح والدهشة « مقيم في قلبك ؟ حبذا المقام ان لم يكن فيه تثقيل عليك . . ماذا اقول يا دميانة وقد غلبتني على امري وضيقت علي ابواب الكلام . . فاعترف بعجزي عن الخوض في هذا البيان واكتفي بعبارة بسيطة فاقول اني احبك حباً يكفي للتوفيق بين الملكية واليعاقبة ونزع ما بينهما من الضغائن . أو للتاليف بين الاقباط والمسلمين حتى يصيروا امة واحدة . ولا اطلب منك التصريح بما في قلبك فقد عرفته وأخشى أن اسمع كلمة أخرى تأخذ بلاغتها بعقلي . . »

وكانا يتشاكيان ويتكاشفان الاسرار وهما يسيران والفرس يسير في اثرهما لا يسمع لحوافره وقع كانه شعر بانقاد ذينك القلبين وادرك حاجة صاحبيهما الى السكينة فشارك الطبيعة بالهدوء تهيباً من سلطان الحب واكراماً لذينك الحبيبين في ذلك المساء المقمر . واما الحبيبان فكانا ينقلان الخطى وهما لا يعلمان الى اين يسيران ولو مشيا على تلك الحالة اياماً لحسباها لحظات قليلة فكانا في شاغل عن حفيف الورق وتنادي الفلاحين ونباح الكلاب وصهيل الخيل كأنهما في عالم آخر

الفصل السادس

العم زكريا

وهما في تلك الغفلة رأيا شبحاً مقبلاً يعدو من جهة بيت مرقس . رآه اولاً سعيد فقال « ارى شبحاً مقبلاً اظنه رجلاً هل تعرفينه »

فالتفتت وتفرست فيه ثم قالت « انه خادمي العم زكريا .. وأظن والدي استبطأني فبعث يتعجل مجيئي »

فعلم سعيد انه لابدله من مفارقتها فقال « ان هذا العم سيأخذك مني او بالحري سيفصل بيننا »

فقطعت كلامه قائلة « موقتاً ان شاء الله »

فرد قولها « موقتاً ان شاء الله » مراراً ثم اجتذب اللجام حتى اقترب الفرس منه وقال وهو يحك جبهة الفرس « والآن انت ذاهبة الى بيت ابيك وستلهين عني بالخدم والجواري وبمعدات السعادة واما انا فلا انيس لي الا خيالك »

قالت « لا يشغلني عنك شاغل بعد ما دار بيننا » وكأنها ارادت اتمام الحديث فمنعها الحياء . فقاطعها قائلاً « لا تطول مدة الفراق ان شاء الله »

قالت « ذلك يتوقف على رأيك و ... »

قال « انا ذاهب في الغد الى الفسطاط لارى ما يأمر به اميرنا ابن طولون بعد فراغي من بناء العين وجر المياه وسيعين يوماً يحتفل به بجرها وسأنال المكافأة وارجو ان تسرك . وعند ذلك اتقدم الى الامر الذي جرأتني عليه من فضلك . فاستودعك الله

الآن » ومد يده اليها فمدت يدها فصافحها وضغت على اناملها واحس ببرودها فاجابته بمثل ذلك واومأت الى القمر وهي تنظر في عينيه ولم تقل شيئاً ففهم مرادها وقال « وانا استشهد هذا الكوكب السيار على عهدنا » والتفت فرأى العم زكريا يتباطأ في مشيه عمداً كانه علم ما بينهما واراد مساعدتهما . فلما رآهما يتصافحان تقدم اليهما وحياهما بتأدب وسكينة

وكان زكريا كهلاً اجروداً اصله خصيٌّ اسود ربي في صباه عند ملك النوبة ثم تنوقل بالهدية حتى وهب لدميانة ليلة ولادتها على ان يكون في خدمتها الى اخر حياته . وقد أخلص لها الخدمة — وهؤلاء الخصيان اذا صدقوا في حبهم كانوا اقرب مودة لاسيادهم من الاخوة والوالدين وكانت دميانة تأنس بزكريا وتكرمه وتناديه « يا عماه » وكان يعرف سعيداً معرفة جيدة ولم يفته ما يكنه لدميانة ولا ما في قلب دميانة مع انها لم تذكر له شيئاً من ذلك . وكان يرى بينهما تناسباً ويتمنى ان يتم اقترانهما — فلما التقى بهما في تلك الخلوة بادرها قائلاً « لقد شغلت بالنا يا مولاتي لغيابك ولو علمت انك التقيت بمولاي المهندس الماهر لما تحملت مشقة السعي اليك ولكن سيدي والدك قد امر بالبحث عنك لتعجيل مجيئك »

قالت « يحق لكم استبطائي ولكنني شعرت بحاجة الى الصلاة والاعتراف فجئت الى الكنيسة وطال وقوفي امام صورة سيدتنا والدة الاله فغابت الشمس قبل خروجي واتفق مرور جارنا الشهم فترجل عن فرسه ومشى معي »

فابتدرها زكريا قائلاً « فوجب علينا شكره على هذه الاريحية » والتفت الى سعيد وقال « اشكرك يا سيدي على تحملك هذه النقلة فاذا شئت اركب فرسك الى منزلك وانا امشي في خدمة مولاتي الى البيت فاننا على مقربة منه »

فنظرت دميانة فاذا هي بجانب بيت ابيها ولم تكن تحسب نفسها قريبة بهذا المقدار فبغتت وجعلت تصلح من شأنها وتهدئ روعها لئلا يبدو حالها لابيها . اما سعيد فودعها وركب فرسه وتحول الى منزل ابي الحسن وما زال يلتفت نحوها ويشير مودعاً حتى توارت عن بصره

اما دميانة فما مشت خطوات قليلة حتى رأت الانوار في حديقة بيت ابيها ووقع نظرها على ضفة النيل التي تليه فرأت انواراً عديدة لم تعهد مثلها هناك فقالت « ما هذه الاضواء التي أراها في النيل ؟ »

قال « هذه سفينة المادراني صاحب الخراج واهلها اضياف عندكم »

فتذكرت انها شاهدتها تخترق عباب الماء في اصيل ذلك اليوم فقالت « مالنا وللمادراني لا اذكر انه يزورنا ولا اعرف وجهه فما الذي اتى به اليوم »

قال « هي سفينة المادراني ولكن المادراني لم يات فيها »

قالت « من اتى بها اذاً ؟ »

قال « اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني وهو صديق سيدي والدك ... قد جاء في هذه السفينة الفخيمة مبالغة في الابهة »

فلما سمعت اسم اسطفانوس تغير لونها ووقفت وقد جمد الدم في عروقها . ولم يجهل العم زكريا سبب تلك البغتة ولكنه تجاهل وقال « هيا بنا يا سيدتي فقد طال انتظار والدك قدومك »

قالت « طال انتظاره قدومي « وهل يهمه امري » وعنده من السراري والجواري ما يشغله عن هذه اليتيمة المسكينة التي ذهبت سعادتها بموت والدتها .. رحمك الله يا اماه » قالت ذلك وحرقت اسنانها ومشت وهي تقول « وما غرض هذا الشاب الجاهل من هذه الزيارة يا ترى .. اظنه جاء لمعاقرة الخمر مع والدي وتمضية الوقت بالمجون والخلاعة على جاري العادة »

فتاثر زكريا مما شاهده من حرقتها فاراد تشجيعها فقال « وما الذي يهمك من ذلك يا مولاتي ؟ »

قالت « كيف لا يهمني امر والدي يا عماه « ألا يهمني ان يكون من معاقري الخمر واهل المجون «هل رأيته ذاهباً الى الكنيسة ام هل سمعته يصلي » وما الذي ابقاه لآخرته وانت تراه يقضي اوقاته فى الخلاعة والمجون .. وهو لذلك لا يصاحب الا من كان على شاكلته .. ما قولك برجل يتخذ اسطفانوس هذا صديقاً حميماً له ينفق امواله عليه ؟ »

فقطع كلامها قائلاً « ألا تعلمين لماذا يصاحبه و يكرمه » . لا يخفى عليك سعة املاك سيدي والدك وما يلحقها من الخراج الكثير وهذا الشاب ابن كاتب الخراج وله دالة على المادراني بواسطة ابيه فيخدم اباك في تخفيف مبالغ الخراج وقد مضت عدة اعوام لم يدفع ابوك من الخراج شيئاً »

قالت « بئس الاقتصاد .. أراه ينفق عليه في المآدب والعزائم والهدايا فوق ما اقتصده من الخراج .. ثم ان الخراج حق للحكومة لا ينبغي امساكه عنها والا فنكون قد سرقناها ان اهل الذمة والضمير لا يقبلون بذلك »

الفصل السابع

المائدة

وكان زكريا يمشي بين يديها وهما يسيران الهوينا لاتمام الحديث قبل الوصول الى المنزل فاستغرب تعقلها وصدق نظرها لانه سمع منها قولاً لم يسمعه الا من كبار الرجال المتفانين في نصرة الحق والعدل . ثم تذكر تقواها وتدينها فادرك ان ظنها ناشيء عن قول المسيح « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » — وفكر في امرها وما يهمها من امر ابيها فاستوقفها وقال « ان الذي يهمك من هذه الشكوى أمران الاول انك تخافين ان يبذر والدك امواله فيضيع حقك من الارث و . . . »

فقطعت كلامه قائلة « ان المال يهمني كثيراً ولكن لدي امراً آخر اهم منه »

فقال « لو صبرت لأتمم حديثي لاستغنيت عن هذا البيان . . والامر الثاني انك تكرهين اسطفانوس وتكرهين عشرته وتخافين ان تأول صداقة والدك الى تمكين عرى القرابة معه فتعود العائدة عليك وانا اعلم انك تبغضين هذا الشاب كما تبغضين جهنم . . . »

فسرها ان العم زكريا فهم مرادها وعرف ما يكنه ضميرها واحسن التعبير عن مقدار بغضها اسطفانوس وبالحقيقة ان اباها لمح لها مرة انه يحب اقترانها به فلم تجبه على انها لا ترى كل ذلك شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى حرمانها من سعيد ولا سيما بعد الذي سمعته في تلك الليلة . وهمت ان تبوح بذلك لزكريا فمنعها الحياء . وكان زكريا يمشي بجانبها والمصباح بيده فلما آنس منها الاطراق والسكوت والتفكير رفع المصباح الى وجهها وتفرس فيه وهو يبتسم وقال « وقد قرأت في وجهك شيئاً اخر » وتنحنح وسعل وصبر هنيهة ثم قال « ان سعيداً رجل شهم وهو وحده اهل لك . . . »

فلما سمعت قوله بهذه الصراحة زادت ضربات قلبها وتولاها الخجل ولم تجب فابتدرها هو قائلاً « وهذا الامر على خطارته لا ينبغي ان يهمك كثيراً . . . انك ستنالين كل ما تريدين باذن الله ونعمة يسوع المسيح . (وكان العم زكريا نصرانياً مثل سائر اهل النوبة في ذلك العهد) — ستنالين سعيداً وسيذهب اسطفانوس هذا مخذولاً وستكونين صاحبة هذه الثروة وحدك اي وقت شئت . . انما يجب علينا ان نتوخى التؤدة والحكمة والله

المستمعان » قال ذلك وامارات الجد بادية في صوته ولو استطاعت دميانة التفرس في وجهه لرأت في عينيه معاني لا يعبر عنها بالنطق على انها فهمت قوة عزمه من لحن صوته كأنه يتكلم عن ثقة وسلطان لكنها حملت قوله محمل الخمس لها تخفيفاً عنها لانه يحبها و يريد راحتها فقالت « اني لا افتر عن الصلاة والدعاء مساء صباح اتوسل الى السيد المسيح ان يبعد عني هذه التجارب وارجو ان يصغي لطلبتي » وقد سرّها تصدي العم زكريا للاخذ بناصرها فزادت استئناساً به واركاناً اليه وهي تعتقد صدق ولائه واخلاصه . ومشيا حتى اقتربا من باب الدار ففتح لهما البواب فدخلا فاطلا على حديقة قد انيرت بمصابيح ملونة معلقة باغصان الشجر . وقد مدت المائدة تحت شجرة كبيرة تدلت المصابيح من اغصانها كالعناقيد وعلى المائدة الاقداح والاباريق وفيها اصناف الخمر يتخللها اطباق الفاكهة والاطعمة و باقات الرياحين . فتحولت دميانة نحو غرفتها وظل زكريا في طريقه حتى اقبل على سيده وكان جالساً على وسادة عالية بجانب المائدة وبجانبه صديقه اسطفانوس وقد لعبت الخمر في رأسيهما

الفصل الثامن

مرقس واسطفانوس

وكان مرقس كهلاً متصابياً يؤلمه التفكير في كهولته واذا خطر له انه قارب الستين من عمره غالط نفسه وزعم ان اباه اخطأ في تعيين عام ولادته — فكيف اذا سئل عن سنه . على انه كان شديد الغضب ممن يطرح عليه هذا السؤال و يعدّه وقاحة او اهانة مثل كثيرين من كهول هذا الزمان الذين يشق عليهم ان يعرف الناس مقادير اعمارهم . واذا ظهر سن احدهم ظهوراً لا سبيل الى انكاره يسرّه ان تظهر استغرابك لما سمعته وتقول له « يظهر انك اصغر سناً من ذلك كثيراً » فيعدّ قولك تقريظاً له فيثني على حسن ظنك فيه كأنك اطريت مناقبه فذكرت مآثره في المجتمع الانساني او تفوقه في العلم على اقرانه او ابلاءه في الدفاع عن وطنه . . !

كان صاحبنا مرقس من اهل هذه الطبقة وقد زاده تمسكاً بظواهر الشباب انصرافه الى ارضاء سراريه واكتساب اعجابهن فكان لا يدخر وسعاً في اخفاء علامات الكهولة واصبح

منذ انصراف الشباب اذا ابيضت شعرة في شاربيه او لحيته او رأسه نزعها . فلما تكاثر الشيب عمد الى الخضاب يسوّد به «وجهه» وبدلاً من ان يكون الشعر نظيفاً كما خلقه الله يطليه بكلس اسود كما تطلى الجدران بالكلس الابيض او يصبغه بالعقاقير كما تصبغ الجلود او الانسجة فهو يخدع الناس لانه يريهم من حاله غير ما هو عليه وذلك من قبيل الرياء لكنه مستحسن عند الاكثرين . واكثرهم لو توسم فيك مداجاة او خداعاً لاحتقرك وتجنب عشرتك وفاته انه يداجي الناس بخضابه فيريهم من احواله غير الواقع — . يوهمهم انه شاب وهو كهل وانه اصغر سناً مما هو كانه سئل عن عمره فكذب مع انه يكره كل انواع الرياء والكذب الا الخضاب فانهم يعدونه من قبيل المبالغة في اصلاح الهندام واول شروط الهندام النظافة . . . وابعد الخاضبين عن الهندام من يخضب شاربيه ويترك شعر رأسه ابيض

على ان بعض الكهول لا يريد بالخضاب ايهام الناس انه شاب وانما هو يكره الشعر الاشمط . اما مرقس فانما اراد بالخضاب الاحتفاظ بمظاهر الشباب بين يدي اهله ولذلك كان اذا احس بانحطاط في قواه لسبب من الاسباب عمد الى المنبهات فشرب الخمر واكثر في طعامه من اللحوم الحارة والافاوية وتنشق العطور ولازم الراحة والخمول وهما من بواعث السمن فانتفخ وجهه وجحظت عيناه وغلظت عنقه وتعالى صدره وبطنه فاصبح لتصر قامته اذا لبس السراويل والقباء يكاد عرضه يساوي طوله . واذا تفرست في وجهه رأيته لا يبرح ضاحكاً مسروراً كان الطبيعة طوع ارادته لا يخاف مستقبلاً ولا يرهب قدراً محتماً . انما همه ان يتمتع بالحياة جهد طاقته فلا يسره الا مجالسة المنهمكين على شاكلته وينفر من احاديث الجد . بل هو لا يقوى على اعمال الفكرة برهة بغير ان يمل ويضيق صدره ولعل السبب في ذلك تعوده الابتعاد عن التعب بعد ان اتته تلك الثروة الهائلة فاصبح لا يفتقر الى العمل

وكان من جملة ادلة رغبته في المحافظة على الشباب انه لا يصاحب الكهول لانهم يغلب فيهم الرزانة والبعد عن المجون والتهتك فكان يعاشر الشبان ويقلدهم في حركاتهم وسكناتهم فيجالسهم ويشاربهم ويؤاكلهم . وكان حديثه طلياً فكهاً يتخلله كثير من النكت والمغامز اللطيفة فاذا سمع نكتة ضحك لها وقهقه طويلاً

وكان اسطفانوس من جملة عشرائه الشبان وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره وكان مرقس عشير ابيه من قبله — واما والد اسطفانوس فكان رجلاً عاقلاً وجيهاً اسمه المعلم حنا ترقى في مناصب الدولة حتى صار كاتباً للمادراني صاحب الخراج ونال نفوذاً كبيراً وجمع ثروة حسنة . وقد احسن كل عمل عمله الا تربية ابنه اسطفانوس لانه كان ضعيفاً

من جهته او لعل الذنب ليس له بل للفطرة لانك اذا تدبرت احوال الناس في تربية ابنائهم قلما رايت للتربية تأثيرًا في ذلك وما هي الا كالصقل للمعدن تجلو ظاهرهُ ولا تغير جوهرهُ ٠ ومهما يكن السبب فقد شب اسطفانوس على الانهماك بالملذات والاخلاد الى الرخاء ولم يكن مضطرًا الى العمل ولا فيه ميل اليهِ فنشأ في عيش سهل لا همَّ له الا ماذا يأكل او يشرب وكان وحيدًا لابيه وله دالة عليه لايطلب امرًا الا ناله ٠ وعرف مرقس ذلك فازداد رغبة في تقريب اسطفانوس منه فضلاً عن توافقهما في الطباع وقد استفاد من عشرته اغضاء جباة الخراج عن تحصيل خراج اطيانه عدة اعوام

وكان اسطفانوس يتقرب من مرقس لثروته وقد شاهد دميانة من صغرها فاحبها ٠ وكان جميل الخلقة معجبًا بشبابه وعنده ان الانسان انما تقاس منزلته بمقدار جماله — وقد يصح هذا الزعم في النظرة الاولى وربما تعداها الى ما بعدها فانك ترى اكثر الناس يأخذون الامور بظواهرها ٠ وكم من غبي لولا جمال طلعته وفخامة شكله لمات جوعًا ولكنه يجد بين البسطاء مرتزقًا و يلقي بينهم من يصغي الى قوله ويأتمر بامره ٠ بل نرى الجماعات من النساء والرجال والاطفال يصغون و يأتمرون — كم بين سكان القرى من كهنة اغبياء اذا ذكر الرعية فضائلهم احسبوك الاطناب بتلك القامة الطويلة والوجه الجميل واللحية الكبيرة والكف البيضاء السمينة والصوت الرخيم او الجهوري ٠ وقد يقتصرون على هذه الحسنات فلا يهمهم شيء من علمهم او ادارتهم او تدينهم ؛ فبين هؤلاء وامثالهم من زعماء العامة جماعات لولا فخامة مظاهرهم لماتوا جوعًا

واعتبر ذلك في غير العامة ممن تاخذهم الظواهر فينخدعون بها ولاسيما في اختيار الازواج — فكم من فتى غرة الطرف الكحيل والخد الاسيل والقد الرشيق وكم من فتاة خدعها جمال الطلعة وفخامة المظهر وقد يكون وراء ذلك ما يبكي العيون و يدمي القلوب ٠ ولم يخل عصرٌ من شبان يعولون في التزوج على جمالهم (فقط) وكان اسطفانوس من هؤلاء وقد طمع بدميانة لجمالها ومالها وهو يعتقد ان امرها راجع الى ابيها فجعل يتزلف اليه بالخدمة أو باطراء ذكائه وطلاوة حديثه و يحاول التغلب على رايه من موضع الضعف فيه فيطنب بما في وجهه من نضارة الشباب وان من يراه يحسبه لم يتجاوز سنه الثلاثين ٠ وكان من الجهة الاخرى يحسب رضى الفتاة مضمونًا ان لم يكن لجاه ابيه او لخاطر ابيها فلجماله فكان اذا زارهم اصلح من شانه وتطيب ولبس احسن ثيابه واثمنها وكانت دميانة تنفر من ذلك المتندم وتعده من قبيل التخنث او الخلاعة ولا سيما بعد ان عرفت انهماك الشاب في المسكر ولكنها لم تكن

تظهر له احسامها فاذا لم يعجبها مجالسه دخلت غرفتها تصلي اوتقرا اوتجالس بعض جواري القصر ممن ربينها من صغرها

الفصل التاسع

الدعوة

فلما اطل العم زكريا على مرقس واسطفانوس وهما على المائدة قال مرقس « اين كانت دميانة .. واما الذي اعاقها ؟ »

قال « كانت في الكنيسة تصلي وتعترف وقد عادت »

قال « ادعها الى هنا لتتناول بعض الفاكهة »

فاشار مطيعاً وذهب اليها فراها واقفة امام المراة الفضية وهي تبدل ثيابها وتتاهب للرقاد فقال لها ان « سيدي يطلب حضورك »

قالت « قل له اني ذهبت الى الفراش »

قال « اذا قلت ذلك لا يصدقني لانه رآك داخلة .. ولا ارى باساً من جلوسك هنيهة معه ثم تعتذرين بالنعاس وتذهبين »

فاطاعته والتفت بمطرفها وخرجت الى الحديقة فاستقبلها ابوها ضاحكاً مازحاً وقال « لقد طال غيابك في الكنيسة يادميانة .. الا تشبعين من الصلاة ؟ »

قالت وهي تجلس على وسادة في طرف البساط المفروش هناك « ان الصلاة لذيذة يا ابي » قالت ذلك وابتسمت تلذذاً بذكر الصلاة

فقال « فاذاً ستفرحين كثيراً اذا عرفت اننا ذاهبون غداً الى شبرا لحضور الاحتفال بعيد الشهيد » وضحك

فاطرقت وقد علمت من غنة صوته انه يعبث بها ويعرض بمبالغتها بالصلاة ولما سمعت ضحكه قالت « ان عيد الشهيد عيد مبارك وفيه فضل وبركة لانه يبشر ببدء الفيضان اذ يلقون فيه التابوت واصبع الشهيد وحالما يحل في النيل ياخذ ماؤه بالفيضان [1] لكنني اعلم ان الاحتفال به اصبح بطريقة لا ترضي الله اذ يتخذه بعض الناس فرصة لاراقة الخمور والتمتع بالشهوات

(١) المقريزي

فقال وقد تناول تفاحة جميلة ودفعها اليها « مالك وللناس نحن نذهب لحضور الصلاة والاحتفال باخراج التابوت و . . »

فتناولت التفاحة من يده وقطعت كلامه قائلة « ولكن مثل هـذا الاحتفال تتزاحم فيه الاقدام وتتحاك المناكب ويختلط الحابل بالنابل فلا يجد المرء موطئاً لقدميه »



دميانة بلباس البيت تقرأ في كتاب الصلاة

فنظر اليها وهو يستخف بما تقوله وقال « كانكِ تحسبيننا ذاهبين لنقف مع الرعاع والعامة . . . انما ذاهبون مع صديقنا اسطفانوس في سفينة صاحب الخراج . . . اظنك شاهدتها راسية على الشاطىء فنركبها وفيها الغرف والمطابخ للطعام والنوم ونخترق بها النيل فنقف حيث نشاء وننظر الازدحام ونحن في وسعة ونشاهد الاحتفال في راحة . . . فيجب علينا ان نشكر صديقنا اسطفانوس على هذه الدعوة »

فلما سمعت دميانة قوله وعلمت انها ذاهبة مع اسطفانوس استعاذت بالله وتراجعت حتى بدا التردد في عينيها . اما اسطفانوس فتذرع بشكر مرقس الى الكلام فقال « العفو يا مولاي انما يجب عليَّ ان اقدم فرائض الشكر اذا تنازلت السيدة دميانة ورضيت بالذهاب معنا »

فلم يزدها هذا التلطف الا نفوراً ووقعت في حيرة بين ان تقبل الدعوة فتقضي

بضعة أيام مع اسطفانوس وهو ثقيل على قلبها أو ان ترفضها ولا تأمن ان يلح عليها والدها فتضطر للذهاب مرغمة فظلت ساكتة فقال ابوها « ما بالك لا تتكلمين يا دميانة الست مسرورة بهذه السياحة أو الزيارة »

فسبقها اسطفانوس الى الكلام وقد تناول الابريق بيده واخذ يصب منه الخمر في قدح من الزجاج المنقوش وقال « لاحاجة الى سؤالها فقد قالت امها لا تريد الذهاب » وفرغ من الصب فادنى القدح من فيه وقد ارسل رأسه الى الوراء فاسترق نظرة اليها بين القدح وكمه فرآها لا تزال مطرقة وهي تتلاهى بالتفاحة بين اناملها وقد غلب الحياء عليها حتى توردت وجنتاها

فتصدى مرقس للجواب عنها وبيده اليمنى القدح يعيده عن فيه بعد ان شربه واخذ يمسح باليسرى شاربيه وفمه وقال « كيف فهمت انها لا تريد الذهاب وهي ارغب الناس في الصلاة والاحتفالات الدينية .. وكانت تخاف الازدحام فبعد ان علمت بذهابنا على الدهبية كما ذكرنا لا اظنها ترى مانعاً ... وفي كل حال فهي تذهب مع ابيها حيثما سار »

فادركت دميانة انه يعرض بسلطته الابوية وانه سيأخذها رضيت أم لم ترض فرأت الموافقة اليق فالتفتت الى اسطفانوس وقالت « ظنتني رفضت الذهاب .. ولا رأي لي بوجود والدي فاذا أمر اطعت »

فبش لها ابوها وقال « بورك فيك ياولدي ولكنني لا احب ان اضغط على فكرك ... فبناء على ذلك نحن ذاهبون غداً على الدهبية .. كوني على استعداد »

الفصل العاشر

ابو الحسن البغدادي

أما اسطفانوس فاظهر الارتياح وابرقت عيناه واخذ يتصدر ويعالج مجلسه ليستلفت انتباهها الى جمال عينيه وعظم هيبته وهي لا تزداد بذلك الا نفوراً منه حتى ضاقت ذرعاً من تلك الجلسة وهمت بالنهوض واذا بالمعلم زكريا أقبل مسرعاً وهو يقول « ان جارنا ابا الحسن بعث يستأذن في السهرة عندنا »

فلما سمع مرقس ذلك بغت وقال « دعه يدخل الى المنزل من الباب الآخر ونحن قادمون لملاقاته واوقد القاعة الكبرى بالشموع جيداً »

قال ذلك ونهض واخذ يمسح شاربيه ولحيته ويصلح هندامه ودعا اسطفانوس للدخول معه وتركا دميانة لتذهب الى غرفتها من طريق آخر لئلا يراها الضيف او الجار — ولم يكن الحجاب يومئذٍ شائعاً عند القبط او لعله كان في اول شيوعه • وسببه على الغالب ان المسلمين كانوا يحجبون نساءهم عن النصارى كما يحجبونهن عن سواهم • فلما كانت إقامتهم لا تزال في المدن لم يكن لذلك تأثير على القبط • فلما نزلوا القرى وجاوروا القبط اصبح القبطي اذا زار جاره المسلم رآه يحجب عنهُ امرأته وسائر نسائه فاصبح هو يفعل مثل ذلك اذا زاره المسلم فيحجب اهله عنهُ • وتنوقل ذلك في الاعقاب بتوالي الاجيال حتى صار عادة شائعة

أما دميانة فلا تسل عن خفوق قلبها عند سماعها اسم ابي الحسن وعزمه على الزيارة في تلك الساعة وكانت زياراته نادرة قلما يأتي الا لغرض — وتذكرت مقابلتها سعيداً في ذلك المساء فحدثتها نفسها انه ربما اتى لشيء يتعلق بها واصبحت شديدة الشوق لمعرفة ما اذا كان سعيد آتياً مع ابي الحسن • وقفت هنيهة تفكر في ذلك بعد ذهاب والدها واسطفانوس ثم تحولت من جهة اخرى تطلب غرفتها وهي تتوقع ان يأتي زكريا ليعلمها بالها — فتشاغلت بتبديل ثيابها حتى اتى فسألته فقال « لم يأت غير ابي الحسن يا سيدتي وهذه الزيارة لاسطفانوس وليس لوالدك فقد سمعت ابا الحسن يقول انه لما علم بوجود اسطفانوس بن المعلم حنا في القرية اغتنم الفرصة للسلام عليه »

فاجابت دميانة بقلب شفتها السفلى وهي تظهر الاعجاب تهكماً واستخفافاً ولسان حالها يقول « ماشاء الله ••• ابن المعلم حنا ••• شيء عظيم •• وزيارته فخر كبير ! »

فلحظ زكريا ذلك منها فقال « لا تستخفي به يامولاتي فان اباه يكاد يكون صاحب النفوذ الاول وليس اكثر نفوذاً منه الا المادراني صاحب الخراج »

فتشاغلت عن سماع كلامه وقطعت حديثه قائلة « هل جاء ابو الحسن وحده ؟ »

فابتسم وقال « نعم وحده »

فقالت « اراني محتاجة الى الرقاد »

قال « الا تتناولين العشاء •• هل اعدهُ لكِ ؟ »

قالت « لا اشعر بالجوع »

فتركها وخرج

اما ابو الحسن فقد كان كهلاً جليل القدر مع انس ولطف جاء في ذلك المساء

بلباس البيت عليه جلابية من الحرير المخطط فوقها عباءة رقيقة وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة . وكان مرقس واسطفانوس قد سبقاه الى القاعة وهي غرفة واسعة مفروشة بالبسط الثمينة والسجاد الجميل وعلى نوافذها ستائر من الديباج المطرز صنع تنيس مما يندر اقتناؤه في القرى . وعلى جدران القاعة صور دينية وفي الوسط مشمعة كبيرة قد انيرت شموعها وحول الابسطة وسائد مطرزة بقرب الجدران

فلما اقبل ابو الحسن خف مرقس لاستقباله والترحيب به فسلم ابو الحسن عليه ثم سلم على اسطفانوس وقال لهُ « لقد آنست قريتنا يا معلم اسطفانوس »

فقال « ان الانس بجوارك يا سيدي »

ودعاه مرقس الى الجلوس على وسادة قدمها لهُ فقعد عليها . وبعد ان تبادلوا التحية والسلام مرارًا قال ابو الحسن « لماذا لا يأتي المعلم حنا والدكم لقضاء بضعة ايام يستريح فيها من عناء الاعمال ويبعد عن غوغاء الفسطاط »

قال وهو يشمخ بانفه افتخارًا بوالده « ان الشواغل عنده كثيرة يا سيدي اذ لا يخفى عليكم اهمية مركزه وقد الف الشغل حتى غدا لا يرى راحة الا بهِ وكثيرًا ما اتوسل اليهِ ان يخرج للتنزه فلا يرضى »

قال ابو الحسن « واظنهُ الآن مشتغلاً على الخصوص بحسابات الخراج والعشور لهذا الفصل »

قال « نعم .. لا ادري متى يفرغ من العمل .. فان كل ايام السنة شغل عنده حتى اننا لا نراه في منزلهِ الا نادرًا واذا جاء المنزل تهافت عليه الوجهاء بين زائر يستشيره او صاحب حاجة يتوسل اليه او متخاصمين يحكمونه ... » قال ذلك بلحن التفاخر وبدا الاعجاب في وجهه — فهو يفاخر الناس بحكمة ابيه ووجاهته ونسي انه غرٌّ خامل قد يكون سببًا في ذهاب تلك الوجاهة — ذلك دأب كثيرين من ابناء الوجهاء لا يضيع احدهم فرصة يدخل فيها اسم والده في الحديث واذا سنحت لهُ تلك الفرصة استأثر بالجلسة واخذ يعدد مناقب الوالد ووجاهتهُ فيقص على سامعيه من نوادره ومعجزاته ما يثقل سمعهُ ويعسر تصديقهُ وقد يتلطف في الاستطراق الى التحدث بوالده على اسلوب يوهم به السامعين ان ذكر الوالد جاء عرضًا ثم يعمد الى القص والاطراء — ذلك هو شأن صغار الاحلام ضعاف الرأي واسطفانوس واحد منهم

الفصل الحادي عشر

العرب والقبط والترك

وكان ابو الحسن من كبار العقول واسعي الصدر يغضي عن هذه الصغائر و ينظر الى جوهر الحديث فقال « اظنكم تقيمون في الفسطاط الآن »

قال « كنا نقيم هناك لكننا انتقلنا الى بابلون بجانب الفسطاط لان الفسطاط كثيرة الازدحام ووالدي يحب الراحة في ساعة الرقاد »

قال « لا اظنه تركها من الازدحام فقط ولكنكم تفضلون الاقامة في بابلون لان سكانها من القبط فتكونون على مقربة من اماكن العبادة » قال ذلك وتبسم

فادرك اسطفانوس اشارته فقال « ان الانسان يقدر ان يعبد ربه حيثما كان والقبط الآن كما لايخفى عليك في راحة وطمأنينة في ايام اميرنا الحالي »

فتنهد ابو الحسن واطرق فابتدره مرقس قائلاً « احمد الله ان الاحوال تبدلت وادرك حكامنا المسلمون ان محاسنة القبط اولى »

قال « أتحسب ما كان يرتكبه بعض الامراء المسلمين من ظلم القبط ونكايتهم كانوا يأتونه بامر الخلفاء او انه من قواعد الدين الاسلامي ؟ كلاً . ان الاسلام لا يأمر الا بالحسنى يدلك على ذلك ما كان من رفق المسلمين في صدر الاسلام على ايام الخلفاء الراشدين رحمهم الله وان النبي عليه الصلاة والسلام قد اوصى بالقبط خيراً . وانما هي مطامع بعض الولاة لا يريدون بها التعصب على دين بل هم يلتمسون من ورائها ابتزاز الاموال .. ولو ارادوا بها غير ذلك لما اصابنا نحن الشيعة ما تعلمونه من الاضطهاد .. حتى منعونا ركوب الافراس والخروج من الفسطاط وحظروا علينا اتخاذ العبيد الا العبد الواحد واذا كان بيننا و بين احد الناس خصومة قبل قول خصمنا فينا بلا بينة » وسكت ابو الحسن ريثما بلع ريقه ثم استأنف الكلام قائلاً « حتى هذا الوالي احمد بن طولون فانه انما يريد بالمحاسنة مطمعاً لنفسه .. »

فاعترضه اسطفانوس قائلا « وكيف ذلك يا سيدي ؟ . وقد احسن جوار القبط ورفع عنهم كثيراً من المظالم فلو كان طامعاً لزادها او ابقاها على الاقل »

قال « ان ابن طولون داهية كبير النفس ومطمعه عن تعقل ودهاء ... ألا ترى انه

لم يزل في الفسطاط ؟ فلماذا .. لماذا ترك قصر الامارة والمسجد فيها وابتنى لنفسه وجنده قطائع خارج الفسطاط بجوار المقطم فانفق فيها الاموال الطائلة ؟ »

فاطرق اسطفانوس ولم يحر جواباً . فاجابه ابو الحسن قائلاً « اعلم يابني ان ابن طولون هذا تركي الاصل وهذا العصر عصر الاتراك . وبعد ان كانت الدولة للعرب وكان امراؤها وقوادها من العرب اخذت السيادة تتحول عنهم الى الاتراك حتى اصبحوا اهل النفوذ والسطوة في بغداد وسامرا ومنهم اكابر الولاة والامراء في الاطراف .... واظنكم لاحظتم انحطاط شأن العرب في مصالح الدولة في الفسطاط نفسها . ولذلك اصبح الولاة الاتراك يعدون العرب منافسيهم ويخافون انتقامهم فلا يامنون القيام بينهم فاخذوا يبنون المنازل الحصينة لانفسهم خارج المدن التي يقيم فيها العرب ... بدأ بذلك الخليفة المعتصم فخرج باتراكه من بغداد وابتنى لهم مدينة سامرا .. والفسطاط كما تعلمون بلد عربية فلما استتب الحكم لابن طولون وعزم على الاقامة هنا ابتنى القطائع بين الفسطاط والمقطم مع بعد الماء عنها فاضطر لانفاق الاموال الطائلة في جر المياه .. واظنكم تعلمون ان حبيبنا سعيداً قد اخذ على نفسه جرّ الماء الى القطائع واخبرني ان الامير انفق في ذلك مالاً كثيراً »

فقال مرقس « صدقت يا جارنا العزيز .. والذي لاحظته انا ايضاً ان اميرنا المشار اليه يطمع بما لم يطمع به سواه من الامراء السابقين .. يطمع بان يستقل بحكم مصر لنفسه »

فقطع ابو الحسن كلامه قائلاً « قد استقل بها وقضي الامر و غلب علي ابن المدبر صاحب الخراج الذي كان يسوم الناس الخسف والذل و ياخذ الاموال بغير حساب سبحان من انقذكم منه .. »

قال مرقس « نشكر الله على ذلك و ينبغي ان نشكره على شيء آخر ايضاً كان له دخل في تحسين احوالنا وتخفيف الضرائب عنا »

قال « اظنك تعني الكنز الذي عثر عليه ابن طولون في الجبل .. ان عثوره على الكنز سد كثيراً من حاجاته فخفف المظالم عن الناس »

قال ابو الحسن « ان المال المذكور خفف الضرائب .. اما محاسنته القبط وتقريبهم اليه فسببها رغبته في اكتساب الاحزاب لما قدمته من سوء ظنه بالعرب فاتخذ القبط حزباً له وكذلك قل عن الشيعة فانه يرى في محاسنتهم سياسة ودهاء »

قال مرقس « فهو يبني القطائع اذاً خوفاً من مساكنه العرب بالفسطاط ؟ ما شاء الله .. شيء جميل »

فضحك ابو الحسن وقال « والقبط يسكنون بابلون خوفاً من العرب ايضاً ·· حتى اصبحت قصبة هذه الديار الآن ثلاث مدن الفسطاط للعرب المسلمين والقطائع للاتراك المسلمين وبابلون للقبط ·· »

الفصل الثاني عشر

الخطبة

ثم سكتوا جميعاً لحظة فاراد مرقس من باب المسايرة والمجاملة ان يفتح الحديث فقال لابي الحسن « اظن سعيداً في القطائع يشتغل بجر المياه ولو كان هنا لزارنا معك »

فاستبشر ابو الحسن لفتح ذلك الحديث فقال « بل هو هنا وقد جاء بالامس واخبرني انه فرغ من بناء العين وسيعود قريباً للاحتفال بجر الماء اليها وهو يتوقع من نجاحه في ذلك تقدماً كثيراً »

فقال « ولماذا لم يزرنا معك »

فسعل ابو الحسن ومسح لحيته بكمه استعداداً للحديث وقال « لم يأت لانه وصل الساعة وهو تعب ··· وهناك سبب آخر اغتنم وجود حبيبنا اسطفانوس واعرضه لديك ·· »

فتطاول الرجلان نحوه لسماع ما يتلوه فقال ووجه خطابه لمرقس « لا تخفى عليك منزلة سعيد عندي فهو مع كونه نصرانياً قد اتخذته صفياً لي واحبه اكثر مما يحب الوالد ولده وهو كما تعلم ماهر في الهندسة ولم يوجد في مصر كلها من استطاع الاقدام على بناء تلك العين سواه · »

فصادق مرقس واسطفانوس على قوله بحركات الرأس والعينين فقال ابوالحسن يخاطب مرقس « واظنك تعرف سعيداً ··· كيف تراه ؟ »

قال « أراه شاباً جميلاً وهو ماهر في الهندسة ويحبه كل من عرفه »

قال « هل تحبه انت ؟ »

فقال « كيف لا احبه ؟ »

قال « بناء على ذلك وقد قلت لك اني بمنزلة والده فقد جئت بالنيابة عنه لالتمس منك امراً ارجو من الحبيب اسطفانوس ان يساعدني في الحصول عليه »

فخفق قلب اسطفانوس لانه ادرك الغرض المطلوب ولكنه تظاهر بالاجابة وقال « اني طوع امرك ياسيدي »

فقال ابو الحسن « جئت اخطب اليك ابنتك دميانة الى حبيبي سعيد فهل تخذلني وترفض طلبي ٠٠ ؟ »

فوقع ذلك الطلب وقوع الماء الحار على بدنيهما واجفلا وسكت اسطفانوس اما مرقس فاجاب جوابًا مضطربًا وهو يظهر المجاملة فادرك ابو الحسن اضطرابهُ وتردده ولم يهمه ما سمعه من المجاملة لانه قرأ الانكار في عينيهِ واكتفى بما لحظه — واهل الاحساس يقرأون الفكر في خلال الانكار وبعضهم يدرك مرادك قبل ان تتكلم ٠ وكان ابو الحسن من هؤلاء فايقن بفشل مهمته لكنه تجاهل وقال « انا اعلم ان الجواب على سؤالي يقتضي ترويًا ونظرًا فامهلك ريثما تتبصر فيه »

فاحس مرقس عند هذا الاعتذار كأنه كان في السجن وافرج عنه ولو كان فيه شجاعة ادبية لقال لهُ « انها مخطوبة » اذ قد سبق ووعد اسطفانوس بها ولكنه استثقل التصريح وحسبه خشونة فلما سمع كلام ابي الحسن ابتسم وقال « طبعًا سانظر في الامر والذي يقدره الله يكون »

واسرع ابو الحسن حالاً الى تغيير الحديث فانتقل الى مواضيع مختلفة ثم وجه خطابه الى مرقس قائلاً « ارجو من فضلك ياجارنا العزيز ان تساعدني على الحبيب اسطفانوس فاني احب ان يؤانسني لزيارة وان تتفضل انت معه »

فتصدى اسطفانوس للجواب قائلا « اشكرك ياسيدي ٠٠ كنت اود ذلك من صميم قلبي لولا اني عائد غدًا باكرًا »

قال « الى اين ٠ ؟ لقد تعجلت الرجوع وانت لم تأتنا الا الساعة »

قال « نعم جئت لآخذ المعلم مرقس معي واعود ٠٠ »

قال « تأخذه ؟ الى اين ؟ »

فضحك مرقس وقال « لا تخف ٠٠ ليس الى السجن ولا الى الصلاة ٠٠ »

فقطع اسطفانوس كلامه قائلاً « بلى الى الصلاة الست ذاهبًا لحضور عيد الشهد ؟ »

قال « اننا ذاهبون لحضور الاحتفال ولا بأس من حضور الصلاة ٠٠ »

فقال ابو الحسن « اظنكم ذاهبين في هذه الدهبية ٠٠ لمشاهدة الاحتفال الآتي في سبيل النيل »

الفصل الثالث عشر

عيد الشهيد

فرأى اسطفانوس من اللياقة ان يدعوه لمرافقتهم فقال « ان منظر الاحتفال في النيل بهيج جداً فهل تتفضل وترافقنا في هذا السفر ؟ وهذا الاحتفال مع كونه نصرانياً فان المصريين على اختلاف اديانهم يشتركون فيهِ لانه بالحقيقة احتفال وطني . . »

فاستغرب ابو الحسن قوله وقال « هل هو عيد شم النسيم او النيروز أو فتح الخليج حتى يكون وطنياً ! . . »

قال « كلاً ولكنه يعدُّ وطنياً باعتبار ان الاحتفال به خلف احتفالاً وطنياً كان شائع في مصر قبل دخول العرب هذه البلاد . . اظنك تسمع بضحية النيل الفتاة الجميلة التي كان اسلافنا يزفونها الى النيل و يلقونها فيهِ كل سنة استدراراً لمائه . . »

فقاطعه ابو الحسن قائلا « نعم سمعت حديثها ولكن المسلمين ابطلوا هذه العادة على ما اعلم » (١)

قال « نعم ابطلوها ولكن القبط ما زالوا يخافون غضب النيل اذا لم يزفوا اليه شيئاً فابدلوا الضحية المشار اليها باصبع من اصابع شهدائنا الأولين تلقى في النيل كل سنة قبيل فيضانه فيحتفلون بذلك في الثامن من بشنس و يضعون الاصبع في تابوت يلقونهُ في النيل فيأخذ بالزيادة من ذلك اليوم . . » (٢)

وكان ابو الحسن مطرقاً يسمع فلما فرغ اسطفانوس من وصفه اظهر السرور بما استفاده واجابه انه كان يود ان يجيب دعوته و يرافقهُ في تلك المشاهد الجميلة ولكنه يحب البقاء في المنزل اكراماً لسعيد لانه قادم من سفر وربما لحق بهم بعد حين الى ان قال « واذا لحقنا بكم نعرف دهبيتكم من رايتها اليست هي راية المادراني »

فخاف اسطفانوس اذا الح في الدعوة ان يرافقه في الدهبية و ربما جاء سعيد معه وقد اصبح لا يطيق رؤيته غيرة منه على دميانة فا كتفى بقوله « نعم هي للمادراني وارجو ان تلحقوا بنا فيكون حظنا كبيراً » وسكت وانتبه ابو الحسن بغتة انه اطال الجلوس قبل العشاء فاعتذر وانصرف . ولما خلا اسطفانوس بمرقس نظر اليه نظرة استعطاف واستفهام فضحك

---

(١) اقرأ رواية ارمانوسة المصرية (٢) المقريزي

مرقس واتخذ هذه الفرصة وسيلة لاظهار تفضله على اسطفانوس وقال « لاتخف يا عزيزي ان دميانة لو طلبها ابن طولون وكان نصرانياً لما سمحت بها لسواك »

فاثنى اسطفانوس على تفضله وحسن رابه فيه ووضع يده على كتفه وضع متحبب كأنه يحاول ضمه وقال « بارك الله فيك يا أخا الرجال ٠٠ ان والدي طالما اثنى على لطفك فضلاً عن العلائق الودية القديمة بين عائلتينا »

فاغتنم مرقس ذكر والد اسطفانوس فقال « ولكن والدك المعلم حنا ينسى القديم ولا يذكر غير الجديد ٠٠ قد سررنا كثيراً بتقدمه في ديوان الخراج حتى اصبح كاتباً للمادراني ولكن سرورنا قلما افاده ولا هو افادنا ٠٠ »

فعلم اسطفانوس انه يعرض بامر يريده من ابيه فقال « لا تظن والدي ينسى اصحابه ولا اظنك نسيت تخليه عن البقايا التي كانت متأخرة على قريتك من ايام الظلم »

فقطع كلامه وقال « انه فعل ذلك بامر ابن طولون كما تعلم ٠٠ على اني لا اشك بان والدك لا يدخر وسيلة في التخفيف عنا ٠٠ ولي عنده ملتمس لا يكلفه تعباً ساقصه في وقت آخر »

وكانا يتكلمان وهما خارجان من القاعة بعد ان ودعا ابا الحسن عند بابها الآخر وكان الخدم قد اعدوا الطعام فوضعوه على المائدة حالما علموا بخروج ابي الحسن من القاعة فقعد الصديقان ساعة أخرى على الطعام والشراب وذهبا الى الفراش

الفصل الرابع عشر

الصعود في النيل

ونهض الخدم في صباح اليوم التالي يهيئون الفاكهة واللحوم والخضار والخمور لتحمل الى الذهبية تنفق في اثناء السياحة في النيل — وصعود النيل في ذلك الفصل (الربيع) جميل جداً لان السفينة تجري فيه هادئة لا يزعجها نوء ولا يكدر ركابها رائحة البحر المالح فلا يخافون خطراً ولا دواراً يقضون نهارهم يتمتعون بمناظر الطبيعة ٠ فاذا توسطوا النيل تمتعوا بمنظر الضفتين وما وراءهما من السهول الملونة بين خضراء وحمراء وصفراء باختلاف حال الزرع من درجات النمو أو النضج ٠ واذا جاوروا احدى الضفتين استأنسوا تارة بأنين السواقي

وخوار ثيرانها وظورًا بمعاء الماعز يسرح في بساتينها واونة بغناء الغلمان الذين يرفعون الماء بالشادوف يوقع كل منهم الحانه على حركات شادوفه · وترى هنا غلامًا راكبًا حمارًا يسوق امامه بقرة وهناك رجل يسوق بعيرًا ويعترض منظر السهول الخضراء كبار الشجر واكثرها من النخل الباسق كانه مظلات مغروسة في الارض او هي كما وصفها الشاعر بقوله :

وللنخيل منظرٌ مهيبُ تراع من جماله القلوبُ
فوق الضفاف ظلها رهيب صــفًا بصف زانها الترتيب
من كل جبار عظيم القدرِ
تحسبها مردة طوالا تحت مظلات زهت جمالا
في النيل جاءت تبتغي اغتسالاً سحرها النيل فلن تزالا
واقفة هنا بفعل السحر (١)

ويزداد منظر الشاطئين جلالاً وفخامة في الليل ولا سيما اذا كانت الليلة مقمرة وقد هدأت الطبيعة وسكنت الرياح واوت الطيور الى اوكارها وتكسرت اشعة القمر على سطح الماء كما وصفها ذلك الشاعر بقوله :

والنيل يجري تحتنا غزيرا تهزنا موجاته مرورا
كما تهزُّ غادة سريرا قد نام فيه طفلها قريرًا
في مامن من عاديات الدهر
والبدر يلقي وجهه في الماء سبائكاً من فضة بيضاء
تلمع اذ تموج بالهواء كانها السيوف في الهيجاء
ما بين كرٍّ دائمٍ وفرِّ

وقد يتكاثر النخيل في بعض الاماكن حتى تتألف منه غابات غضة تتغنى فوقها الطيور وتتخللها اكواخ الفلاحين

ناهيك بما يقع عليه بصرك من الابنية الفخيمة من بقايا الفراعنة واكثرها في الصعيد · أما الصاعد في السفينة الى الفسطاط فلا يقع بصرهُ من تلك الآثار إلا على الاهرام الكبرى وقد يرى أبا الهول · تسير السفينة نهاراً وترسو ليلاً ولاسيما في الربيع اذ يكون النيل في معظم انخفاضه وفي قاعه صخور يعرف الربان مواضعها في النهار ويخشى ان يخدعه بصره أو تخونهُ ذاكرته في الليل فلا يسيرون في النيل الا نهاراً

(١) من قصيدة في وصف ليالي مصر لالياس فياض

قضى ركاب دهبية المادراني اياماً في طريقهم من قرية طاء النمل الى شبرا وقد تباطأوا عمداً حتى يصلوا الى الاحتفال في ابانه • وكانوا يتمتعون بمناظر الضفتين على نحو ما ذكرنا الا دميانة فقد كانت تقضي معظم نهارها منفردة تصلي او تتذمر وزكريا يؤانسها ويعزيها وقد ندمت على مجيئها وفضلت ان يغضب والدها يوماً او يومين ولا تحمل نفسها مالا طاقة لها به من تكلف اللطف والمسايرة على الطعام او في غرفة الكلام • وكانوا قد نصبوا في الدهبية مظلة جميلة فرشوا ارضها بالطنافس وزينوا جوانبها باغراس الرياحين والازهار يجلسون فيها للحديث او الشرب او التفكه او غير ذلك • فدميانة لم تجلس هناك ابداً ولم يظهر ذلك غريباً لدى ابيها لانه تعود ان يراها منفردة في البيت تقضي اوقاتها بالصلاة او القراءة او تشغل نفسها بامور بيتية لا تهمه • اما اسطفانوس فكان لا يدخر وسعاً في اجتذاب قلبها بتسقط ما يجول في خاطرها تارة بتقديم الفاكهة او الزهور واونة باستلفات انتباهها الى منظر جميل او موقف غريب لعله يسمع منها تحبباً او تلطفاً او كلمة تدل على وقوعها في شرك جماله او الافتتان بحديثه او ذكائه او الاعجاب بمنصب ابيه ونفوذه ••• وكان يحسب ركوبه في دهبية المادراني يكفي وحده لرفع منزلته في عيون الناس • ولو كان من اهل الشعور والاحساس لادرك من اول مقابلة انها لا تطيق رؤيته

طاء النمل والفرغاني : نبهنا رصيفنا جرجس افندي فلتاؤوس صاحب المجلة القبطية في مقالة انتقادية نشرها في الجزء الثامن من السنة الثانية لمجلته — الى ان طاء النمل الوارد ذكرها في هذه الرواية بالصفحة الاولى السطر الاول هي طنامل الواقعة في مديرية الدقهلية وقد قلنا انها في الغربية سهواً فنشكره على ذلك — أما ملاحظته عن تسمية الاقباط غير الملكيين باليعاقبة فقد جارينا بها مؤرخي العرب وغيرهم من الكتاب القدماء • وكذلك ملاحظته على اعتراف دميانة فقد ذكر ان الاعتراف منعه بعض البطاركة وانه كان نادراً في ذلك العصر فندوره لا يمنع وقوعه لدميانة بين يدي قسيس قريبة ابيها وخصوصاً في رواية غرامية لا يطلب فيها التحقيق • وقد ذكر ان ابن الكاتب الفرغاني سمي بذلك نسبة الى فرغانة احدى قرى مصر وليس نسبة الى احد اساتذة المسلمين الذين اخذ الهندسة عنهم كما ظننا فاذا كان قوله مبنياً على نص تاريخي صريح عوّلنا عليه والا فلا تزال المسألة تحتمل وجهين • وفي كل حال اننا نشكر لفلتاؤوس افندي عنايته في الانتقاد خدمة للعلم والادب ونرغب اليه ان يزيدنا انتقاداً فنزيده شكراً وامتناناً اذ يظهر من عبارته واسلوبه انه انما يلتمس خدمة الحقيقة بلا لمز ولا وخز جزاه الله خيراً — والانتقاد لا يخلو من فائدة في كل حال

ولا تريد عشرته ولو اظهرت اللطف احياناً عملاً بادب العشرة او احتراماً لرأي ابيها ٠ فقد كان عليه ان يشعر بنفورها ولكن احساسه كان قليلاً

الفصل الخامس عشر

شبرا

أطل ركاب الذهبية على شبرا في ظهر يوم صفا جوه فلم تقع ابصارهم الا على خيام مضروبة واعلام منصوبة وبين ذلك شجر النخيل يناطح السحاب على ضفتي النيل وفي الجزر بينهما ٠ فاغتنم اسطفانوس تلك الفرصة وتقدم الى دميانة وكانت مشتغلة بنفسها واقفة قرب السارية تتلاهى بما يقع عليه بصرها في الضفتين تحاذر ان تلتقي به او يقابل وجهها وجه فراراً من سماع حديثه فلما رأته يمشي اليها استعاذت بالله وقد علا وجهها الاحمرار فتلاهت بصليب معلق في عنقها كانت شديدة الحرص عليه لانه هدية من بعض راهبات دير المعلقة كانت قد زارت طاء النمل لجمع النذور واهدته اليها وهي تعتقد فيه القداسة والكرامة ٠ فلم يبال اسطفانوس بارتباكها او لعله حسبها استحت من مقابلته كما يستحي الحبيب من محبه ٠ واغتنم انفرادها عن سائر اهل السفينة ليطارحها الغرام وأحب ان يتدرج الى ذلك باسلوب لطيف فقال «لا ادري أأهنئك بهذا الصليب يا دميانة او اهنئه بك ٠

ففهمت مراده واغتنمت خطأه لتوبخه فقالت « أبمثل هذا الكلام يتحدثون عن صليب السيد المسيح ؟ »

فظنها تداعبه وتطلب زيادة التصريح فقال « لا اعني صليب المسيح وانما اعني هذا الصليب فانه نال مقاماً يحسد عليه كثيرون » قال ذلك وتنهد وقد ابرقت عيناه ووقف يتوقع جوابها

أما هي فتوردت وجنتاها وشق عليها ما يجول في خاطره فارادت ان تغير الموضوع فقالت « بالحقيقة اني لم اشاهد احتفالاً مثل هذا » ووجهت نظرها الى تلك المضارب فلم يشعر بما ينطوي عليه هذا التغيير من الاحتقار وسرَّ لانها فتحت باباً للكلام فقال « انهُ احتفال باهر ولذلك احببت ان تحضريه فجئت في خدمتك بذهبية صاحب الخراج

وسننزل بعد قليل في فسطاط نصبوه لنا خاصة ... الا ترينهُ بين يدي تلك الجميزة الكبيرة ؟ » واشار بيده الى شجرة كبيرة امامها صيوان ثمين نصب ببابهِ علمٌ يشبه العلم المنصوب على السفينة

فعلمت دميانة انه صيوان المادراني وشق عليها النزول فيهِ مع اسطفانوس وهي تكره رفقته وتعلم فوق ذلك انها ستلاقي هناك ماتكرهه من موائد المدام واباريق الراح فقالت وقد بدا في وجهها الاشمئزاز « لا .. لا .. اسمح لي ان لا اذهب .. »

فابتدرها قائلاً وفي صوته غنة العتاب « لا تخافي يادميانة لستِ ذاهبة اليهِ وحدكِ فان والدك ذاهب معنا »

فرفعت كتفيها وهزّت رأسها اشارة للرفض ولم تتكلم

فلم يكتف الشاب بذلك فقال « وان كنت لا تصدقين فالساعة يأتي صديقي والدك ويقول لك ذلك »

فتراجعت والتفتت التفات من سمع صوتًا استلفت انتباههُ فرأت العم زكريا قادمًا نحوها وهو يهمُّ ان يكلمها فتوجهت اليه بكليتها فاذا هو يقول لها « الا تزالين عازمة على زيارة هذه الكنيسة يا مولاتي ؟ » واشار الى كنيسة في شبرا نفسها يحتفلون باخراج التابوت منها كل عام

ففهمت انهُ ينتحل وسيلة لتخليصها من اسطفانوس فقالت « كثيرًا ما اشتهيت زيارتها والتبرك بها ولاسيما في مثل هذا الاحتفال »

فقال « ان السفينة لا تلبث ان ترسو عند الشاطىء وقد استأذنت مولاي والدك في الامر »

فقالت « لقد احسنت يا عماه » ومشت في أثره لتبدل ثيابها وتركت اسطفانوس على مثل الجمر وقد احسَّ انها تتعمد احتقاره فكظم ما في نفسه وذهب الى مرقس فقصَّ عليه ما قالتهُ دميانة فقال « وهل ساءك ذلك ؟ . ان بعدها في مثل هذا اليوم نعمة لان وجودها معنا في الفسطاط لا يوافق هوانا .. العلنا جئنا لحضور الصلاة ؟ وهي لا يلذ لها ان تحضر موائد الشراب — دعها تذهب لصلاتها ونحن نذهب الى مجلس انسنا وسماع الغناء والضرب على العود والنفخ بالمزمار .. انهُ يوم نادر المثال فلا ينبغي اضاعتهُ »

فلم يحر اسطفانوس جوابًا ولكن قلبهُ ما زال يتقد غيظًا . اما مرقس فتظاهر انهُ كان يود ان ترافقهُ دميانة فتحوَّل اليها فرآها قد تزملت بمطرفها ولفت رأسها بخمارها ووقفت

تنتظر وقوف السفينة فلما رأته توجهت نحوه احتراماً له فابتدرها قائلاً « بلغني انك ذاهبة الى الكنيسة مع ان صاحبنا اسطفانوس قد اعدَّ لنا فسطاطاً خاصاً لجلوسنا »

قالت « اني افضل الذهاب الى الصلاة الآن وربما وافيتك في المكان الذي تعينه »

قال « لا احب ان الجئكِ الى امر لا تحبينه .. افعلي مابدالك . ولكن متى تفرغين من الزيارة ؟ »

قالت « لا ادري الآن ولعلي آتيكم نحو الغروب »

فقال « حسناً .. وانا مطمئن عليك لوجود العم زكريا معك .. سيري بسلام » قال ذلك وتحوَّل الى صديقه

الفصل السادس عشر

كنيسة شبرا

ففرحت دميانة بالنجاة ووقفت تنظر الى ما هنالك من القوارب والحراقات السابحة في النيل على عرضه وفيها الناس زرافات ووحداناً وقد مدت فيها الموائد للطعام والشراب . وما من حراقة الا وفيها اوعية الخمر واطباق الفاكهة . وقد تزاحم الناس رجالاً ونساء من اصحاب اللهو وارباب الملاعب والمخنثين والخلفاء وعلت ضوضاؤهم وفيهم المغنون والمغنيات والراقصون والراقصات وقد خلع بعضهم العذار وهتكوا برقع الحياء . كانوا يرتكبون في ذلك الاحتفال انواع القصف ويجاهرون بما لا يحتمل من المنكرات حتى تثور الفتن وتقتل الناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم او خمسة آلاف دينار . وقد ذكروا ان واحداً باع في يوم واحد باثني عشر الف درهم فضة من الخمر . وكان اعتماد فلاحي شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونهُ من الخمر في عيد الشهيد[1] فيجتمع في ذلك الاحتفال عالم عظيم براً وبحراً لا يحصيهم الا خالقهم بعضهم في القوارب والحراقات والبعض الآخر في الخيام

وما زال ربان الدهبية يزاحم القوارب والحراقات والناس يوسعون لها لانها حراقة

(١) المقريزي ٦٩ ج ١

صاحب الخراج حتى دنت من الشاطئ، وقد مالت الشمس نحو الاصيل فتسارع البحارة الى انزال الركاب

وتأهبت دميانة للنزول واذا هي تسمع بعض الناس يقول « هذه سفينة الوالي ... انظروا انظروا ... انها سفينة ابن طولون ؟ »

فلما سمعت ذلك اجفلت والتفتت فرأت بقرب الضفة الاخرى من النيل سفينة فخيمة عرفت انها هي التي يعنونها لكنها لم تشاهد عليها الراية . وتذكرت علاقة حبيبها سعيد بابن طولون فقالت في نفسها أعله على ظهر هذه السفينة ؟ واطالت النظر اليها ترجو ان ترى مابدلها على ذلك فلم تستطع تمييز شيء ولكنها سمعت الناس يظهرون استغرابهم مجيء هذه السفينة وهم بين مستصوب ومخطئ ولم تنتبه دميانة الا والعم زكريا يناديها ان تنزل فنزلت وتوجهت وهو معها ولم تتمالك عن الالتفات الى تلك السفينة فرأتها تقترب نحو الشاطئ فوقفت تنظر اليها فرأت دهبية المادراني تتقهقر الى الوراء لتخلي مكاناً لتلك ترسو فيه فترجح لها انها سفينة الوالي وان لم تشاهد العلم عليها . واستطالت وقوفها فاستحيت ومشت نحو الكنيسة فمشى زكريا أمامها وهو يوسع لها الطريق بين الباعة واهل الشعوذة والغوغاء فقطعت مسافة طويلة بين الخيام وقد تصاعد الغبار وعلا الضجيج وهي مطرقة لا تلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصلت الى الكنيسة وقد تزاحم الناس في صحنها وقل بينهم من جاء للزيارة او الصلاة . اما هي فما زالت سائرة حتى دخلت الكنيسة وما لبثت ان تنسمت رائحة البخار الممزوج بدخان الشموع حتى انتعشت وتخشعت فاستفهمت عن الصلاة متى تكون فقيل لها انهم يبدأون بها نحو الغروب وسيتولى رئاسة القداس اسقف الفسطاط وكان من كبار الاساقفة وقد عهد اليه ان يترأس القداس هناك لقربه من شبرا ففرحت دميانة بذلك لان القداس سيكون فخماً

واحبت ان تغتنم ساعة الانتظار لمشاهدة التابوت الذي فيه اصبع الشهيد فقيل لها انه موضوع في حجرة مقفلة بجانب الكنيسة لا يخرجونه الا في حينه فاكتفت بالصلاة تشغل بها نفسها حتى يبدأ الاسقف بقداسه فتحولت الى ايقونة ولادة السيد المسيح واخذت تصلي بحرارة وتطلب ما تشعر انها في حاجة اليه وهي لا تحتاج الى شيء اشد من حاجتها الى التخلص من الشراك التي نصبت لها فتوسلت الى الله ان ينقذها من اسطفانوس لانها ترى من نفور قلبها انه ليس النصيب الذي اعده الله لها

الفصل السابع عشر

الدهشة

كانت تصلي وتتضرع ولايلتفت احد اليها لاشتغال كل واحد بشؤون نفسه والعزكريا قاعد في بعض جوانب الكنيسة بحيث يرى دميانة و يشاركها باحساسها وان لم يسمع قولها فانه كان مطلعاً على مكنونات قلبها كما رايت — وهي مستغرقة في تضرعاتها سمعت سعالاً اجفلها لانه وقع في اذنها وقوعاً نبه عواطفها واستلفت قلبها فحولت وجهها الى جهة السعال رغم ارادتها فرات سعيداً مقبلاً نحوها فتسارعت دقات قلبها وتولتها الدهشة واصطكت ركبتاها وتوهمت انها ترى ذلك في الحلم لانها لم تكن تتوقع قدوم سعيد في تلك الساعة . فلما وقع نظرها عليه ابتسمت ووقفت لا تدري ماذا تفعل

اما هو فمشى نحوها وهو يبتسم و يقول « اظنني ازعجتك يا دميانة . . سامحيني »

قالت « لم تزعجني يا سعيد ولكنك ادهشتني بهذا اللقاء على غير انتظار . . العلك اتيت لحضور قداس الاسقف ؟ »

قال « واي اسقف ؟ . . كلا وانما جئت لاراك »

قالت « جئت لتراني . ؟ . من انبأك اني هنا ؟ »

فتنهد وقال « علمت من وقوف سفينة المادراني بجانب قريتكم ومن دعوة ذلك الشاب لحضور الاحتفال بعيد الشهيد »

فادركت ان ابا الحسن اخبره بذلك بعد قدومه الى بيت والدها في تلك الليلة . وعلمت ان سعيداً لم يوافها الى هناك الا غيرة منه عليها فانبسطت نفسها واحست بزيادة ميلها اليه فقالت « وكيف اتيت ؟ . . هل تنوي البقاء هنا الى صباح الغد ؟ واين انت مقيم . . وكيف . . . » وتلعثم لسانها من شدة الفرح

فقال « اتيت في سفينة الوالي احمد بن طولون »

قالت « ان قلبي دلني على ذلك منذ رايت تلك السفينة . . . وهل ابن طولون فيها ؟ »

فاطرق سعيد وسكت لحظة ثم قال همساً « هو فيها لكنه لا ينوي الظهور للناس وقد اوصاني ان اكتم مجيئه لانه جاء بناء على ترغيبي . فقد دعاني في هذا الصباح ليكلمني بشان العين والاحتفال بجر الماء اليها فذكرت له الاحتفال بعيد الشهيد وما يجرى فيه من

الغرائب ورغبته في مشاهدته ليلاً فرضي واركبني معه على ان يشاهد ذلك سراً فلما رست بنا السفينة استأذنته في زيارة الكنيسة ريثما يخيم الليل ويبدأ الاحتفال فجئت ومررت بالفسطاط الذي كنت احسبك فيه فرأيت والدك وصاحبه في زمرة من الشاربين والمغنين فعلمت انك اتيت الكنيسة فجئت كما ترين ..»

فقالت «انها منة لا استحقها .. فاذاً انت باق هنا الى الصباح ؟»

قال «سابقى في السفينة عن بعد .. كيف انت الآن ؟»

فهاج سؤاله اشجانها فاطرقت وتنهدت وارسلت دمعتين رآهما سعيد تتدحرجان على خديها فاحس كانهما جذوتان وقعتا على قلبه فقال «ماذا ارى ؟ . ما بالك .. ما الذي يخيفك يا دميانة ؟ .» وادرك سبب بكائها فاستأنف الكلام قائلاً «لا تخافي ... اذا كنت كما اعهدك لا تخافي .. ان ذلك الغلام يرجع القهقرى كما رجعت سفينته امام سفينتي الليلة . ان المكان الذي اضع قدمي فيه لا يستطيع هو ان يلثمه ..» قال ذلك وبانت في محياه امارات الاريحية والانفة

فغلب عليها الاعجاب به ولكنها ما زالت تخاف اباها فانقبضت نفسها . على انها اظهرت الاطمئنان وقالت «انت ذاهب الآن .. راجع الى السفينة ؟»

قال «لا بد من ذهابي قبل الغروب .. الا اذا امرتني بالبقاء لامر تخافينه فابقى ولا يهمني رضي الوالي او غضب»

قالت «اما بقاؤك معي فهو غاية مرادي كما تعلم .» وتوردت وجنتاها واتمت الحديث قائلة «ولكنني لا أريد ان تغضب ابن طولون وهو الذي قدمك ورفع منزلتك ولكنني ...» وسكتت

قال «اتحسبين بعدي عنك يطول ؟ . اننا لا نلبث ان نحتفل احتفالنا بجر مياه العين هذين اليومين حتى نجتمع ويكون اجتماعنا دائماً ان شاء الله .. هذا اذا كنت تريدين ذلك من صميم فؤادك»

فتنهدت وقالت وهي تخفض صوتها لئلا يسمعها احد من الغوغاء «تسألني اذا كنت أريد ذلك ؟ هذا أمر لا أجاوب عنه .. سل قلبك يدلك عليه ولكن ماذا افعل .» وشرقت بدموعها

فادرك غرضها فقال «قد علمت مرادك .. اما هذا المغرور الذي يتطاول اليك فاذا كنت ثابتة على العهد رجع بخفي حنين ومهما توهم من طول باعه بواسطة صاحب

الخراج فان صاحب مصر أطول باعاً وأبعد نفوذاً ... وهذا يكفي »

وهما في ذلك رأيا الناس في هرج فالتفتت دميانة فرأت الم زكريا مسرعاً نحوها وهو يقول « ان الرجل آت »

قالت « اي رجل »

قال همساً « اسطفانوس »

فلما سمعت اسمه تراجعت وامتقع لونها ونظرت فرأت اسطفانوس داخلاً وهو يتمايل ويزيح الناس بيده ويمشي مشية الخيلاء فبغتت حتى كاد الدم يجمد في عروقها خوفاً من عاقبة ذلك اللقاء وسعيد حاضر

الفصل الثامن عشر

عواقب الذل

اما سعيد فلحظ بغتتها واضطرابها فهبت فيه الحمية وعزم على التفاني في الدفاع عنها فتقدم حتى وقف حيث يعترض اسطفانوس اذا تحول نحو دميانة وقد ثارت الاريحية فيه حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه. وبعد هنيهة وصل اسطفانوس وهو يترنح من السكر ولما وقع نظره على سعيد في تلك الحال طار سكره وثارت الغيرة فيه وأخذه العُجب بمنصب ابيه بعد ان رأى الناس يوسعون له ويحترمونه فاشار الى سعيد ان يتحول من طريقه فلم يجبه فمدّ يده وهم ان يزيحه من الطريق وهو يقول مخاطباً الم زكريا بانتهار « ما هذا الوقوف هنا الى الساعة ..؟ ان مولاك ينتظركما وقد غربت الشمس »

اما سعيد فلما رأى يد اسطفانوس ممدودة اليه دفعها عنه بعنف فتقهقر اسطفانوس حتى كاد يقع على الارض وعظم ذلك عليه في مشهد من الناس فعاد اليه وقد اشرع يده كانه يهدده وقال « ما هذه الوقاحة .. اني لا اخاطبك ؟ امشِ في سبيلك »

فدفع سعيد يد اسطفانوس عنه وقال « امش انت . عد الى مكانك حتى تفرغ من سكرك »

فاكبر اسطفانوس هذه الاهانة ومدّ يده الى جانبه كانه يحاول ان يستل خنجراً فابتدره سعيد بلطمة على خده فدار دورة وقلب على قفاه وسمع لوقوعه صوت استلفت انظار

الجمهور فارتبكت دميانة بنفسها وخافت وقوع الفتنة وامسكت سعيداً بيده وتوسلت اليه ان يتركه ويمضي لسبيله خوفاً من الفضيحة فقال « لا خوف عليك ان المسألة لادخل لها معك » وتقدم الى اسطفانوس وهو يتململ للقيام واراد ان يدوسه بقدمه فتهافت الناس ومنهم من يريد الدفاع عن اسطفانوس لوجاهته ولا يعرفون سعيداً فاراد بعضهم ان يرده فصاح سعيد « ارجعوا والله لولا حرمة هذا المعبد لارقت دماءكم على بلاطه »

فلما رأوا منه الشدة تراجعوا وعمدوا الى اللين وكان اسطفانوس قد نهض ورجع الى رشده وادرك عجزه عن مناوأة سعيد فلجأ الى الحيلة فحول غضبه الى عتاب ووجه خطابه الى سعيد قائلاً « اني لم اكلمك فلماذا تتعدى عليَّ .. ان والد هذه الفتاة استبطأ غيابها فكلفني ان استدعيها فكأنك ظننتني اريد بها سوءاً فاخذتك الغيرة عليها لانك جار ابيها على ما اذكر فتعرضت لي ؟ .. »

فلما سمع سعيد تحيله ورأى جبنه ازداد احتقاراً له فقال « مهما يكن السبب فان مثلك لا يليق ان يأتي بهذه المهمة وهو متمتع من السكر .. فاذا كان والد الفتاة يطلبها فليأت هو لاستدعائها وانا واقف هنا في خدمتها حتى يصل »

فضحك اسطفانوس جبناً ورياء وقال « كأنك لم تصدق قولي . اسأل العم زكريا فانه يعرفني .. ثم اني لم اخاطب السيدة نفسها وانما خاطبت خادمها »

فتقدم العم زكريا لفض المشكل باسلوب لطيف وخاطب سعيداً قائلاً « اشكرك يا مولاي .. والمعلم اسطفانوس يشكرك ايضاً على غيرتك وتفضلك ولعلك لا تعرف علاقته بسيدي فانا جميعاً في ضيافته اليوم » ثم وجه خطابه الى اسطفانوس قائلاً « واظنك يا مولاي تعلم ان المهندس سعيداً من ابناء طائفتنا وهو جارنا في المنزل وعزيز على سيدي ولم يتصد لك الا لامر انت ترغب فيه ... »

فقطع اسطفانوس كلامه وعمد الى المداجاة والملاينة قائلاً « قد علمت انه من طائفتنا وان كان مقيماً مع ابي الحسن .. ولكنه لم يمهلني ريثما افهمه مرادي فنحن اذاً اصدقاء » وضحك

فاتم العم زكريا كلامه قائلاً « واما سيدتي دميانة فانها ستبقى هنا لحضور قداس الاسقف الليلة وانا معها ولا خوف عليها »

فقال « اذا كان الامر كذلك فقد انقضت مهمتي وها انا راجع لاخبر صديقي المعلم مرقس بذلك » والتفت الى سعيد وقال « انا ذاهب يا صاحب فهل انت باق هنا ؟ »

فاستغرب سعيد ما رآه من جبن الرجل وذله وصغر نفسه واجابه بلا اكتراث «نعم انا باق»

فتحول اسطفانوس وخرج وهو يقول «استودعك الله»

فظل سعيد واقفاً حتى خرج اسطفانوس ثم هز راسه والتفت الى دميانة وقال «انه لخلق غريب .. هذا هو منافسي فيك؟ . وكنت اود البقاء في خدمتك الى آخر الليل لولا اضطراري للرجوع الى السفينة وقد غابت الشمس واخاف ان يغضب الوالي وانت لا ترضين ان يغضب»

فوقفت دميانة في حيرة وقد زاد احتقارها اسطفانوس واحترامها سعيداً وقالت «لا اريد ان يغضب الوالي ... سر بحراسة الله»

قالت ذلك والنبيه يلحظ من لحن صوتها انها لم تتم قولها فادرك سعيد ذلك فنظر اليها وعيناه تتكلمان وهي تجيبه بعينيها وكلاهما يحاذر ان يلحظ الناس حاله . ولولا اشتغال الجمع بشؤونهم لم تتح لها فرصة للكلام . فلما راته دميانة ينظر في عينيها ادركت انهُ يستفهمها عن مرادها فقالت ثانية «سر بحراسة المولى ورعاية السيد المسيح .»

قال «فهمت ذلك من قبل ولكنني احسبك ان تضمرين شيئاً آخر»

قالت «لا اضمر شيئاً سوى اني ...» ففهم مرادها وقال «لا تبالي بشيء فما هي الا بضعة ايام حتى يخلو لنا الجو فاذا فرغتُ من جر الماء وفزت برضاء الوالي ان صاحبنا هذا لا تبقى له جسارة للكلام بشأنك — ويظهر انه لم يعد يجسر على ذلك منذ الآن الم تري جبنه وخوفه ؟ . كوني مطمئنة لا تخافي . استودعك الله»

ثم مد يده وودعها وخرج

اما اسطفانوس فعاد وهو يتعثر باذياله واخذ يهيء الاعذار لما بدا من خذلانه ويضمر الاذى لسعيد باية وسيلة كانت

أما دميانة فوقفت بعد خروج سعيد جامدة وقد ندمت على مجيئها الى الكنيسة لعلمها باخلاق اسطفانوس . وادرك العم زكريا قلقها فاخذ يخفف عنها ويحقر امر اسطفانوس في عينيها ويهون عليها غضبهُ وانه لا يستطيع امراً . ثم علت الضوضاء في الكنيسة وتصاعدت رائحة البخور وتعالت اصوات الترتيل وصلصلة المباخر فتوجهت الانظار نحو الباب فرأوا الاسقف داخلاً باثوابه الكهنوتية تتلألأ وبين يديه الشمامسة والمباخر بالشموع فاشتغلت بسماع القداس عن هواجسها لانها كانت تجد في سماعه لذة عظيمة

قضت في الصلاة وسماع القداس برهة وهي تفهم كل ما يقال لان الصلاة كانت لا تزال كلها في القبطية وهي تفهمها جيداً وكان الظلام قد سدل نقابه فازدادت انوار الشموع ظهوراً وكثر الازدحام حتى تضايقت دميانة في موقفها ولحظ العم زكريا تضايقها فاستمهلها ريثما ذهب الى شماس يعرفه واستاذنه في كرسي ترتاح عليه السيدة دميانة بحيث تسمع الصلاة بعيدة عن الضوضاء • فاجاب الشماس طلبه ودعاها الى كرسي بجانب الهيكل بعيد عن الناس فجلست عليه ووقف العم زكريا بين الحضور وهو يراعيها وينتظر اشارتها

فلما جلست هناك اشرفت على الجماهير واكثرهم من اهل القرى والعمال بين مصغ للقداس ومشتغل بالحديث وفيهم النساء والاطفال والضوضاء غالبة لشدة الازدحام ومع تلذذها بما تسمعه من التراتيل الروحية فان صورة سعيد ما زالت تعترض تصوراتها فاذا تذكرت ما دار بينهما اختلج قلبها وتذكرت اسطفانوس فتنقبض نفسها • وهي في ذلك رات الجماهير يتفرقون وقد فتحوا في وسطهم طريقاً دخلته جماعة يحملون تابوتاً عليه رسوم كنائسية حتى اذا توسطوا الكنيسة وضعوه على منضدة قائمة هناك وتخشع الناس لرؤيته وتقدم الاسقف بالمباخر بين يديه واخذ يتلو الصلوات والادعية ويتضرع الى الله ان يقبل احتفالهم ويبارك النيل اذا القوا التابوت فيه والناس يؤمنون على دعائه

الفصل التاسع عشر

الرجوع

ولما فرغ الاسقف من الصلاة واخذ الناس ينفضون ويخرجون نظرت دميانة الى العم زكريا في المكان الذي عهدته فيه فلم تجده فارتبكت في امرها واجالت نظرها في الجمع لعلها تجده بينهم فلم يقع بصرها عليه فازداد قلقها وخافت ان يخرج الناس كلهم ولا تراه لكنها ما عتمت ان راته داخلاً بسرعة فسرّي عنها ولما دنا منها سالته عن سبب غيابه فقال « فكرت في ما نعمله بعد انقضاء القداس وانا اعلم انك لا تحبين الذهاب الى فسطاط اسطفانوس فذهبت الى والدك واستأذنته برجوعنا للمبيت في الذهبية »

ففرحت لهذه الفكرة وقالت « وهل اذن بذلك ؟ »

قال « نعم . هيا بنا اذا شئتِ »

فنهضت ومشت في اثره حتى خرجا من الكنيسة فرأت ما ادهشها من الانوار الكثيرة في الخيام على الضفتين وفي الجزر وفيها المصابيح والمشاعل وقد تزاحم الناس وعلت ضوضاؤهم بين غناء ونداء وعربدة وقهقهة واستلفت نظرها على الخصوص ما شاهدته من الانوار السابحة في النيل على الحراقات فانها كانت كثيرة وفي كل حراقة جماعة يشربون ويعربدون ويصيحون وقد اختلط حابلهم بنابلهم رجالاً ونساء

فاضاء العم زكريا مصباحهُ ومشى بين يدي دميانة في طريق قليل الزحام بعيد عن الشاطيء حتى اذا قابل الدهبية تجول نحوها وهي تقتفي اثره وعيناها شائعة في عرض النيل تتفرس بالسفن لعلها تميز دهبية ابن طولون فلم تجدها . ومازال العم زكريا حتى صعد بها الى دهبيتهم وما صدقت انها دخلت غرفتها وبدلت ثيابها وجلست للاستراحة فاتاها زكريا بطعام تناولت بعضه وهي لا تشعر بالنعاس فصعدت الى مجلسها في اعلى السفينة واعادت نظرها في الحراقات والسفن وهي تبحث عن سفينة ابن طولون وتظهر انها تتفرج بمنظر الحراقات فتحققت غياب السفينة ولكن اذنها كانت تنفر مما تسمعه من العربدة في السفن حولها ففضلت الذهاب الى سريرها

وافاقت في اليوم التالي عند الفجر على صراخ الناس عند خروج الاسقف والكهنة بالتابوت . حملوه على قارب وحوله الازهار والرياحين وقد اخذ الكهنة بالتراتيل والادعية والقارب يخترق النيل حتى اذا وقف في مكان يعرفونه انزلوا التابوت في الماء ثم اعادوه واخذت جماهير الناس تتفرق برًّا وبحرًا

ولم تشرق الشمس حتى رأت والدها عائدًا مع اسطفانوس في حالة تشمئز منها النفس من السكر وهما يحاولان اخفاء حالهما حياء من دميانة وهي تتجاهل ما تراه وتتشاغل بشؤونها

اما اسطفانوس فذهب توًّا الى غرفته وبدل ثيابه ولبس ثوبًا نظيفًا وبالغ في التطيب والتعطر ولكن رائحة الخمر المتصاعدة من فيه ما زالت متغلبة على كل طيب واغتنم اشتغال مرقس عنه واتى الى دميانة وكانت وحدها جالسة على وسادتها فلما رأته قادمًا استعاذت بالله ولكنها عزمت على التجلد . اما هو فلما اقبل عليها القى التحية وهو يتضاحك واللؤم بادٍ في وجهه وقال « بالحقيقة ان جاركم رجل شريف غيور »

فلم تجبه ولكنها تشاغلت باصلاح خمارها لعلمها انه يتذرع بما قاله الى الايقاع بسعيد وهي لا تطيق ذلك فلما رآها ساكتة قال « لماذا لا تجيبيني يا دميانة . . ؟ العله اوصاك

ان لا تكلميني ٠٠؟ »

فنظرت اليه شذرًا وقد انكرت هذا التعريض وبان الانكار في عينيها وعمدت الى تغيير الحديث فقالت « هل جاء والدي ؟ اين هو ؟ »

قال « نعم انهُ جاء وهل تريدين ان اقص عليه ما جرى بالامس في الكنيسة ؟ »

قالت وقد غلبت عليها الانفة « كما تشاء ٠ افعل ما بدالك »

فضحك وقال « لا ٠ لا اقول له شيئًا لاني لا احتاج الى نصرته في هذا الامر ٠ ان اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني لا يصبر على ما سمعه من ذلك الجار العزيز ٠٠ »

فلم تستطع صبرًا على كذبه وريائه فقالت « ولماذا صبرت على ذلك بالامس ؟ »

قال « اتريدين ان ابارزه في الكنيسة ٠٠ » وكانه ادرك انه لا ينبغي لهُ ان يبوح بما عزم عليه بين يديها فقال « ذلك حديث مضى ٠٠ وقد اعجبتني غيرته على جارته ٠ ولكنه اظهر طيشًا وحمقًا في طريقة دفاعه عنها ٠٠ لا باس ٠ سامحه الله ٠٠ » ثم تظاهر بالتلطف بها والتودد اليها وقال وهو يجلس على الطنفسة بجانبها « اننا الآن على اهبة الرحيل ٠٠ وقد قابلت الاسقف في هذه الكنيسة قبل مجيئي الى هنا » قال ذلك وابتسم

فلم تفهم مراده ولا همها ان تستوضحه فسكتت فقال وهو يسحف نحوها « الا تزالين مستسلمة الى الحياء ٠ في الم تفهمي حقيقة امري ٠٠ »

فلما كلمها عن قرب فاحت رائحة الخمر من فيه فتباعدت عنه واظهرت التنفور فحسبها تداعبه فقال « ما بالك تهربين مني وانا لم ازد على التكلم معك فكيف اذا فعلت غير ذلك »

فقالت « انما هربت من رائحة الخمر فاني لا احتملها ٠ »

قال « يا للعجب ٠٠ الهذا المقدار تنفرين من رائحتها ٠٠ ينبغي لك ان تتعوديها والا فيكون عيشنا منغصًا »

فلم تزد على هز كتفيها وهي تنظر الى البحرية وهم يشتغلون برفع المرساة وحل الشراع وتدوير الذهبية للاقلاع ٠ وسمع اسطفانوس خطوات مرقس فنهض لاستقباله وهو يقول « احسُّ بالذهبية تدور بنا هل اقلع الربان ؟ »

قال « نعم اننا ذاهبون الى الفسطاط » ثم حول خطابه الى دميانة فقال « ارجو ان تكوني قد سررت بهذا الاحتفال والفضل بذلك لصديقي اسطفانوس فانهُ والحق يقال لم يدخر وسعًا في سبيل راحتنا ٠٠ قدرنا الله على مكافاته »

فسكتت هنيهة ثم قالت « الى اين نحن مقلعون يا أبتاه ٠ »

قال « اننا ذاهبون الى مدينة الفسطاط نقضي فيها اياماً . اظنك لا تعرفينها »

قالت « كنت احسبك ترجع بنا الى بيتنا »

قال « أراكِ شديدة الحرص على غرفتك وكتبك وايقوناتك . وانت الى هذا اليوم لم تخرجي من طاء النمل ولا شاهدتِ شيئاً من مدائن مصر . ان الفسطاط مقر الوالي واجناده المسلمين وفيها من الابهة والزخارف ما لا تجدين مثله في القرى »

قالت « مالي وللابهة والزخارف . ان هذا لا يهمني كثيراً »

قال « انا اعلم انه لا يهمك ولكنني احببت ان اريك شيئاً جديداً »

قالت « افضل الرجوع الى البيت »

قال « سترجعين قريباً ولكن صديقي اسطفانوس دعانا لقضاء بضعة ايام في منزل والده بمحلة بابلون قرب الفسطاط فاذا كنت لا تحبين المرور بالفسطاط مررنا تواً الى بابلون »

فلما سمعت قوله استعاذت بالله وقالت « اين نحن من دير المعلقة الآن ؟ »

قال « هو في طريقنا بين الفسطاط و بابلون »

قالت اذا لم يكن بدٌّ من الذهاب الى غير بيتنا فاني احب زيارة هذا الدير لاني نذرت ان أزوره متى سمحت لي الفرصة وفي عنقي صليب من صلبانه »

فسر مرقس لرغبتها في تلك الزيارة فقال « تنزل في الدير اذا شئتِ »

الفصل العشرون

دير المعلقة

وكانت السفينة قد اقلعت ونشرت اشرعتها واخذت تخترق عباب الماء ولم تمضِ بضع ساعات حتى اطلوا على قصر الشمع ودير المعلقة جزء منه . فمرّت السفينة بين الروضة وقصر الشمع حتى رست بباب القصر وهو يومئذٍ قريب من النيل فاشتغلت بالنظر اليه لانه اشبه بالحصون منه بالقصور ووقفت السفينة بجانب بابه الغربي وهو باب عظيم الارتفاع قائم بين برجين عظيمين مستديري الشكل وفوق الباب نقش عليه صورة النسر الروماني فاراد اسطفانوس مخاطبتها فقال « ان دير المعلقة بادمبانة في احد هذين البرجين »

فسكتت ولم تجبهُ فلما رست السفينة هناك اشتغل البحرية بوضع السلم للنزول فنزل مرقس ونزلت دميانة في اثره ودخل بها الباب ثم صعد الى الدير وفيه بعض الراهبات فلما علمن بقدوم الضيوف خرجن للقائهم وتقدم اسطفانوس الى الرئيسة ان ترحب بدميانة فخرجت لاستقبالها ورحبت بها وسارت معها الى الكنيسة وارتها مافيها من الاعمدة الرخامية على اشكالها والايقونات الثمينة فخشعت دميانة من تلك المشاهد وظهر السرور في وجهها و بعكس ذلك والدها ولكنه اراد مسايرتها ليهون عليه استبقاؤها ريثما ينقلها الى بابلون

ولما استقر المقام بدميانة هناك قال لها والدها « اني ذاهب لقضاء بعض الحاج في الفسطاط وربما بتُّ الليلة هناك ثم اعود اليك في الصباح »

فسرّها ذلك وقالت « افعل ما بدالك اني هنا في خير وطمأنينة ولو مكثت في هذا الدير اشهرًا لا ابالي »

فودعها وخرج ومعهُ اسطفانوس وظلت دميانة وزكريا في الدير

باتت تلك الليلة هناك على الرحب والسعة وقضت ردحًا من الليل وهي تسمع ما يقصهُ عليها الراهبات من احاديث القديسين وعجائبهم واستانست على الخصوص بالراهبة التي كانت اهدتها الصليب

ولما اصبحت في اليوم التالي اسرعت الى الكنيسة للصلاة وبعد الفراغ منها اخذتها رئيسة الدير الى غرفتها وقد احبتها وتعلقت بها . وهما جالستان هناك جاءت راهبة وعلى وجهها امارات الدهشة والسرور معًا فابتدرتها الرئيسة بالسؤال قائلة « ما وراءك ؟ خيرًا ان شاء الله ؟ »

قالت « الاسقف .. الاسقف آتٍ لزيارتنا»

قالت « واي اسقف تعنين ؟ »

قالت « اسقف الفسطاط »

وبان البشر في وجه الرئيسة ونهضت للحال وامرت ان يتأهب الراهبات لاستقبال الاسقف وقامت دميانة معهن وسألت راهبة كانت ماشية بجانبها « يظهر ان الاسقف لا يزور هذا الدير كثيرًا »

قالت « يندر ان يزورنا الاّ لامر هام فعسى ان يكون قد جاءنا ببشارة خير على قدومك »

وما عتم ان رأت الاسقف داخلاً والراهبات يرحبن به فدخل اولاً الكنيسة صلى

فيها صلاة مختصرة على جاري العادة ثم تحوَّل الى غرفة الرئيسة ولم يدخل معهُ اليها الاَّ الرئيسة ودميانة وا كبت دميانة على يده فقبلتها والتمست بركته ودعاءه فباركها وجلس على وسادة واشار الى دميانة ان تجلس وهو يقول للرئيسة « اليست ضيفتكم دميانة بنت المعلم مرقس ؟ »

قالت الرئيسة « نعم ياسيدي يظهر انك تعرفها »

ولما سمعت دميانة اسمها تعجبت واطرقت حياء واجلالاً فقال الاسقف « قد عرفتها بالامس مذ كانت في كنيسة شبرا بدعوة ولدنا اسطفانوس بن المعلم يوحنا كاتب صاحب الخراج وقد احسن الوصاية بها وبالغ في الثناء على ابيها »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس تحول سرورها الى كدر ولم تبد ملاحظة فقال لها الاسقف « ألم تكوني مساء الامس في كنيسة شبرا يا ابنتي ؟ »

قالت وقد صبغ الحياء وجهها « نعم يا ابتي كنت هناك وحضرت القداس وتبركت بدعائك »

قال « بدعاء القديسين والابرار يا ابنتي .. اني لفرط ماسمعته من الثناء على تعقلك وتقواك اصبحت مسروراً برؤيتك . وهل انتِ عازمة على طول الاقامة هنا ؟ »

قالت « لا ادري ولو خُيرت لقضيت عمري هنا »

فتبسم الاسقف تبسماً ينطوي على معنى وقال « ان الديور افضل المنازل للمسيحيين اذ يتفرغ فيها الانسان لعبادة الخالق والقيام بفروض الدين ولكن لا ادري اذا كانوا يأذنون ببقائك هنا طويلاً »

فاشكل عليها مراده واستغربت تصديه لهذا البحث عند اول مقابلة ولكنها تجاهلت وقالت « اذا كان اهل هذا الدير يخرجونني منهُ فلا حيلة لي »

قال « لا أعني ذلك فان رئيسة هذا الدير وراهباته يرحبن بك كثيرًا . ولكنني اعني والدك المعلم مرقس .. مالنا ولهذا الآن دعينا من هذا الحديث حتى يأتي والدك »

فادركت انهُ يشير الى الامر الذي ترتعد فرائصها من ذكره ولكنها تجلدت وسكتت فحوَّل الاسقف كلامهُ الى الرئيسة وقال « كيف الدير وراهباته ارجو ان يكن في راحة »

قالت « هنَّ في خير ببركة السيد المسيح ودعائكم »

قال « يظهر ان هذا الوالي التركي ارفق بالاقباط من اسلافه العرب »

قال نعم يا سيدي انه منذ تولى مصر مشتغل بشؤون دولته فلا ندري هل كان سكوته ناتجاً عن اشتغاله عنا او هو يريد بنا خيراً »

قال « اظنه يفعل ذلك عن رفق وحسن رأي ادام الله هذه النعمة علينا »

فقالت الرئيسة « امين »

وهم في ذلك اتت احدى الراهبات وقالت « ان المعلم مرقس يلتمس الدخول »

فقالت الرئيسة « يدخل »

ولم تمض هنيهة حتى اقبل المعلم مرقس فاكب اولاً على يد الاسقف فقبلها وسلم على الرئيسة واقبل الى دميانة يسألها عن حالها فقالت « اني في غاية السرور في هذا الدير وقد غمرتني الرئيسة بفضلها ولطفها »

فجلس مرقس وهو يكرر التحية على الاسقف ويطلب دعاءه . ودارت الاحاديث بينهم بالاحوال الجارية وذكروا الاحتفال بعيد الشهيد بالامس واطرى مرقس فخامته وما يرجونه من البركة في ماء النيل على اثر القاء اصبع الشهيد فيه

الفصل الحادي والعشرون

الخلوة

ثم نهض الاسقف وتحول الى مرقس وطلب اليه الخلوة به فاطاعه ودخلا غرفة منفردة واقفلا الباب عليهما فاوجست دميانة من تلك الخلوة وحدثها قلبها بشيء تخافه

اما الاسقف فلما خلا بمرقس خاطبه بشأن دميانة وخطبتها الى اسطفانوس واثنى على الخطيب وابيه لوجاهتهما فاجابه مرقس انه يعلم منزلة المعلم حنا كاتب المادراني وقد صادق ابنه اسطفانوس وعاشره وهو يستلطفه ولذلك فانه لا يرى مانعاً من اجابة الطلب الى ان قال « وفي كل حال ان امراً دخل فيه سيادة الاسقف نافذ لا محالة وما دميانة الا ابنتكم المطيعة »

فاثنى الاسقف على تلطفه وقال « شكا الي ولدنا اسطفانوس من جفاء الفتاة وتباعدها فاذا كنت تعلم انها تكره الزواج قل لي تفادياً من المشاكل بعد الزواج »

قال مرقس « تكره ؟ كيف تكره مثل هذا النصيب ؟ ولكنني احسبها تفعل ذلك

حياء على عادة البنات في مثل هذه الحالة ... وهب انها ترددت في اول الامر فلا بدّ من قبولها »

قال « الا تظن سبب تباعدها اختيارها شاباً آخر وقع في نفسها موقعاً جميلاً ؟ »

فهزّ مرقس رأسه استخفافاً بذلك الرأي ودفعاً لتلك التهمة وقال « اختيارها شاباً آخر ؟ ما انا ممن يخيرون بناتهم وليس عندنا بنات تختار .. ان البنت العاقلة هي التي تعمل برأي ابيها فكم بالحري اذا اضيف اليه رأي سيدنا الاسقف ونحن كلنا طوع ارادته »

فتبسم الاسقف واثنى على لطف مرقس ونهض وهو يقول « اي متى تريد ان تضع عربون الخطبة »

قال « في الوقت الذي تعينه سيادتكم »

فشكر له ومشى فخف مرقس الى الباب ففتحه له وكان احد الشمامسة ينتظر خروجه فتقدم اليه بالصولجان فتناوله وتلفت كأنه يبحث عن الرئيسة ليودعها فتقدمت وقبلت يده فباركها وقال لها « اوصيك خيراً بدميانه سمية القديسة الشهيرة .. اين هي ؟ اني لا اراها »

قالت « هي في الصلاة .. فانها لا تفتر عن العبادة ... بالحقيقة انها من اهل التقوى »

قال « حقيقة ... ولكن لا اظنها تنوي الترهب » وضحك

قالت « الا اذا اختارها السيد المسيح لخدمته » ولما رات الاسقف يضحك ادركت انه يمازحها ويشير الى قرب خطبتها فسكتت فاعاد الوداع وودع مرقس ومضى

اما دميانة فلم تعتزل في الغرفة للصلاة فقط ولكنها اوجست من خلوة الاسقف بابيها فخافت ان يستقدماها للامر الذي تخافه وتنفر منه فتشاغلت بالصلاة وهي لا تفهم ما تقرأه لقلقها واشتغال خاطرها، وكانت من الجهة الاخرى تراعي حركات اهل الدير لتعلم ساعة خروج الاسقف فلما علمت بخروجه وذهابه شكرت الله على مرور الخطر ولكنها تعودت في مثل هذا الحال ان تجد زكريا بين يديها فتسمع منه طمأنة او تهويناً فلم تجده

وبعد قليل عاد زكريا ففرحت بقدومه ولا سيما لانها توسمت في وجهه خبراً مفرحاً رغم ما في حاله من ادلة العجلة والبغتة فسألته عن سبب غيابه فقال «ذهبت في امر ستري ثمرته الآن »

فلم تفهم مراده فقالت « واي امر تعني ؟ .. الم تشاهد الاسقف ألم تعلم بخلوته ؟ »

قال « كيف لا ؟ ولولا علمي بذلك ما ذهبت بهذه المهمة »

فازدادت قلقاً وبان ذلك في عينها فابتدرها زكريا قائلاً « لا تقلقي يا سيدتي اسمعي قرع الباب .. الا تسمعينه ؟ »

قالت « بلى اسمعه . وما ذلك »

قال « ان القادم هو والد صاحبنا اسطفانوس »

قالت « والدهُ ؟ . المعلم حنا ؟ »

قال « نعم »

قالت « ما الذي جاء به ؟ »

قال « انا استقدمته »

قالت « انت ذهبت اليه واستقدمته وكيف ذلك ؟ . قل »

« قال لما علمت بمقابلة الاسقف سيدي والدك ايقنت انه سيخاطبه بالامر الذي يريده اسطفانوس وانا اعلم ان والده رجل عاقل يعرف حقيقة ابنه وانه ليس كفوءًا لما يطلبه فذهبت واسررت اليه الامر فرأيته كما كنت اظن ووعدني انه قادم ليخاطب والدك »

قالت والاستغراب بادٍ في اسرتها « آت لماذا »

قال « ليرجع اباك عن هذا الامر ورد ابنه خائباً »

فتبسمتْ والدهشة تمازج ابتسامها « يرجعه ؟ اتظنهُ يستطيع ذلك »

الفصل الثاني والعشرون

المعلم حنا

وقطع كلامهما خفق نعال المعلم حنا في صحن الدير فمشت دميانة حتى تشرف عليه من نافذة أو تراه منها ولا يراها هو فرأتهُ رجلاً جليل الطلعة وقوراً يظهر التعقل في نظراته وخطواته ورأت رئيسة الدير كثيرة الاحتفاء به وهو يقول لها « بلغني ان المعلم مرقس صاحب طاء النخل هنا »

قالت الرئيسة « نعم ياسيدي .. وقد كان الآن في خلوة مع اسقف الفسطاط

وخرج الاسقف واظن المعلم مرقس لايزال في الغرفة التي كانا فيها » قالت ذلك وهي تمشي بين يديه حتى دخلت تلك الغرفة فرأت مرقس فيها فتركتهما ورجعت

اما دميانة فلا تسل عن اضطرابها في الفترة التي كان ابوها والمعلم حنا مختليين واستطالت الخلوة وقلبها يختلج ويداها ترتعشان وقد اصبحتا باردتين كالثلج وهي في اثناء ذلك تتلاهى بالقراءة وتتجلد مخافة ان يظهر ذلك لاحد . وكان اهل الدير في شاغل عنها بشؤونهم . أما زكريا فتركها وخرج لعله يستطلع خبرًا يحمله اليها

طالت الخلوة ودميانة تتساءل في ماذا عسى ان تكون عاقبتها تارة تظن سوءا وتارة خيرًا وكلما سمعت حركة خطو او فتح باب يخفق قلبها .. واذا هي تسمع صوت المعلم حنا نفسه يودع والدها بلحن لم يعجبها فالتفتت فرأت وجه الرجل متغيرًا ووالدها يتواضع لديه ويتقرَّب منه عند الوداع بصوت خافت كانه يعتذر عن خطأ ارتكبه . فمكثت هنيهة كالضائعة واذا بزكريا قد جاءها ووجهه ينذر بما وقع فابتدرته قائلة « لم يفلح الرجل على ما اظن »

قال « هكذا يظهر وعلمت ممن سمع حديثها ان المعلم حنا نصح لابيك ان لا يزوج ابنهُ بك وانه ليس اهلاً لذلك فطاوله في الكلام ثم اعتذر بانهُ وعد الاسقف واصبح الرجوع صعبا ... وانهُ سيبذل جهده »

فلما سمعت دميانة قوله وكانت في مكان لا يراها فيه احد لم تتمالك عن ان لطمت خديها لطمة خفيفة وقالت « و يلاه ما هذه التجربة .. ابوه نفسه يقول انه ليس اهلاً لي .. » واخذت تبكي ثم تحولت نحو ايقونة للسيد المسيح معلقة هناك وقرعت صدرها وتنهدت من اعماق قلبها وقالت « الهي نجني من هذه التجربة واذا كنت تعلم اني مخطئة في نفوري من هذا الشاب حببهُ اليَّ واجعلني ارى خطأي .. » واطلقت لنفسها عنان البكاء

فقال لها زكريا « كفكفي دمعك يامولاتي .. سيأتي والدك .. كفي عن البكاء واصبري . ولا تبالي بشيء فقد قلت لك ان ذلك الغر لايمكن ان ينال قلامة من ظفرك .. سايري والدكِ ولا تبدي لهُ جفاء واتكلي على المسيح وعليَّ »

فاطمأنَّ خاطرها وتراجعت ومسحت عينيها ثم مشت الى غرفتها فلقيها ابوها ولعلهُ رأى اثر الدمع في عينيها وتجاهل فقال لها « اني ذاهب وربما ابيت الليلة خارجا .. اظن هذا يسرُّكِ يادميانة اذ تتفرغين للعبادة » وضحك . فسايرته في الابتسام فخرج وعادت الى همومها وزكريا يؤكد لها النجاة و يسهلها ربما يتمكن مرقس سعيد عند ابن طولون بعد

جري الماء في العين وهو قريب

اما مرقس بعد مقابلة المعلم حنا وما عرفه من انكاره على ابنه الزواج بدميانة فاصبح وقد ذهب شيء من آماله في تلك المصاهرة لانه كان يرجو ان يستفيد من نفوذ كاتب الخراج فضلاً عن صداقته مع اسطفانوس ولكنه ما زال يرجو رجوعه الى الرضى لعلمه انه يحب ابنه كثيراً . وكان مرقس يعتقد من الجهة الثانية ان اسطفانوس متى تزوج يظهر لدى والده مظهر الكمال ويسمو في عينيه فيقربه . ثم هو من الجهة الثانية تمسك بقوله تنفيذاً لكلمته وعملاً بسلطته المطلقة على اهل منزله

وفي اليوم التالي رأت دميانة اهل الدير في حركة يرتبون وينظفون كانهم يتأهبون لاستقبال زائر كبير ورأت بعض الراهبات ينظرن اليها نظرة خصوصية ولاسيما الرئيسة فقد كانت تراعيها وتبتسم لها فتجاهلت وسألت الرئيسة عن سبب هذا الاستعداد فقالت « ان سيدنا الاسقف قادم لزيارتنا في اصيل هذا اليوم وبما اننا استقبلناه بالامس على غرة فرأينا ان نستعد لاستقباله اليوم استقبالاً يليق بمقامه لانهُ اسقف مدينة الفسطاط وله وجاهة وكلمة نافذة فضلاً عن مركزه الديني »

فلم يعجبها هذا الخبر وارادت ان تعيد الاستفهام عن سبب مجيئه فخافت ان تسمع جواباً ينفر منه قلبها فسكتت فضحكت الرئيسة وقالت « لم تسأليني عن سبب قدومه »

قالت « رأيت ذلك ليس من شأني »

قالت « بل انتِ صاحبة الشأن الوحيد فيه »

ففهمت مرادها وتحولت من بين يديها لئلا تسمع تصريحها فلقيها زكريا وقد علم ان الاسقف آتٍ ليضع عربون الخطبة مع ابيها فاخذ يشجعها ويؤكد لها مساعدته وان تمنعها لا يجديها نفعاً في تلك الحال الى ان قال لها « ان الخطبة عقدٌ يمكن حله وسواءٌ حل هذا العقد ام لا . . لا تخافي ياسيدتي . . انت تعرفين خادمك زكريا وانهُ لا يقول جزافاً . . . ومع ذلك ما ادرانا ان يكون والدك قد اقتنع من كلام المعلم حنا فيؤجل الخطبة الى وقت آخر »

فقطعت كلامه قائلة « لا تدعُ نفسك خادماً فانك احنُّ من الاب فاذا شئت ادعني ابنتك . . واما ما تقوله فلا يدعو الى الطمأنينة ولو كان والدي غير عزمه لما كان ثمة داع الى قدوم الاسقف »

قال « وعد الاسقف قبل مقابلة المعلم حنا فربما غير عزمه ومع ذلك فاتركي الامر الي

ربما اقول كلمتي » وسكت كانه ندم على هذا الوعد

فقالت « ومتى تقول كلمتك ؟ . . وهل تظنها تنفع »

قال « اقولها عند اليأس واذا لم تنفع فغيرها بنفع » قال ذلك ومشى خوفاً من ان تستزيده ايضاحاً وهو حريص على الكتمان

فادركت هي غرضه فسكتت

الفصل الثالث والعشرون

الخطبة

وفي اصيل ذلك اليوم اتى مرقس وهو يبش لدميانة بشاشة خصوصية وقدلبس احسن ثيابه استعداداً لملاقاة الاسقف . ثم امسك بيد دميانة واخذها الى غرفتها ومدّ يده الى جيبه واستخرج عقداً من الجوهر يتلألأ كالشمس وقدمهُ اليها وهو يقول « ما اجمل هذا العقد يادميانة» وتوقع ان تمد يدها لتتناوله فلما لم تفعل اظهراستغرابه وقال« لماذا لا تمدين يدك . . خذيه انه لك » وتقدم نحوها وعلقه في عنقها وهي لا تتحرك وحدثتها نفسها ان تقطعه وترميه الى الارض ولكنها تمالكت عملاً باشارة زكريا . فظنها ابوها رضيت فاكب على رأسها فقبلها وقال « اعلمي يا حبيبتي ان هذا العقد هدية من اسطفانوس وهو آت الآن مع سيادة الاسقف ولو تعلمين كم يحبه سيادته ويعتبره لانه كما لا يخفى عليك ابن المعلم حنا وهو لطيف العشرة . . . اتعلمين لماذا هو آت مع الاسقف »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس لم تعد تملك ارادتهـا فقالت « لا حاجة بي الى معرفة سبب ذلك »

قال وهو يمازحها « كيف لا وانت صاحبة الشأن ولك النهي والامر اليوم »

قالت وهي تغص بالكلام « لا امر لي ولا نهي ولو كان لي رأي لما البستني هذا العقد ولا اتيت بي الى هذه الديار . . » وشرقت بدموعها

فقال وهو يظهر الاستخفاف بقولها « الا تزالين تفضلين الاقامة في طاء النمل على الفسطاط قصبة الديار المصرية ومقر الاعيان ورجال الدولة »

فتنهدت وسكتت مخافة ان يبدو منها شيء تندم عليه

اما هو فجعل يغالطها و يفسر نفورها بغير الواقع فينسبه الى الحياء او الخوف على عادة البنات في مثل هذا الحال

ثم جاء الاسقف واهتم لمجيئه اهل الدير فاستقبلوه بالتراتيل والصلاة والزهور والبخور فدخل الكنيسة اولا وصلى صلاة حضرتها دميانة في جملة الحضور وتخشعت كعادتها في اثناء الصلاة فجعلت تتوسل الي الله ان يلهمها مافيه الخير لها وانه اذا كان قد جعل اسطفانوس نصيبها فليحببه اليها و بكت وتضرعت كثيرًا وهي تحاذر ان يراها احد . وهي في ذلك انتبهت بغتة فرأت اسطفانوس داخلاً الكنيسة وقد لبس احسن ما عنده واصلح هندامه ووقف بجانب ابيها فاجفلت عند رؤيته وكاد الدم يجمد في عروقها وجعلت تناجي نفسها وتسال قلبها فلا تراه يزداد الا نفورًا وكلما تصورت اسطفانوس وسعيدًا بجانبه احست باجتذابها نحو سعيد ونفورها من اسطفانوس . فقام في خاطرها ان الله لا يريده لها لكنها عادت فتذكرت ان الله يوصيها بطاعة الوالدين واكرامهما فوقعت في حيرة

قضت في ذلك اكثر مدة الصلاة والاسقف بثيابه الجميلة والبخور يتصاعد في فضاء الكنيسة مع اصوات الترتيل واذا هي تسمع الاسقف يقول « يامعلم مرقس . . »

فالتفتت فرأت اباها يمشي نحو الاسقف عند الهيكل فامرَّ اليه قولاً فعاد مرقس الى دميانة وطلب اليها ان ترافقه الى ما بين يدي الاسقف فمشت معه منقادة كما يقاد الحمل الى الذبح ونادى الاسقف « اسطفانوس » فجاء ووقف هناك فرفع الاسقف يده وبارك وصلى ثم مدها الي اسطفانوس وتناول منه خاتمًا صلى عليه والبسه لدميانة وهو يتلو ما جرت به العادة وصرح للحضور انه قد عقدت خطبة دميانة على اسطفانوس

كل ذلك ودميانة ساكتة والدمع يتساقط على خديها وخافت ان تخونها قواها فتسقط على الارض فتجلدت وركبتاها ترتعدان فلما وضع الاسقف الخاتم بيدها لم تعد تملك قواها فوقعت على الارض فترا كضت الراهبات اليها ونضحنها بالماء المقدس ونسبن ذلك الى تعبها او حيائها او غير ذلك وأتينها بزيت من مصباح امام صورة مريم العذراء مسحوا به جبينها فافاقت وحملنها الى غرفتها للاستراحة ولما اتم الاسقف الصلاة ذهب مع والدها الى متوسدها واخذ يخفف عنها تارة و يمازحها اخرى واسطفانوس يعلم انها انما اصابها ذلك من فرط تأثرها وقد غلبت على امرها لانها تحب سعيدًا . واختصروا الاحتفال بالخطبة بسبب الانزعاج الذي اصاب دميانة وتفرقوا

الفصل الرابع والعشرون

التلميح

واما زكريا فقد كان اشد الحضور تألماً مما حدث وكان قد عزم ان يخاطب مرقس بالامر قبل عقد الخطبة ولكن الاسقف لم يترك له فرصة اذ بادر حالاً الى وضعها فلما رأى ما أصاب دميانة صبر حتى ذهب القوم وطلب مقابلة مرقس وكان هذا قد هم بالخروج مع اسطفانوس فودعه على ان يلتقيا بعدئذ ورجع الى زكريا وقال له « ما الذي تريده »

قال « اذا اذن مولاي بخلوة قلت له ما اريد »

فاظهر تململاً من هذا الطلب ولكنه مشى امامه الى غرفة دخلها وجلس على وسادة وقال « ماذا تريد »

فقال زكريا وهو واقف بتأدب « لا بد ان ما اصاب سيدتي دميانة قد اثر في نفسك كثيراً .. »

فضحك بتهكم وقال « لا لم يؤثر فيَّ بل اثر فيك انت فقط »

فشق هذه التهكم على زكريا ولكنه تجلد وقال « لم اكن انتظر هذا الجواب ياسيدي فان سوالي هذا ليس كل ما اريد ان اقوله »

قال « قل ما تريد ... ان دميانة لم تأت ما اتته من العناد الا بسببك ولولاك لكانت مطيعة راضية »

فاطرق زكريا وهو يعمل فكرته ويستشير نفسه في هل يجيب مرقس بما يستحقه ام يبقى على السكوت ، واستبطأ مرقس جوابه فقال « هل عندك شيء آخر تقوله ؟ »

فقال « عندي اشياء كثيرة ولكنني لا أقولها وانت تخاطبني بهذه اللهجة ولا انا ارى مسوغاً لهذا اللحن كأن سيدي نسي حقيقة مركزي في منزله فانكر اختصاصي بخدمة دميانة واخلاصي لها »

فتذكر مرقس ان زكريا ليس من خدمته وانما هو أُوقف لخدمة دميانة على الخصوص فقال « لم انس ذلك ولكنك بالغت في اغرائها على ابيها حتى كادت تعصى كلمته »

قال « بماذا اغريتها ياسيدي ؟ .. اظنك تعني نفورها من خطيب اليوم .. اقسم لك

بالسيد المسيح اني لم اؤثر على رأيها ولا غيرت شيئاً من عزمها ولكنني رأيتها نافرة منه ولو استعانتني في التخلص منه فان ضميري وذمتي لا يساعدانني على ردها ... »

فقطع مرقس كلامه قائلا « تقول بكل جسارة انك لم تغير عزمها الم تكن راضية به يوم كنا في طاء النمل فما الذي جرى الآن ؟ ... ولكنها لن تتزوج الا به رضيت ام لم ترض » قال ذلك والغضب باد في عينيه

فاجابه زكريا بصوت منخفض لكنه يرتجف من الغضب « اذا اصررت على ذلك ماتت كمداً »

قال « لا .. لا تموت كمداً الا اذا ظللت على اغرائها فانك تقتلها .. دعها وشانها... دعها لابيها فانه ولي امرها »

فادرك زكريا تلميحه فقال « انت تعلم ياسيدي اني لا اقدر ان اتخلى عنها عملاً بالوصية التي اوصيت بها يوم ولادتها وقد مضت هذه المدة وانت لا ترى مني مخالفة اما الآن فانا على يقين انها تكره هذا الشاب ولو دققت لحمها ولحمه في وعاء واحد لما امتزجا وانا انما اريد الخير لها ولك . لانك اذا اصررت على اكراهها اما تقتلها او تكرهها على امور لا ترضيك . »

فقال « لا تجسر على شيء وهل هي الا ابنتي ولا تقدر على مخالفة ارادتي ؟ لم تجر العادة ان يترك البنات لارادتهن في الزواج يقبلن هذا و يرفضن ذاك .. ام هي اعلم مني بما ينفعها او يضرها ؟ »

فقال زكريا بهدوء ورزانة « ولكنك تعلم ايضاً ان لدميانة مع ابيها شأناً يختلف عن شؤون سائر البنات مع والديهن »

فوقع هذا القول في قلب مرقس كالصاعقة رغم ما اخفض زكريا من صوته ومع تلطفه في اسلوب التعبير فقال مرقس « لا اعرف لها شأناً آخر »

قال « اذا كنت لا تعرفه انت فانا اعرفه »

فوقف عند ذلك مرقس كأنه يهم بالخروج وقال « لا يهمني ما تعرفه ولكنني انصح لك ان تخلي بيني و بين ابنتي ولا تغريها على مخالفتي »

قال « لو كانت تخليتها في طاقتي لخليتها ولكنني مؤتمن على امر تقضي علي الذمة ان احافظ عليه الى آخر نسمة من حياتي »

فقال مرقس « طيب ... افعل ماتشاء » وخرج وقد زاد عناداً ونقمة

الفصل الخامس والعشرون

المؤامرة

وسار مرقس تواً الى صديقه اسطفانوس فرآه جالساً الى المائدة وبين يديه آنية الشراب وقد تناول شيئاً منه. وتوسم في وجهه عبوساً كانه يشرب ليذهب غضبهُ فلم يفته سبب ذلك الغضب لكنهُ غالطهُ فبعد ان حياه وجلس اليهِ سألهُ عن سبب غضبهِ فانكر الغضب في بادىء الرأي فقال مرقس «لا تنكر عليَّ ذلك فاني اعرف السبب»

فقال «اذا كنت تعرفهُ فلماذا تسألني؟ ..»

قال «اسألك .. لاني احب ان اعرف هل اصاب ظني ..»

فقال اسطفانوس «انت مصيب اذا كنت تظنني غضباً من تصرف دميانة معي ولكن هل تعرف سبب هذا التصرف؟»

قال «اظنني اعرفهُ .. ان سبب هذا العناد انما هو اغراء ذلك النوبي خادمها ولولاه لكانت اطوع لي من بناني ... وقد وبختهُ اليوم واسمعتهُ ما لا يرضيه»

فابتسم اسطفانوس رغم ما كان فيه من الغضب وقال «انك ظلمت زكريا بهذا الحكم. ليس هو سبب العناد .. انا اعرف السبب ..»

قال «وما هو»

قال «اتذكر ليلة جاءنا ابو الحسن مساء وطلب دميانة لذلك الشاب المهندس؟»

قال «اذكر ذلك ولكننا رددناه وليس له عندنا أرب»

قال «هذا ماتقوله انت ولكن سعيداً ما زال يتطاول الى تلك الامنية» وهزَّ رأسه حقداً عليهِ

فقال مرقس «بماذا يرجوان ينالها؟. لا .. لا نصدق ذلك»

قال «لا اصدق؟ وقد شاهدتهُ يخاطبها ويدافع عنها وهي تلجأ اليـهِ وتتكل عليهِ .. شاهدت ذلك بعيني»

قال «متى؟ ..»

قال «يوم الاحتفال بعيد الشهيد ..» وقص عليه بعض الواقعة وغيَّر فيهـا وبدَّل اخفاء لجبنه وسفالته

قال «ليتك قبضت عليه في تلك الساعة»

قال « لم اشأ ان ألوث يدي بدمه ولكنني سادبر له تدبيرًا يكفينا شره ولا يحملنا وزره .. لست انا ممن يرون مصادرة الاعداء بقوة البدن فان هذه المصادرة وجهًا لوجه لا تخلو من خطر على المهاجم . والعاقل الحكيم من يأخذ عدوه بالحيلة والسياسة فيرديه وينتقم منه بدون ان يسأل عن شيء من ذلك — واما المخاصمة بالايدي او الارجل فهي من طباع البهائم وانما يتحارب الرجال بالعقول .. وسوف يرى هذا الرجل الذي لا يعرف اباه ان اسطفانوس لا يستهان به » قال ذلك وهو يشمخ بأنفه ويتصدر تصدر الفائز ... ويعد اقواله حججًا دامغة . ولعل صديقه مرقس يوافقه عليها . وقد يوافقه عليها آخرون لان ظاهر المراد منها « ان يتحارب الناس بالعقول » ولكنه يخفي تحت هذا التعبير عزمه الايقاع بسعيد غدرًا وهو يعد ذلك من قبيل المحاربة العقلية وما هي الا خيانة ودناءة

فلما سمع مرقس قول اسطفانوس اظهر الاستخفاف بامر سعيد وقال « مالنا وله دعه وشأنه فانه اعجز من ان يصل الى دميانة طالما كنت حيًا .. ولا اظنه متى صليت صلاة الاكليل وصارت دميانة زوجة لك الا قانطًا فيرجع على عقبيه خائبًا »

ففكر اسطفانوس ساعة فرأى ان زواجه النهائي قد يسكت دميانة لكنه ما زال يخاف على نفسه من غضب سعيد وقد نال مثالًا من شدته يوم الاحتفال فعزم في باطن سره على التخلص منه اولًا وكتم ذلك عن مرقس لكنه قال « لا ريب عندي ان المبادرة الى الاكليل احسن وسيلة لقطع ألسنة الحاسدين وكبت انفاس المبغضين ولكنني احب ان يكون ذلك برضى خطيبتي . وبما ان سبب جفائها انما هو اغترارها بهذا الشاب لتقربه الآن من صاحب مصر لانه استخدمه لاستنباط المياه فاحب ان تعرف خطأها قبل اتمام الاقتران .. ان ما يرجوه هذا الشاب من وراء عمله الذي عمله لابن طولون انما هو اضغاث احلام ستظهر بعد الاحتفال بفتح تلك العين وترى ذلك عيانًا »

قال « متى يكون هذا الاحتفال ؟ »

قال « بعد بضعة ايام وسأدعوكم لمشاهدة الموكب والاحتفال وتأتي دميانة ايضًا فاجلسكم في مكان مرتفع تشاهدون منه الاحتفال عن بعد وكأنه بين ايديكم . وستكون دميانة معكم طبعًا وترى مصير ذلك المغرور وهي عند ذلك ترجع الى صوابها وتذعن صاغرة ويرتاح بالها »

فاطمأن بال مرقس لهذا التدبير ولكنه لم يفهم نية اسطفانوس وتواعدا على الذهاب لمشاهدة موكب ابن طولون يوم الاحتفال فقال مرقس « اين مجتمعنا ؟ »

قال « سأستأذن صديقاً لي في الديوان ان يدخلنا قبة الهواء القائمة على سفح المقطم ويخصنا بمكان منها يشرف على كل ما هنالك من السهول ونشاهد الاحتفال كأنه بين ايدينا بلا مشقة ولا تعب »

فوافقه مرقس على ذلك وودعه وافترقا

الفصل الثاني والعشرون

قبة الهواء والقطائع

قبة الهواء بناء اقامه امراء مصر على سفح المقطم في نحو محل القلعة اليوم . اول من ابتناها حاتم بن هرثمة في اواخر القرن الثاني للهجرة [1] وجعل الامراء بعده يتخذونه مصيفاً او متنزهاً ولما جاء المأمون الى مصر سنة ٢١٧ هـ جلس فيها حتى اذا افضت امارة مصر الى ابن طولون ابتنى قصره تحتها وبنى القطائع وراء ذلك بينها وبين الفسطاط . وكان كثيراً ما يقيم في القبة المذكورة لانها كانت تشرف على قصره . وكانت القبة عبارة عن عدة غرف مفروشة باحسن الرياش عليها الستور الجليلة ولها فرش لكل فصل . ولما ذهبت دولة بني طولون وخربت قصورهم كانت قبة الهواء في جملة ما خرب

اما في يوم احتفال ابن طولون بجري الماء في العين فكانت تلك القبة في ابان عزها . وفي صباح يوم الاحتفال ذهب اسطفانوس بنفسه الى دير المعلقة ودعا مرقس ودميانة لمشاهدة موكب ابن طولون من القبة فلم تبدِ دميانة معارضة لان ذلك بغيتها . فسارت راكبة على حمار من حمر الدير ومشى زكريا في ركابها . واخذ زكريا يحدثها بامر الاحتفال ويمنيها بقرب الفرج حتى نسيت متاعبها وهواجسها وامتلأ صدرها رجاء واوشكت ان تقبض على السعادة بيدها

التقى الكل عند سفح المقطم نحو الضحى فاسرع اسطفانوس بين ايديهم صاعداً حتى اتى قبة الهواء وكان قيّمها واقفاً بانتظاره ففتح له باباً دخل فيه هو ورفاقه الى شرفة عليها اعمدة بينها الستور المزركشة او المطرزة تشرف على ما تحت المقطم من الميادين او الابنية او غيرها . واخذ اسطفانوس يساعد الفراش في تهيئة القاعة اللازمة لمرقس

(١) المقريزي ٢٠٢ ج ٢ .

وابنته وله . على ان حديثه كان هذه المرة مختصرًا ولم يتقرب من دميانة او يتحرش بها كعادته فطنته تأدب بالتجربة . واما هي فلم تخفه او تنفر من رؤيته كالعادة ليس لانها تعودته او اخذت تميل اليه وانما نظرًا لقرب نجاتها منه بعد فوز سعيد فلم تعد تخافه . ناهيك بما كان يجول في خاطرها من الآمال الكبيرة بعد حصولها على حبيبها . على ان لهفتها لمشاهدة سعيد في ذلك الموكب بجانب ابن طولون صاحب مصر شغلها عن الاهتمام بشيء آخر

اما اسطفانوس فبعد ان استقر المقام بضيوفه اعتذر بشغل يدعو الى انصرافه على ان يعود بعد قليل فقال له مرقس « وانا ايضًا احب الذهاب في مهمة الى مكان قريب ثم اعود فهل تبقى دميانة وحدها؟ »

فقالت « اذهب يا ابي وهذا زكريا يمكث معي ولا خوف عليَّ . . لا تجعلني عثرة في طريق راحتك »

فاظهر مرقس انه ليس في خاطره شيء على زكريا وقال « حسنًا . . ها اني ذاهب » والتفت الى زكريا وكان واقفًا بقرب الباب وقال له « لا حاجة بي ان اوصيك بدميانة »

فاشار زكريا مطيعًا وظل واقفًا حتى خرج مرقس ثم مشى نحو دميانة فرآها مشرقة الوجه على غير ما تعوده فيها في المدة الاخيرة فانها كانت لا تبرح منقبضة الصدر لا يحلو لها طعام ولا كلام . فوقف بين يديها وهي جالسة على مقعد ثمين يطل الجالس عليهِ على القطائع والفسطاط فاشارت اليه ان يجلس وألحت فجلس على البساط بين يديها وهو يقول « قد آن الوقت الذي تتخلص فيهِ من هذا الغلام . »

قالت « اتظن هذا اليوم آخر ايام الانتظار ؟ . ولكن كيف نجتمع بسعيد ومتى . . آه . »

قال « اني غير غافل عن شيء فقد لقيت سيدي سعيدًا بالامس وتواعدنا على امور سأقصها عليكِ . »

قالت « متى يبدأ الاحتفال ؟ اني لا أرى احدًا »

قال « لا يلبث ان يبدأ . . وستشاهدين عظمة ابن طولون وفخامة ملكه . . سترينه في موكبه . . انظري الى هذا البناء الذي هو اقرب سائر الابنية الينا في سفح هذا الجبل . . تأمليه جيدًا انه قصر ابن طولون . انه قصر فخيم لم يسمع بمثله في هذه الديار الا ما خلفه الفراعنة من الهياكل . انظري الى هذا الميدان أمام القصر وتأملي الجماهير المتزاحمة فيه بين راكب وماشٍ رجالاً ونساءً انه الميدان يلعب فيه هو ورجاله على خيولهم ويضربون فيه

بالصوالجة (الكرة والصولجان) وترين للميدان والقصر سوراً فخماً له عدة ابواب من جملتها باب الجيش الذي ترين الجند ببابه عليهم الاسلحة • وباب آخر يقال له باب الجبل وآخر باب الخاصة وآخر باب الحرم لدخول نساء القصر أو الخدم • وهذا الباب الذي تشاهدين عليه تمثالي سبعين هو باب السباع ومنهُ يخرج ابن طولون ويدخل[1] واظن الموكب سيخرج منه الآن • لان هذا الباب كما ترينه مؤلف من ثلاثة ابواب يخرج الوالي من الباب الاوسط ويخرج رجاله من البابين الجانبيين •• ان امر هذا الوالي عجيب لعلو همته • انظري فوق هذا الباب تري مجلساً يشرف على سائر القطائع وهي الابنية التي ترينها وراء هذا القصر نحو الفسطاط • فيجلس ابن طولون في هذا المجلس في يوم عرض او احتفال يراقب حركات رجاله وما يحتاجون اليه »

فقالت دميانة « واين يقيم المهندسون »

فضحك زركيا وقال « لا اعرف مكاناً خاصاً بهم •• ولكني اعرف واحداً منهم فقط واعرف اين يقيم •• هل اقول ؟ »

فقالت « لا » وبان الخجل في وجهها وغيرت الحديث فقالت « سمعتك تذكر القطائع فما هو المراد بها ؟ »

قال « هي يا سيدتي ابنية بناها ابن طولون لسكنى جنده ورجال خاصته ومتى تم لمولاي سعيد ما يريده واصبح من خاصته اعطاه قصراً في القطيعة اللائقة بمقامه — وقد سمي هذا البلد القطائع لانه مؤلف من احياء يعرف كل منها باسم قطيعة • ويسكن كلاً منها طائفة من الجند أو الرجال فللنوبة ابناء بلدي قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة وللفراشين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة • أما رجال الدولة كالقواد والخاصة فقد بنى لهم مواضع متفرقة ارجو ان يكون لسيدي قصر منها • وترين بين هذه القطائع الاسواق والازقة والطرق بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والافران وسميت الاسواق بها فيقال سوق الجزارين والبقالين •• ولا اطيل الكلام عليك •••»

فقطعت دميانة كلامهُ وقالت « ان بناء هذه القطائع يستغرق اموالاً طائلة مع ان في الفسطاط قصوراً واسواقاً فخيمة فلماذا لم يقم فيها •• »

قال لم يقم فيها لانه يخاف على نفسه من اهلها بعد ان غلبهم على مدينتهم وفيها احزاب خضعت له كرهاً فابتنى هذا البلد وهو اشبه بالحصون منه بالقصور ••• أما الاموال

(١) المقريزي ج ١

واتفاقها فلا تسلني عنه ٠٠ الا ترين هذا البناء الشاهق القائم في اطراف هذه القطائع ؟ تأمليه ٠٠»

قالت « اني ارى قصراً فخماً هل هو من بناء ابن طولون ايضاً ؟ »

قال « نعم ولكنه ليس قصراً وانما هو مارستان اتعرفين ما معنى هذه اللفظة ٠٠؟ »

قالت « كلا اني لم اسمعها قبل الآن »

قال « صدقت لان هذا البناء لم يسبق له مثيل في هذه الديار ٠ هو يا مولاتي بيت المرضى يستشفون فيه من ادوائهم ٠٠ »

قالت « أبناء لهذه الغاية ؟ »

قال « نعم وهو من حسناته في إعالة الفقراء »

فاستغربت دميانة قوله وقالت « ان تشييد هذا البناء يستغرق اموالاً طائلة وما برحنا نرى حكامنا يشكون الفقر ويحملون الرعايا الضرائب لسد عوزهم »

فقال « ان هذا المارستان يا سيدتي لم يبن من مال الرعية ولكن ابن طولون ظفر بكنز في هذه الصحراء فيه الف الف دينار بنى منها هذا المارستان شكراً لله ٠٠ على ان فضله ليس بالبناء وانما هو تعهده اياه بالاصلاح والترتيب والدقة في المعالجة ٠ فاقام فيه الاطباء وشرط انهُ اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند امين المارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش لهُ ويغدى عليه ويراح بالادوية والاغذية والاطباء حتى يبرأ ٠ وكان ابن طولون يذهب بنفسه في كل جمعة و يتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباء و ينظر الى المرضى وسائر الاعلاء والمحبوسين من المجانين ويعرض نفســه لخطر جنونهم وكثيراً ما تعرضوا له بالاذى حتى عدل عن الذهاب (١)

الفصل الثالث والعشرون

الموكب

وكانت دميانة تسمع مايقوله زكريا وعيناها شائعتان الى ميدان القصر لعلها ترى الموكب يتأهب للخروج أو عساها ترى سعيداً واقفاً او ماشياً فلم تره ٠ ولكنها رات الاعلام

(١) المقريزي ج ١

تخفق والرجال يجتمعون وفيهم الفرسان والمشاة على اختلاف الاجناس • وهما في ذلك سمعا قرع الطبول فصاح زكريا «هذا الموكب يترتب» واشار اليها ان تنظر الى باب السباع • فرات الناس يتزاحمون عنده والحرس يطردهم لتتفرغ الابواب لخروج ابن طولون وموكبه ونظرت دميانة الى ما حولها فرأت الناس في الطرق وعلى اسطحة المنازل يتزاحمون لمشاهد ذلك الموكب • اما هي فلم يكن يهمها من ذلك كله الا ان ترى حبيبها راكباً بجانب ابن طولون ليفرح قلبها فاثبتت نظرها بالباب وبعد برهة سمعت اصوات الطبول والابواق تقترب حتى خرج اصحابها من باب السباع مشاة والناس يوسعون لهم الطريق • ثم اطلت اعلام ابن طولون وخرجت من البابين الجانبيين يحملها رجال بالبسة خاصة • وظلت هي تحدق ببصرها في الباب الاوسط الذي تنتظر ان يخرج ابن طولون منه

ثم رأت طائفة من الغلمان يخرجون من البابين الجانبيين صفوفاً وعليهم افخر ما يكون من اللباس والعدة وفيهم جمال باهر وقامات طويلة وبأس شديد وعليهم اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة ولهم هيبة عظيمة • وكان زكريا يراقب ما يبدو من دميانة عند مشاهدة هؤلاء • فلما رأى دهشتها قال لها «اتعرفين هؤلاء ؟»

قالت «كنت عازمة على ان اسالك • • ولكنني خفت ان ألهو بسماع جوابك عن مرور الوالي»

قال «لا تخافي لم يأن خروجه بعد • واذا خرج فانه بين ايدينا • ان هؤلاء الغلمان كانوا لابن المدبر صاحب خراج مصر قبل مجيء ابن طولون ولهم حكاية لطيفة تدل على علو همة هذا الرجل • وذلك ان ابن طولون لما تولى ولاية مصر وجاء لاستلامها كان ابن المدبر صاحب الخراج عليها كما هو المادراني الآن • • • ولكن ابن المدبر كان شديداً على الناس وفيه دهاء فاحب ان يكتسب ثقة ابن طولون او يبتاع سكوته عن اعماله فلما علم بقدومه خرج للقائه • ثم بعث اليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فردها وكان قد شاهد هؤلاء الغلمان في خدمة ابن المدبر فطلب اليه ان يعوضه من الدنانير بهؤلاء الغلمان فلم يسعه الا الطاعة فسلمهم اليه واصبح من ذلك اليوم يخافه»

وكانت دميانة تسمع حديث زكريا وعيناها شاخصتان نحو الباب الاوسط واذا بالغلمان يتنافرون منه ثم اطل ابن طولون على فرسه وعليه لباس الامارة وقد تجلت الهيبة في محياه وبان التعقل في حركاته وهو مع ذلك يلتفت الى الناس ويبتسم وهم يترامون كفون للتبرك بطلعته ولا سيما العامة واهل الاسواق الذين يندر ان يشاهدوه

خرج ابن طولون من الباب وحده فاختلج قلب دميانة تطلعاً الى من يكون بعده واذا بفارس صغير السن عليه لباس فاخر وفي وجهه جمال باهر تتجلى عليه دلائل الصحة والقوة تحته فرس من جياد الخيل وفي ركابه غلامان عليهما ألبسة حمراء مزركشة قد شمرا سراويلهما عن سوقهما. وكانت دميانة تتوقع ان ترى سعيداً وراء ابن طولون فرأت هذا الفارس ولم تعرفه فسألت زكريا عنه فقال « هذا خمارويه بن احمد وهو احسن ابنائهِ واعزهم اليهِ ولا يغرنكِ صغره فانه شديد البأس ولوع بالصيد ولا سيما صيد السباع . ولا يسمع بسبع الاخرج اليهِ ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الاسد ويتناولونه بايديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضمونه في اقفاص من خشب محكمة الصنع يسع الواحد منها السبع وهو قائم . فاذا قدم خمارويه من الصيد سار الى القفص وفيه السبع بين يديهِ . وقد جمع في قصره عدة من السباع »[1]

ولما بلغ زكريا الى هنا لحظ ان دميانة لا تعيره التفاتها لان عينيها شائعتان نحو الباب. ولا تسل عن لهفتها لما رأت سعيداً مقبلاً على فرس تعودت ان تراه مقبلاً عليهِ في طاء الجمل وقد جاء بعد خمارويه بنحو مئتي ذراع فلم تتمالك ان قالت « سعيد ! هذا هو سعيد .. » ثم انتبهت لنفسها والتفتت الى حولها فلم تجد احداً غير زكريا فاطمأن خاطرها فقال لها زكريا « هذا هو سيدي البطل .. »

فقالت وعيناها تلمعان والفرح يطفح من قلبها « زكريا .. هل تجد بين هؤلاء الفرسان اجمل من سعيد أو اقرب منه الى القلب ؟ » ثم ندمت على هذه الخفة وتشاغلت بالمشاهدة وتتبعت مسير الموكب نحو المغافر حيث بنت العين. ولحظت بعد خروج الموكب من الميدان ومسيره في الصحراء ان ابن طولون أشار الى سعيد فاسرع اليهِ حتى حاذاه واخذا يتحادثان فكاد قلبها يطير من الفرح واحست كانها قبضت على السعادة بيدها

وكان زكريا يراقب ما يبدو منها ويفرح لفرحها وقلبه ينعطف اليها ويتمنى لها السعادة ولو بذل نفسه في سبيل ذلك . فلما رأى فرحها شاركها فيهِ لكنه لم يكن ممن يستسلمون لظواهر الامور وقد علمته الايام ان لا يفرح بالآمال الا بعد تحققها ولكنه ساير دميانة ووجه التفاته الى مسير الموكب نحو العين

ولم تكن دميانة ترى من ذلك الجمع غير سعيد تراعي حركاته وسكناته وتحسب الذين حوله اشباحاً لا اجسام لها . ولما تباعد الموكب عنها وقفت ووقف زكريا واخذا يتطاولان

(١) المقريزي ج ١

لمشاهدة مسير القوم فقالت دميانة « الى اين هم سائرون ؟ اني اراهم بعدوا كثيرًا »

قال « الى العين ياسيدتي »

قالت « اين هي ؟ اني لا اراها ولا اعرف محلها »

قال « الا ترين المغافر هناك ؟ »

قالت « اراها لكنني لا اثبتها لبهرجة اشعة الشمس على صخورها »

فتطاول بعنقه وتفرس في المكان وقال « ألا ترين تلك البقعة المرصفة بشكل مربع ان الاشعة تتلاعب عليها وتنعكس عنها »

قالت « نعم ارى البقعة وحولها الجماهير من الناس وقوف »

قال « هؤلاء جماهير العامة ينتظرون وصول الموكب ليروا الماء يجري ويفرحوا به او للتفرج بمشاهدة الموكب وما معه من الاعلام او سماع الطبول والابواق »

الفصل الثامن والعشرون

الانقلاب

وكان الموكب في اثناء ذلك قد اقترب من المغافر حتى اذا دنا من المصطبة حول العين تراجع الناس وتقدم ابن طولون وحده وترجل عند ذلك سعيد ومشى بين يديه يريه هندسة البناء وكيف يجري فيه الماء . فشاعت عينا دميانة لرؤيته وتعب بصرها من التحديق في اشعة الشمس . ولكنها كانت ترى ابن طولون يجول بفرسه على المصطبة وسعيد يظهر لها او يختفي وراء فرس ابن طولون

وهي في ذلك رأت ابن طولون هوى بجواده وسقط الى الارض فسقط قلبها معه وصاحت باعلى صوتها بغير انتباه « باسم المسيح . باسم العذراء » وخافت ان يقع الجواد على سعيد فيؤذيه على انها مالبثت ان رأت ابن طولون نهض وقد وقعت قلنسوته وتعفرت اثوابه . واذا هو أومأ الى الجند فتسارعوا الى سعيد وقبضوا عليه وشقوا ثيابه . وتناول احدهم سوطاً واخذ يضربه ضرباً متوالياً . فاحست دميانة كأن الضرب واقع على رأسها فلم تتمالك ان وقفت فجأة ولطمت وجهها بكفيها وهي تقول « ويلاه ما ذا يفعلون . . يضربون سعيداً . . ؟ آه ويلاه » واخذت فرائصها ترتعد ونسيت موقفها وتحقق زكريا انهم يضربون

سعيداً ولا فائدة من التكذيب فاخذ يخفف عنها ويغالطها وهي تقول « اني اراهم يضربونه واشعر كان ذلك الضرب واقع على قلبي .. ويل لهم لما ذا يضربونه ... أهذا جزاء المهارة ... »

فامسك زكريا يدها واجلسها وقال « تمهلي ياسيدتي ربما نرى الحقيقة ولابدّ لذلك من سبب كوني عاقلة صبورة مثل عهدي بك .. اصبري »

ولما فرغوا من ضربه رأتهم يشدون وثاقه ثم ساقوه الى المطبق وهي تنظر وقد جمد الدم في عروقها . على انها لما راته حيًا يمشي هدأ روعها وكانت تخاف ان يموت من الضرب وتقدم زكريا اليها ان تصبر ربما يبحث عن سبب هذه المعاملة . واكد لها انه طالما كان حيًا فالامل بانقاذه وطيد ثم استأذنها في الذهاب للبحث عن السبب فقالت « اذهب .. نعم اذهب »

ثم تراجعت وقالت « لا .. لا ابقى هنا وحدي فيأتي ذلك النذل .. لالا .. خذني معك .. ارجعني الى الدير .. انه ابقى لي من سائر المساكن .. » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاحس زكريا كان سهماً اخترق احشاءه ولكنه تظاهر بالاطمئنان وقال لها « لا ينبغي ان يغلب عليك اليأس الى هذا الحد .. »

وهو يقول ذلك ويهم بفتح الباب للخروج بدميانة سمع وقع خطوات تقترب نحو ذلك الباب فاضطربت دميانة عند سماعها لعلمها انها خطوات اسطفانوس واجفلت وتحولت وهي تود ان تلقي نفسها من نافذة تلك الغرفة ولا تواجه اسطفانوس لكنها تجلدت ووقفت جامدة كالصنم وهي تظهر انها تنظر الى السماء . وكان زكريا قد فتح الباب فدخل اسطفانوس وعلى وجهه دلائل السرعة والبغتة لكن البشر كان يتجلى فوقهما رغم ما حاول اظهاره من الاسف او الاستغراب . واحست دميانة عند رؤيته كانك طعنتها في صدرها وقرأت الشماتة والانتقام في عينيه وحول شفتيه فحولت وجهها نحو النافذة واسندت راسها على احدى الاساطين وجعلت تتلقى دموعها بمنديلها وتكتم البكاء

الفصل التاسع والعشرون

الشماتة

اما زكريا فاستقبل اسطفانوس بالتحية يريد ان يطلع منه على شيء جديد لعله يعلم اسباب ما شاهده من الغرائب . فتقدم اسطفانوس الى دميانة وهو يظهر التلطف ودار حتى يقابلها وجهاً لوجه فلما رآها تبكي اظهر استغرابه وقال « ما بال دميانة تبكي ؟ خيراً ان شاء الله .. هل تشعرين بالم ؟. هل تشكين من شيء ؟. قولي فاني طوع امرك ومهما اردت من علاج او ملطف فانه يحمل اليك .. »

فلم تزدد بهذا التلطف الا بكاء وحرقة لانها عدته نكاية وتشفياً فظلت ساكتة فتحول اسطفانوس نحو زكريا وقال « ما بالها . ؟ قل لي يا زكريا لان امرها يهمني كما تعلم .. اين المعلم مرقس .. ما هو سبب بكائها ؟ »

قال زكريا « لا اعلم السبب . وانما اعلم اننا ونحن نشاهد الموكب وجماهير الناس رايتها اطلقت دموعها وسألتها عن السبب فلم تجبني ... وكنا عازمين على الذهاب الى الدير لترتاح لعلها تعبت من طول الجلوس .. »

فالتفت اليها وهو يحك عثنونه وقال « اخشى ان تكوني شاهدت ما اصاب جارك المسكين فتكدرت عملاً بحق الجوار .. »

فلما سمعت دميانة عبارته المملوءة بالشماتة واللؤم همت بانتهاره وتوبيخه ولكن رغبتها في الاطلاع على السبب حملتها على السكوت فتظاهرت بانها لم تسمع شيئاً فقال زكريا « اي مسكين تعني يا سيدي ؟ »

قال « اعني جاركم سعيداً المهندس .. الم تشاهدوا ما فعلوه به ؟ »

قال « ... ماذا فعلوا ؟ »

فضحك وهو يختلس النظر الى دميانة يراعي ما يبدو منها وهي تتشاغل بمسح دموعها واصلاح ثيابها فقال « بعد ان كان الوالي عازماً على مكافأته بالجوائز والهبات امر بجلده خمسمائة سوط وساقوه الى المطبق مقيداً بالاغلال »

فاظهر زكريا انه لم يرَ شيئاً من ذلك وقال « ولماذا ؟ . ما هو سبب هذا الغضب »

قال « السبب انهم اكتشفوا على مكيدة دبرها لقتل ابن طولون .. »

قال زكريا « مكيدة ! واي مكيدة ؟ »

قال « بينما كان ابن طولون راكباً لمشاهدة بناء العين وصل جواده الى مكان يوهم الناظر انه مرصف فاقبل اليه ووقف عليه فاذا هو قصرية جير فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا وسقط راكبه في الجير فعلموا انه تعمد ذلك ليقتل ابن طولون فامر به فشقوا ثيابه وضربوه خمسمائة سوط ثم ساقوه مغلولاً الى المطبق ولا ندري ما يكون من امره في الغد »

فلما سمعت قوله بما فيه من لحن الشماتة لم تتمالك عن ان نظرت الى اسطفانوس وقالت « ان سعيداً لا يرتكب مثل هذه الخيانة ولا بد في الامر من خطاء »

فهز اسطفانوس كتفيه نحو الاعلى وقال « خطأ او غير خطأ لا اعلم وانما اعلم ان ذلك المسكين السيء الحظ . قد ضرب ٥٠٠ سوط وسيق الى المطبق واصبح الامل بحياته ضعيفاً .. بالحقيقة ان حالته تدمي القلب .. واذا كنت تبكين لحاله فلا الومك .... مسكين .. » قال ذلك وهو يهز راسه و يظهر الاسف

فلما علمت دميانة انه يتعمد الحط من قدر سعيد ويوهمها انه مسكين حزين تحول حزنها عليه الى تحمس له وهمت بانكار ذلك عليه فقالت « لا اراه في حاجة الى هذا التأسف فانه لا يلبث ان تظهر براءته فيعود الى الحظوي عند صاحب مصر . ولم يفعل ابن طولون ما فعله الا لغضبهِ الموقت »

قالت ذلك وهي ترتعد ولم تعد تستطيع صبراً على الوقوف ولا سماع ذلك الحديث فتحولت نحو الباب وتحول زكريا معها فقال اسطفانوس « هل اذهب لايصالك الى الدير؟ الا ترين الافضل ان تأتي معي الى منزلنا وهو اقرب من الدير ؟ »

فلم تجبه وظلت ماشية ومشى زكريا في أثرها واسطفانوس يتبعها ويقول « اظن دميانة تستطيل الطريق الى بيتنا وان كان قصيراً . ولكنني ارجو ان يقصر في عينيها وذلك خير لها من ان يكون طويلاً فتتعب في سلوكه اذ لا بد لها من الذهاب اليه » قال ذلك وضحك مستخفاً بغضبها ونفورها . فادركت انه يشير الى قرب زواجه بها فظلت ساكتة وهي تمشي وزكريا معها حتى خرجت من قبة الهواء فلقيت اباها عائداً فلما رآها تبكي علم سبب بكائها فاستوقفها فوقفت فسلمت عليه وهي تتظاهر بصداع في رأسها وانها تحتاج الى الراحة فقال « لا بأس عليك .. تعالي ننزل في بيت المعلم حنا انه اقرب من دير المعلقة .. »

فقال زكريا « يظهر انها ترتاح في ذلك الدير لاستئناسها بالراهبات » فوافقهما مرقس فانصرفا ودخل هو لملاقاة اسطفانوس فقص عليه ما دبره ودسه وان قصرية الجير انما وضعت هناك بمساعيه حتى وصل الى هذه النتيجة بالقبض على مناظره وزجه في السجن فهنأه مرقس بالفوز واخذا يفكران في تعيين وقت الاكليل لان دميانة لا بد من رجوعها الى رأي ابيها بعد ان يئست من سعيد

الفصل الثلاثون

الصلاة

وصلت دميانة الى الدير وسارت الى غرفتها لتبديل ثيابها ومكث زكريا ينتظر خروجها ليخفف عنها ويتواطأ معها على وسيلة للنجاة من الفخ . فما لبث ان رآها خرجت وسارت توًّا الى الكنيسة ــ مشت الى الصلاة ملجأ الحزانى وتعزية المنكوبين . اذا لم يكن في الصلاة غير هذه التعزية لكفى بها متسعاً لآمال المؤمن في ساعة ضيقه وحزنه . وقد صدق جمال الدين الافغاني اذ قال « ان الذين يسلبون العامة ايمانهم انما يحرمونهم من اكبر اسباب سعادتهم »

دخلت دميانة الكنيسة وجثت امام ايقونة العذراء وقلبها يتلوع حرقة مما قاسته في ذلك اليوم من النوائب . وأخذت تصلي بايمان وثيق وتتضرع الى صاحبة الايقونة ان تأخذ بيدها وتنجيها من الحبائل التي نصبوها لها . كانت تصلي ودموعها تتساقط على خديها فقرعت صدرها وتوسلت الى الله ان يحمي حبيبها وينقذه من مكائد الدساسين . وطلبت اليه ان يلهم اباها الصواب لعله يعدل عن اكراهها على الزوج باسطفانوس الى ان قالت « اللهم اني ضعيفة وهم اقوياء .. اللهم الهمني ما فيه مرضاتك .... اني لا احب اسطفانوس ... فهل في ذلك معصية ؟ اذا كنت تراني مخطئة حببه اليَّ وارني خطائي . ان سعيدًا رجل صالح فان كنت مخطئة ارنيه كما هو ... ابعده عن قلبي .. » وكانت تقول ذلك بحرارة وهي تشرق بدموعها وليس في الكنيسة احد يسمعها

وسكتت هنيهة وهي تتفحص ضميرها ثم قالت « ربي والهي اني لا ازال ارى سعيداً هو النصيب الذي اعددته لي . فان كان الامر كذلك انقذه مما وقع فيه .. انقذه اللهم

كما انفذت مخاريك .. غير قلب ابن طولون حتى ينصفه ... اتوسل اليك بدم ابنك الوحيد الذي تجسد من اجلنا .. اني فتاة مسكينة مظلومة مقصوصة الجناحين .. خذ بيدي .. الهمني ماذا اعمل .. كيف اتصرف انر طريقي اني لا اريد معصيتك ولا ابتغي الا رضاك .. » وسكتت وتشاغلت بمسح دموعها

ثم احست بارتياح عظيم كأن هاتفاً في داخلها يقول لها « لا تخافي يا دميانة ان الله لا يتركك» فنهضت ومسحت دموعها وتحولت عن الايقونة تطلب الخروج من الكنيسة فرأت زكريا واقفاً بالباب وقد اطرق وبان الحزن في وجهه فلما وقع نظرها عليه ابتسمت واشرق محياها وقد اطمأن بالها وذهبت احزانها

فادرك زكريا ان ذلك كله من ثمار الصلاة فتقدم اليها وهو يبتسم وقال لها « اتكلي على الله يا سيدتي وهو نصير المظلومين »

فمشت وهي تقول « وعلى من اتكل اذاً ؟ انه لا يتركني ولا يتخلى عني »

ثم سايرها زكريا في طريقها وهو يقول لها « اتريدين ان تصغي الى كلمة اقولها لك على انفراد ؟ »

قالت « نعم » ومشت الى غرفتها وكأن اهل الدير شعروا بوجوب تخليتها فلم تتعرض لها واحدة من الراهبات ولا الرئيسة . فلما وصلت غرفتها ادخلت زكريا وقالت « ماذا تريد »

قال « لا اريد شيئاً لا تعلمينه .. هل لك ثقة بي ؟ »

قالت « كيف لا .. وهل لي احد سواك يا زكريا ؟ انت في مقام الوالد والوالدة والاخ والاخت .. ان ما اشاهده من حنوك ومحبتك لي في هذا الضيق شاهد صريح على ان الله لم يتخل عني .. قل ما تشاء »

قال « ان اباك لا يلبث ان يأتي واظنه سيستعجل الزواج فاذا اظهرت له النفور والمقاومة ... »

فقطعت كلامه قائلة « وهل تريد ان اطاوعه ؟ »

قال « كلا ليس هذا ما اريده ولكنني اريد ان لا تصديه بعنف وانما خذيه باللين فاذا اطاعك والا فاسكتي وعليّ تدبير الباقي »

قالت « سافعل ذلك طاقتي »

وهمّ ان يتكلم وامسك نفسه كأنه تذكر شيئاً يمنع التصريح بما في ضميره . وكانت هي

تراعي حركاته فادركت تردده فاشتاقت الى الاطلاع على ما خطر له فقالت « ما بالك توقفت عن الكلام ؟ »

قال « لم اتوقف •• ولكن لكل امر وقتاً »

قالت « لا صبر لي على الانتظار اخبرني عما خطر لك لعله يخفف عني »

قال « نعم •• اني لم اطلب اليك السكوت والمماطلة الا ريثما يصلنا النصير »

قالت « وأي نصير •• من ينصرنا على هؤلاء ؟ »

قال « ينصرنا عليهم ابونا البطريرك •• أليس كذلك ؟ »

ففرحت بهذه الفكرة وقالت « وانى لنا الوصول اليهِ وهو بعيد ؟ »

قال « لا نعدم رسولا اليهِ وقد فعلت ولم آخذ الجواب ••• وسآخذه قريباً ••• والمراد انه لا ينبغي لك ان تيأسي »

فاشرق وجهها واطمأن بالها وقالت « سافعل بما اشرت »

قال « هل تطيعينني بكل ما اقوله وتذهبين معي الى حيث اريد ؟ »

قالت « نعم »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام عرفت دميانة انها اقدام والدها وتأكدت ذلك من صوت نحنحته فاجفلت فتركها زكريا في الغرفة وحدها وانصرف وهو يشجعها ويخفف عنها

الفصل الحادي والثلاثون

الاكليل

أما هي فجلست تنتظر وصول والدها فطال انتظارها ولم تعد تسمع صوته . فهمت بالنهوض واذا هي بالرئيسة قادمة نحوها فوقفت لها وحيتها فقالت الرئيسة « ان المعلم مرقس وسيدنا الاسقف انبا وسألاني عنك •• هنيئاً لك ما اكبر حظك من سيدنا فانه يحبكِ ويرعاكِ »

فلما سمعت ذلك احست بقشعريرة ارتعدت لها فرائصها وظهرت البغتة في وجهها وحدثتها نفسها ان ترفض المقابلة ولكنها تذكرت نصيحة زكريا فسكتت ولم تجب فعادت الرئيسة الى الكلام قائلة « أراك لم تعجبك بشارتي كانك لا تريدين ان تقابلي احداً منهما

واستميحك عذراً في كلمة اقولها هل تأذنين لي ؟ »

قالت « قولي »

قالت « لحظت امراً فيك لم يعجبني لعلي انك فتاة عاقلة تقية قد تفهمت كتاب الله وعرفت واجبات المسيحيين »

فاستغربت دميانة ما تسمعه منهـا ولم تفهم مرادها فقالت « ارشديني يا اماه الى الصواب »

قالت « الصواب يا دميانة ان لا تغضبي اباك لان الله يوصينا باكرام الوالدين »

فوقع قولها في نفسها وقوع النبل في الصدر لانها كانت كثيرة التقوى فاثر توبيخ الرئيسة فيها ثم تذكرت صلاتها في ذلك اليوم واقتناعها ان الله لا يريد ان تسلم نفسها لابيها فقالت « اني لم اغضب والدي وبماذا اغضبته ؟ »

قالت « قد علمت ذلك من قرائن الاحوال . علمت ان والدك يريد زواجك باحد ابناء الخاصة وانت ترفضين »

قالت « اتحسبين الفتاة التي ترفض الزواج عاصية ؟ »

فادركت الرئيسة انها تشير الى الرهبنة فقالت « الا اذا كانت تريد ان تنذر العفة وتنقطع عن العالم »

قالت « وما ادراك اني لا انوي ذلك . . لا يبعد ان انوبه عن قريب » ثم تذكرت قول زكريا فاستدركت وقالت « ومع ذلك ان هذه الامور لا تكون الا بالهام من الله والسيد المسيح فاذا اراد الله امراً لا مفر من ارادته »

فتوسمت الرئيسة من كلامها اللين فاكبت عليها وقبلتها وهي تقول « بارك الله فيك . هذا عهدي بتقواك وطيب عنصرك . . فالآن قد اتى والدك ومعه سيدنا الاسقف وهما في انتظارك بغرفتي . . قومي معي . قبلي يد الاسقف و يد والدك . . قومي »

قالت ذلك وامسكتها بيدها فاطاعتها ومشت والرئيسة تحسب نفسها قد اقنعتها

فلما دخلت عليهما تقدمت تواً الى يد الاسقف فقبلتها ثم قبلت يد والدها فقبلها مرقس وقد اطمأن خاطره ورحب بها و بالغ في اكرامها ودعاها الى جانبه وقال « اقعدي هنا يا دميانة يا ولدي »

فقعدت على الطنفسة بجانبه وهي مطرقة وقد صبغ الحياء وجهها فضلاً عن احمرار عينيها من البكاء ولذلك كانت تحجبها بالاطراق . ولما جلست خاطبها الاسقف قائلاً « لقد

سرني ياولدي ما عقدتم النية عليه ٠٠ وفي صباح الغد نأتي ان شاء الله لعقد الاكليل »

فاجفلت دميانة لهذه المفاجأة ولم تكن تتوقع ان تسمع هذه العبارة حالاً فبالغت في الاطراق وبان فيها الحياء ولم تجب فاستأنف الاسقف الكلام قائلاً « اني قد تعودت هذا السكوت في العرائس فانهن لا يجبن على كلامنا بغيره ٠ على اني لم اكن اتوقع منك غير الايجاب ولو بالسكوت فان من كانت في مثل ما انت فيه من التقوى وحسن التربية لا تستشار في امر يريده والدها ويتوسط به رئيس كنيستها ٠ ولكنني اجل قدرك واحب ان تكوني مسرورة من النصيب الذي اخترناه لك ٠٠ ويكفي ان تظهري رضاك بالسكوت »

وكانت دميانة تسمع كلامه وهي تكاد تتميز من الغيظ وارادت ان تستمهل الاكليل كما اشار عليها زكريا فلم تجسر على التكلم حياء وخوفاً وحدثتها نفسها ان ترفض بتاتاً وتكاشف اباها بذلك صريحاً فغلب عليها الخوف والحياء لانه لم يكن يشجعها على مثل ذلك من قبل ورأت من قرائن الاحوال ان كلامها لا يفيد شيئاً فتماسكت وظلت ساكتة فاتخذ والدها سكوتها دليلاً على القبول واعتقد قبولها لما علمه من مصير سعيد فتوهم انها لما قطعت الامل منه رضيت باسطفانوس فقال مخاطباً الاسقف « لم اكن اشك بطاعة دميانة لوالدها ولحضرة الاسقف ولكن بعض الناس كان يزين لها الباطل والظاهر انها رجعت الى الصواب ٠٠ وكل ذلك من تدبير العناية »

فقال الاسقف « ربما كانت دميانة تفضل ان تقام الافراح في بيت والدها ولكنها ستقام هناك ايضاً وانما اردنا عقد الاكليل هنا في هذه الكنيسة لما لها من الكرامة الخصوصية واحب ان اتولى عقد ذلك بنفسي اكراماً لمقام العريس ٠ فغداً ان شاء الله نأتي وارجو ان يكون عملنا مباركاً » قال ذلك ووقف فوقف مرقس احتفاء به ووقفت دميانة فقال لها ابوها « قبلي يد الاسقف واشكر به على تعبه وعنايته في هذا الامر »

فقبلت يده فقبل رأسها وخرج وخرجت الرئيسة لوداعه مع مرقس ثم عادت وهي تضحك ضحك الفوز بما كانت تتمناه وضمت دميانة الى صدرها وقالت « يظهر ان كلامي اثر فيك »

وكان والدها قد رجع من وداع الاسقف فقال لدميانة « بورك فيك يا بنية ٠٠ ذلك كان عهدي بك من اول الامر فانا الآن ذاهب لاعداد ما يلزم للاحتفال وفي صباح الغد اعود اليك ونفرح معاً » قال ذلك وخرج

الفصل الثاني والثلاثون

اين دميانة

فلما خلت بنفسها اخذت تفكر بما سمعته وكانت تتوقع ان ترى زكريا بين يديها لتقص عليه ما جرى فلم تجده فقضت بقية ذلك اليوم في انتظاره

اما مرقس فانهُ سار توًّا الى اسطفانوس واخبره بقبول دميانة .. فاعتقد انها لم تقبل به الا بعد يأسها من سعيد فعزم على الانتقام منها لاستخفافها به وهو يرى ذلك هينًا بعد ان تصبح في عصمته ولم يكن يثنيه عن اتيانه مروءة او اريحية فانَّ هذه السجايا لا معنى لها في اعتباره لكنه اشترك مع مرقس في اعداد معدات الفرح من الشموع والزهور وغيرها وارسلوها الى الدير

واخذت رئيسة الدير في تهيئة ما يلزم لتزيين العروس في الصباح وبات اهل الدير على ان يصبحوا في اليوم التالي لحضور الاكليل وسماع الترانيم

وكان اكثرهن رغبة في ذلك الرئيسة لانها كانت تحب دميانة وتعتبر نفسها بمنزلة والدتها وخصوصًا بعد ان نصحتها تلك النصيحة وتصورت انها اصغت لقولها وعدت ذلك احترامًا لها .

فلما طلع النهار مشت الى غرفة دميانة لتدعوها الى الاستعداد وتريها ما حملوه اليها من مواد الزينة فرأت باب الغرفة لا يزال مغلقًا فقرعته فلم يجب احد فظنتها لا تزال نائمة فرجعت وفكرت في هل تتركها حتى تستيقظ من نفسها ثم رأت الوقت لا يأذن بذلك . فعادت وقرعت الباب ثانية فلم تسمع جوابًا فوقفت تفكر واذا بالمعلم مرقس قادم فسألها عن دميانة فقالت « لا تزال نائمة »

فتقدم الى الباب وفتحه ودخل فدخلت الرئيسة معهُ فلم يجدا في الغرفة احدًا ولم يجدا في الفراش ما يدل انها نامت فيهِ تلك الليلة فقال مرقس « يظهر انها لم تنم هنا .. فلعلها نامت في غرفة اخرى »

فقالت الرئيسة « هذه غرفتها تنام فيها منذ آنستنا فربما غيرتها الليلة » قالت ذلك ومشت الى غرفة اخرى كانت تجلس فيها في بعض النهار فلم تجدها . فاخذت تسأل عنها الراهبات وهن يفتشن معها حتى ضج اهل الدير وهم يفتشون و يسألون فلم يقفوا لها على اثر

وسألوا الخدم عن زكريا فقالوا انهم لم يروه من مساء الامس فاستقدموا البواب وسألوه فقال «ان السيدة دميانة خرجت في مساء الامس الى كنيسة ابي مرجة لان عليها نذرًا لها قد آن وفاؤه — خرجت ومعها خادمها»

فصدقت الرئيسة ذلك لسلامة نيتها وظنت النذر يتعلق بزواجها ولم تبق فرصة لتأجيل وفائه . اما مرقس فلما سمع ذلك رجع الى الغرفة وفتش في ثياب ابنته واشيائها فرآها قد اخذت ما خف حمله وتركت ما تستغني عنه فقال « انها قد هربت مع ذلك النوبي اللعين انه عاد فاغراها على الفرار . . ولكن الى اين يفرّان ان الفسطاط وبابلون والقطائع في قبضة اسطفانوس وابيه »

فقالت الرئيسة « لا تعجل يا سيدي لعلها ذهبت الى كنيسة ابي مرجه حقيقة . ان الكنيسة على مسافة قصيرة من هنا فلنسأل عنها»

قال « اسألي اذا شئت . . ولكنني على يقين من فرارها . . واذا كانت ذهبت لزيارة ووفاء نذر فهل تأخذ معها ثيابها ومصاغها وهل تبيت هناك وتبقى حتى الآن وقد دخلنا في الضحى ؟ . ان ذلك النوبي اللعين اغراها على الفرار . . ولكن . . » قال ذلك وهو يهزّ رأسه ويتوعد وخرج توًّا يلتمس اسطفانوس فالتقيا بالباب وكان قادمًا للاشتراك في معدات العرس فقص عليه ما جرى وختم قوله بالنقمة على زكريا لانه اغراها . فاجابه اسطفانوس « لا تحمل الذنب لذلك النوبي . . انها ما زالت كما اعهدها . . ولكنني سأعلمها من هو اسطفانوس وسأعلم خادمها الاسود ايضًا — دعني اذهب لتدبير ذلك . . » وخرج

وخرج مرقس معه فسارا توًّا الى القطائع واشتكيا الى صاحب الشرطة ان خادمًا سرق ابنة المعلم اسطفانوس وفرَّ بها وطلبا من يفتش عنها في الديور او المنازل او الكنائس . ونظرًا لمقام يوحنا والد اسطفانوس في الدولة اجاب صاحب الشرطة طلبه فبث الرجال في انحاء الفسطاط ولا سيما في احياء النصارى لاعتقادهم ان الفارين لا يجدان ملجأ في غير الديور او الكنائس او بعض مساكن القبط من الاهل او الاصدقاء

فاصبح الاقباط في ذلك اليوم وهم يرون الجند وغير الجند يدخلون منازلهم للتفتيش عن الهاربين واكثرهم يتخذون تلك الحجة ذريعة لدخول المنازل او الكنائس او الديور وينهبون ما تصل اليه ايديهم من المال او غيره . فضج الناس وعلا الصياح واخذ القوم يتساءلون هل عاد زمن الظلم والاضطهاد زمن النهب والقتل وكانوا يحسبون ابن طولون كفاهم مؤونة ذلك ونشر الراحة والطمأنينة في ربوعهم وامنهم على ارواحهم واموالهم

ولم يقنعهم ما كان يقوله الشرطة من انهم يفتشون عن سارق هرب واختبأ فانهم كثيراً ما كانوا يقاسون الاضطهاد والنهب بهذه الحجة

وكان مرقس واسطفانوس يرافقان الشرطة الى بعض الاماكن القريبة التي يرجحان التجاء دميانة اليها ويحرضان الجند على التفتيش وهؤلاء لا يبالون بغير النهب فقاسى الاقباط في الفسطاط وبابلون وضواحيهما من العذاب والاضطهاد والخوف ما لم يقاسوه منذ عهد بعيد . فوقع الرعب في قلوب الناس وركب بعض وجوههم الى ابن طولون يشكون اليهِ ما اصابهم فغضب وبعث الى صاحب الشرطة ان يرجع رجاله عن التعدي ففعل ولكن بعد ان نالوا ما يريدون ولم يقفوا للهاربين على اثر

الفصل الثالث والثلاثون

حلوان

اما دميانة فكانت قد فرت مع زكريا الى مكان اعده لها في اثناء غيابه عنها في اصيل الامس . وذلك انه لما رأى والدها والاسقف قد اخذا في مخاطبتها علم انهما اتيا لاتمام امر الاكليل فسار الى صديق لهُ من اهل بلده كان قد اعتنق الاسلام واقام بجوار المسجد الذي كان قد بناه ابن طولون على المقطم قبل بناء مسجده المشهور وكان يثق به وانما اختار ذلك المكان لبعده ولعلمهِ ان الشرطة لا تبحث عنهما في المسجد . وعاد الى دميانة في المساء واخبرها أن الفرار لا بدَّ منهُ فاستخرجت اعز مالديها وخرجا في العشاء من الدير بحجة زيارة ابي سرجه كما تقدم وكان قد اعدَّ فرساً لدميانة وركب هو على حمار حتى اذا خرجا من المحلة البسها عباءة وجعل على رأسها شبه عمامة بما يجعلها تظهر بمظهر الرجال وساق حماره أمامها حتى نزلا المكان المعهود فلاقاهما صاحبهُ بالترحاب

وباتا هناك وفي الصباح لبثا ينتظران ما يكون فما عتم ان سمعا بقيامة الجند على البلد وان المسلمين دخلوا منازل النصارى بحجة التفتيش عن ضائع أو هارب وانما يريدون النهب ومنهم من صدق دعوى الجند ومنهم من ظنها ذريعة للنهب . واطلَّ زكريا من بعض الاماكن على الطرق فرأى الجند يدخلون البيوت بالقوة فخاف ان يصل احد الى مقره فرأى من الحكمة ابداله

وكان له صديق عربي في حلوان اسمه قمدان اصله من اهل البادية يقيم في منزل وهبه عبد العزيز بن مروان لاجداده منذ وجه عنايته الى تعمير تلك البلدة في أثناء امارته على مصر • وانتقل ذلك المنزل في اعقابه الى رجل عرفه زكريا من سنين عديدة وله معه صداقة وثيقة العرى فرأى ان يلجأ اليه ولا سيما لانه يقيم مع عائلة فيها امه وامرأته فتستأنس دميانة بهما واذا غاب عنها في مهمة كان مطمئن الخاطر عليها • وفي صباح اليوم التالي ودع صاحبه وركب مع دميانة الى حلوان بطريق الصحراء وهما في الطريق قالت دميانة «تراني يا زكريا قد سلمتك قيادي اذهب معك الى حيث تريد لا اسالك عن السبب ••»

قال «كوني على ثقة يا سيدتي اني اتفانى في سبيل راحتك ولا تجزعي فاني ساع في كل ما يرضيك»

قالت «الى اين نحن ذاهبون الآن ؟»

قال «الى حلوان ••• وهو بلد طيب الهواء بعيد عن مظان الباحثين وسترين هناك عائلة تستأنسين بها وترتاحين اليها فانها عربية بدوية»

قالت «وبعد ذلك»

قال «بعد ذلك ••• ؟» واطرق ثم قال «ان الفرج سيأتينا ولا بد من انتظاره • ولا بد لي في كل حال من الغياب عنك يوماً أو يومين لامر لا بد لي من قضائه ثم اعود اليك وعساي ان ابشرك بالفرج بعد قليل»

قالت «تتركني •• وتغيب عني يومين ؟»

قال «لا مندوحة لي عن ذلك لاني ذاهب في مهمة عليها يتوقف نجاحنا وبها نتغلب على اعدائنا ولا باس عليك ان كنت عند اصحابنا في حلوان ••»

فسكتت وبعد قليل اطلوا على حلوان ولم يكن فيها الا بيوت قليلة فيمما مضرباً على اكمة حوله حديقة فترجل زكريا ومشى نحو الخيمة وقبل وصوله كان صاحبه قد شعر بقدومه من نباح الكلاب فخرج اليه ولما تبينه بالغ في الترحيب به • فقال له «نحن مسافرون الى الصعيد واحببنا التعريج عليكم لاني اشتقت لرؤيتك ومعي سيدة انا ذاهب في خدمتها فنبيت عندكم الليلة ثم ننصرف»

فصاح الرجل باولاده ان ينزلوا الضيفين وقال «بل تقيمان عندنا اياماً»

ونزلت دميانة فرحبت بها امرأة الرجل وحيتها واستأنست بها ولا تسل عن ضيافة العرب وحسن وفادتهم • وكانوا يكلمونها بالعربية وتكلمهم بها على ضعف • وفي اليوم

التالي اظهر زكريا انه عازم على الذهاب في مهمة مستعجلة وتقدم الى صاحب المنزل واوصاه بدميانة فقال « نفديها بارواحنا فهي الآن صاحبة المنزل ونحن اضيافها ..»

وقبل ذهابه اختلى بدميانة واخبرها انه ذاهب في مهمة لابد منها ويعود بعد يومين او ثلاثة وسالها هل استأنست باهل المنزل فقالت « لم اكن اظن العرب على هذه الاخلاق اذ لم اكن اسمع الا انتقاد اعمالهم معنا بالنهب والسلب فاذا هم اهل كرم ولطف »

فقال « ان العربي يا مولاتي اذا نزلت داره اصبح مجبوراً بحكم العادة المتبعة عندهم ان يدافع عنك بنفسه واهله ويفديك بروحه وهو ما يسمونه في اصطلاحهم حق الجوار . وهل تظنين اذا اتى جند ابن طولون كلهم يقدرون ان ياخذوك او ياخذوني من عنده وهو حيّ ؟ .. انه لا يزال يقاتل عنا حتى يموت او ينقذنا .. اقول ذلك لازيدك طمأنينة فانت في هذا الخباء آمن منك في حصن حصين فاسمحي لي بالذهاب وساعود قريباً »

ورغم ما سمعته من بواعث الطمأنينة حالما تحققت عزمه على الذهاب انقبضت نفسها فاخذ يشجعها ويعتذر عن اضطراره الى الذهاب الى ان قال « وعلى غيابي هذا تتوقف سعادتك في المستقبل وبه اغلب اعداءنا »

فقالت « اذا لم يكن بدٌّ من ذلك فافعل .. اطلب الى الله ان يكون معك والسيد المسيح يحرسك ويوفقك »

الفصل الرابع والثلاثون

السر المهم

فودعها وخرج واحست بعد خروجه بانفرادها هناك وتذكرت والدها وبيتها وكيف اصبحت طريدة شريدة بعد ان كانت ربة منزلها في طاء النمل وحولها الخدم والحشم .. واصبحت لا تعلم هل تعود الى تلك الدار ام لا . على ان قعدان واهل بيته لم يتركوا لها فرصة للاستيحاش فكانوا يبذلون وسعهم في سبيل راحتها صغيرهم وكبيرهم

اما زكريا فانه تنكر وركب حماراً حتى اذا بعد عن الفسطاط ركب زورقاً وسار يلتمس طاء النمل وفضل ركوب الزورق لسرعة جريه مع تيار النيل . فلما اشرف على القرية لبس ثيابه ونزل يلتمس بيت المعلم مرقس كانه قادم من قبله في مهمة خصوصية وكان اذا دخل المنزل لا يجسر احد من اهله ان يساله عما يريده لانطلاق يده في شؤون

البيت « فلقيه الخدم والنساء فسألوه عن المعلم مرقس فاخبرهم انه مقيم في الفسطاط يقضي مع دميانة اياماً ثم دخل غرفة خصوصية يعرفها واقفل بابها وفتح صندوقاً استخرج منه انبوباً من الفضة مختوماً هزه حتى تحقق ان مايعهده في داخله لايزال فيه ثم خباءه في جيبه وخرج

وهو خارج مرّ بيت ابي الحسن فوجده خارجاً من منزله ليتمشى في الحديقة على جاري عادته وآنس في وجهه انقباضاً فعلم سبب انقباضه ولم يكن يشك انه كان في جملة الذين شهدوا الاحتفال بالامس وانه شاهد ما اصاب سعيداً وهو يعلم انه بمنزلة ولده فتقدم نحوه فلما رآه ابو الحسن تحول اليه فتقدم زكريا وهم بتقبيل يده فمنعه ورحب به وساله اذا كان مولاه اتى معه فقال « كلا ياسيدي انه لايزال في الفسطاط اظنك كنت هناك »

فهز ابو الحسن راسه بمرارة وقال « نعم كنت هناك وقد رجعت البارحة »

قال « فاذاً شاهدت ما اصاب سعيداً »

قال « نعم شاهدت ذلك المنظر المؤلم . . ولكنهم سوف يندمون »

ففرح زكريا بتلك البشارة لعلمه ان ابا الحسن لا يقول جزافاً فقال « صحيح ؟ . بشرك الله بالخير »

قال « نعم انهم سيندمون لانهم لا يجدون من يغنيهم عن سعيد . . اذ ليس في هذه البلاد من يعرف معرفته بالهندسة »

قال « ولكنهم ساقوه الى السجن »

قال « ليس السجن عاراً على الرجال . . انهم لا يلبثون ان يخرجوه مكرماً معززاً »

قال « وكيف ذلك ومتى ؟ »

فتقدم نحوه وهو يقول « ان ابن طولون عازم على بناء جامع كبير في القطائع ولن يجد من يحسن هندسته غير سعيد »

فقال « وهل يعرف ابن طولون ذلك ؟ »

قال « لا يلبث ان يعرفه متى احتاج اليه »

فاطرق زكريا كأنه فتح عليه باب الفرج ثم ودع ابا الحسن وانصرف الى فرس من افراس مرقس ركبه وطلب الفسطاط فلما اطل عليها ترك الفرس في خان وحدثته نفسه ان يسير تواً الى حلوان لمشاهدة دميانة لكنه احب ان يتمم ما جال في خاطره اولاً ثم يعود اليها بالبشارة

الفصل الخامس والثلاثون

صدقات ابن طولون

تنكر زكريا بلباس الفقراء المتسولين ومشى الى القطائع واتفق وصوله الى قصر ابن طولون في ساعة تفريق الصدقات

وكان لابن طولون في الاحسان يوم مشهور يعرف بيوم الصدقة تفتح به ابواب القصر كلها لايمنع داخل ولا يرد سائل . وكانت صدقاته على اهل الستر وعلى الضعفاء والفقراء واهل التجمل متواترة • وكان راتبه لذلك في كل شهر الفي دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم • وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع • على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر • وكانت تعمل في داره وينادى .ن أحب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب فتدخل الناس الميدان وابن طولون في مجلسه الذي يشرف منه على الناس فينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون او يحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته • ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطغان وكان على صدقاته « أيد الله الامير انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم » فقال « يا هذا كل من مدّ يده اليك فاعطه فهذه هي الطبقة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف فاحذر ان ترد يداً امتدت اليك وأعط كل من يطلب منك » (١)

فلما وصل زكريا الى ذلك المكان رأى ابن طولون قاعداً في المجلس المشار اليه بقلنسوته وقبائه على وسادة وقد تهلل وجهه سروراً بما يشاهده من آثار نعمته على الناس • وكان زكريا عازماً على ان يطلب مقابلته ويخاطبه راساً فعلم ان لاسبيل الى مقابلته في تلك الساعة فأجل ذلك الى الغد • وخوفاً من وقوع الشبهة عليه تقدم في جملة طلاب الصدقة فمدّ يده فنال حظه فاكل وهو كيفما تحرك يتفقد الانبوبة وكان قد علقها بحبل في عنقه

(١) المقريزي ٣١٦ ج ١

ودسها داخل اثوابه تحت ذراعه

وهو في ذلك راى الناس يومئون الى مجلس الوالي فنظر فاذا هم يشيرون الى رجل دخل عليه عرف من لباسه وقيافته انه المعلم حنا كاتب المادراني ورآه يحمل بيده درجاً ملفوفاً بمنديل من الحرير فاهتم ابن طولون لدخوله وانصرف بكليته اليه وامرهُ ان يقعد على وسادة بجانبه فقعد متأدباً واستأذنه في اطلاعه على الدرج فرضي . فحله وبسطه واخذا يتحادثان ويتناقشان على ما يحويه الدرج ولحظ زكريا ان الكاتب يحاول اقناع ابن طولون بشيء مخطوط في الدرج وهو لا يقتنع . واخيراً حوّل احمد وجهه عن الكاتب وانصرف الى مشاهدة الجماهير ولسان حاله يقول « هذا لا يعجبني والسلام »

ولم يستطع زكريا مشاهدة ما على الدرج لاحتجابه عن بصره فاصبح في شوق الى استطلاع ذلك واذا بالناس يوسعون لقادم يطلب الخروج من القصر فتنحى والتفت فراى المعلم حنا خارجاً وبجانبه ابنه اسطفانوس قد تأبط اللفافة ومشيا فبقت زكريا لرؤية اسطفانوس ولكنه بالغ في التفكر واقتص اثرهما خلسة لعله يسمع كلمة . حتى اذا اتيا منفرجاً من الطريق افترقا والكاتب يقول لابنه « ماذا نعمل له ؟ لا اظن في الدنيا احداً يستطيع اجابة طلبه — جامع بلا اعمدة ؟ هذا امر غريب »

فقال اسطفانوس « هو يريد ان يبني جامعاً بلا اساطين ؟ »

قال « نعم وقد استشرت امهر المهندسين الموجودين في الفسطاط ومنهم من تعلم في القسطنطينية او تخرج في بغداد وقد شهد الناس لهم بالمهارة . وهذه الخريطة عليها رسم جامع في اجمل ما بلغ اليه امكانهم فلم يعجبه فانه يريد ان يكون جامعة بلا اساطين »

فقال اسطفانوس « ولماذا ؟ . لماذا لم يفعل كما فعل عمرو بن العاص ببناء جامعه ؟ . »

فقطع حنا كلامه قائلاً « ان والبناء عمد الى هذه الطريقة حتى يتجنب ما وقع فيه عمرو »

فهز اسطفانوس رأسه وظل ماشياً في طريقه ورجع زكريا الى موقفه وقد فتح عليه باب الفرج وادرك الطريق الذي يمكن الوصول به الى انقاذ سعيد وعادت اليه هواجسه وعاد الى الامر الهام الذي جاء من اجله وتذكر دميانة ولهفتها الى رجوعه فافتقد الانبوب فوجده في مكانه فاطمأن باله لعلمه ان دميانة مهما بلغ من قلقها واضطرابها في هذا الانبوب ما يخفف عنها . وشغل خاطره من الجهة الاخرى بمن كان يزاحمه من وفود المتسولين واهل العوز على تفاوت طبقاتهم

الفصل السادس والثلاثون

النظر في المظالم

حتى اذا انقضى وقت الصدقة وقد آذنت الشمس بالمغيب اقفلت الابواب وتحوّل ابن طولون عن مجلسه فانصرف زكريا الى الخانات فيه وبكر في الصباح التالي . وخوفاً من ان يراه اسطفانوس مرة ثانية بلباس الغد فيعرفه تنكر بلباس نوبي قادم من سفر ويشكو من فكه الاسفل فربطه رباطاً كالخمار يحجب معظم راسه . والتف بشملة من نسيج القطن الابيض المعروف عندهم بالدمور ومشى حافياً مشية غريب بدهشه كل شيء حتى اتى باب القصر فسأل الحراس الوقوف به عن الوالي اين يكون فقال لهُ احدهم « انه لا يتعاطى اليوم غير النظر في المظالم »

ولم يكن زكريا يعرف تلك العادة لان ابن طولون اول من نظر في المظالم من امراء مصر (١) ولم يكن زكريا يفهم المراد من المظالم والنظر فيها فاستفهم الحرسي قائلاً « ومامعنى هذا العمل عندكم »

فقال الحرسي « يظهر من لباسك وقيافتك انك غريب الديار فلا عجب اذا كنت لا تعرف معنى هذا العمل .. اعلم يا صاحبي ان مولانا الامير نظرًا لرغبته في المحافظة على حقوق رعيته وخوفاً من ان يتعدى احد من عماله او كتابه او رجال حكومته على احد الناس فيظلمهُ او يؤذيه قد خصص حفظه الله يومين في الاسبوع لسماع شكوى المتظلمين بنفسه وانصافهم »

فدهش زكريا لسماع ذلك ولم يكن سمع بمثله في مصر ولا في غيرها وكان الحرسي يخاطبه وينظر اليهِ وهو يتوقع استغرابه واعجابه فلما رأى دهشتهُ استطرد الكلام قائلاً « اراك تستغرب هذه المنقبة في اميرنا ولا عجب في استغرابك لانكم لا تعرفون مثلها في بلادكم فانها من حسنات الاسلام حتى لا يظلم احدٌ استظل به »

ففطن زكريا لاسطفانوس وما اتاه من الاذى لدميانة فقال في نفسه « هل اشكيهِ لابن طولون ؟ » لكنه خاف وتردد ورجع الى الغرض الذي جاء بهِ ولم يعد يرى تأجيل مقابلة ابن طولون فعزم على ان يدخل عليه في جملة المتظلمين ثم يحتال في مخاطبته بشان

(١) المقريزي ٢٠٧ ج ٢

سعيد وبناء الجامع

فسأل الحرمي عن المكان الذى يجلس فيه الوالي للنظر في المظالم فاوموا الى باب عنده الحجاب وقد تكاكأ الناس حولهم وهم يدخلونهم بالتدريج فتقدم زكريا ووقف في جملة الواقفين وصبر حتى انصرف اكثر الناس فطلب الدخول فاذن له فدخل وعليه قيافة البداوة فاطل على مجلس ابن طولون في قاعة مفروشة بالطنافس في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه ابن طولون وبجانبه قاضيه بكار بن قتيبة وبين يديه قصص المتظلمين (العرائض) وقد تصفحها ابن طولون ودفعها الى قاضيه ليحكم فيها او ينفذها

فلما دخل زكريا سأله الحاجب عن قصته ليدفعها الى الوالي ينظر فيها فقال «لم اكتب شيئاً وانما اريد ان اعرض ظلامتي شفاهاً للوالي رأساً بعد فراغه من النظر في قصص سائر المتظلمين»

فرفع الحاجب ذلك الى ابن طولون فقال له «اجلسه ريثما نفرغ من عملنا»

فقعد زكريا وهو ينظر في ذلك العمل ويعجب بما فيه من العدل والانصاف حتى اذا فرغ ابن طولون من تصفح القصص صاح بزكريا «ما هي ظلامتك يا اخا النوبة ؟»

فوقف زكريا وقال «لا اقول ظلامتي الا في خلوة مع مولاي»

وكان زكريا في تنكره يظهر انه لا يعرف العربية الا قليلاً . ولو تكلمها جيداً لما صدقوا انه آت من النوبة لان المسلمين لم يكونوا قد انتشروا في النوبة ولا دخلها الاسلام فكان يدخل كلامه بعض الالفاظ من لغة النوبة (البربري) ولكنه كان يحسن التعبير بحيث يفهم ابن طولون مراده

فلما سمعه يطلب الخلوة اشار الى القاضي وكان قد فرغ من عمله فخرج ولبث ابن طولون وحده فتقدم زكريا ووقف بين يديه متادباً فاشار اليه ان يقعد فقعد وازاح الخمار عن رأسه فلم يظهر فيه عاهة كما كان يظن من يراه مخمراً وابن طولون ينظر اليه وينتظر ما يقوله . واستبطأه فقال له «ممن تتظلم يا رجل ؟»

فقال «اقول ولا باس عليَّ ؟»

قال «قل .. انك على بساط الوالي ولي امير المؤمنين ومهما يكن من ظلامتك فانك تُنصف ... قل ممن تتظلم ؟»

قال «من احمد بن طولون ولي امير المؤمنين ونائبه على مصر»

فبغت ابن طولون وقال «مني ؟»

قال « نعم يا مولاي .. فاذا كنت قد تجاوزت حدي بالتظلم منك فانا بين يديك افعل بي ما تشاء »

قال « كلاَّ فان لك الحرية ان تتظلم ممن شئت .. ولكنني استغربت تظلمك مني وانا واثق ببراءتي »

قال « رب ذنب لا يعرفه صاحبه »

قال « قل .. افصح ما هي ظلامتك فاني لا اعرفك ولا اذكر اني رأيتك قبل الآن »

قال « ولا انا اتظلم لنفسي يا سيدي وانما جئت الى مولاي الامير ارفع اليهِ ظلامة رجل لم يكلفني ان اتظلم عنه ولكنني فعلت ذلك رغبة في مصلحة صاحب هذا البلد »

قال « لم افهم مرادك فافصح . من تعني ؟ »

قال « اعني الرجل الذي حكمت عليه بالجلد والحبس بعد ان بنى لك العين واجرى فيها الماء ... »

قال « الفرغاني ؟ الذي اوشك ان يقتلني بجهالتهِ ؟ »

قال « وهل تعني انه يجهل هندسة البناء ؟ »

قال « طبعاً ... ان سقوطي عن جوادي انما كان من الخلل الذي سببه جهلهُ في فن الهندسة .. »

قال « ليس في هذا البلد من يقاربه في هذا الفن يا مولاي . ولكن قصرية الجير التي تعس بها جوادك انما تركت هناك لتعاسة حظه او لعل لها سبباً آخر . وقد يكون بعض اعدائه وشوا بهِ اليك فاغروك على اذاه — وانما اتكلم عن مهارته في الهندسة . . ليس في هذا البلد من يقاربه فيها ولا الروم الآتون من القسطنطينية ولا الفرس ولا غيرهم »

فاستغرب ابن طولون دفاع هذا النوبي عن ذلك القبطي ولم يعتدَّ بهِ فقال « وما الذي حملك على رفع هذه الظلامة الينا وانت تقول ان صاحبها لم يكلفك ؟ »

قال « حملني على ذلك رغبتي في انقاذ مولانا من مشكل وقع فيهِ ولم يستطع احدٌ ان ينقذهُ منهُ وان كان كلامي ثقيلاً عليهِ فاني انصرف حالاً »

فانتبه ابن طولون انهُ يعني الجامع الذي يريد بناءه ولكنهُ تجاهل وقال « واي مشكل تعني ؟ »

قال « اعني البناء الذي انت عازم على انشائه ولم تجد من يستطيع رسمهُ لك على

الشكل الذي تريده »

قال « وهل يستطيع صاحبك ان يفعل ذلك . ؟ انهُ لا يستطيعه »

قال « لا اظنه يعجز عنه وما هو طلبك يامولاي ؟ »

قال « اني اريد ان ابني جامعاً بلا اساطين ... هل يستطيع ذلك ؟ »

قال « لم اساله .. ولكنني احسبه يقدر » واستدرك زكريا قوله مخافة ان لا يكون سعيد قادراً فيعود الغضب على كليهما فاراد ان يثني ابن طولون عن عزمه من حيث الاساطين فاستانف الكلام قائلاً « وهل خلوه من الاساطين شرط لازم – كأن مولاي لا يرى في الاساطين جمالاً على الاشكال التي وضعوها بها في جامع عمرو . فاذا كان هذا سبب عدوله عن الاساطين انا اضمن ان سعيداً يجعل وضعها على شكل بديع .. »

فاشار ابن طولون بسبابته اشارة الانكار وهو يهز رأسه وقال « ليس هذا هو السبب في رغبتي عن الاساطين ... وقد رأيت فيك نباهة وغيرة فاخبرك ان سبب ذلك انما هو رفقي باهل الذمة من سكان هذا البلد . لاني لما عزمت على بنائه سالت المهندسين عما يحتاج اليه من الاعمدة فقدروا له ٣٠٠ عمود فهذه لا اقدر اجدها في غير الكنائس .. فاذا فعلت فاني استنفد اعمدة الكنائس في الارياف والضياع(١) وهذا ظلم لا ارضاه واحسبه لا يرضي الله . وانا احب ان ابني مسجداً لا يشوب بناءه ظلم .. وقد تعذب قلبي في هذا الامر فلم اجد وسيلة الا ان اجعل هذا الجامع بدون اعمدة فلم اجد في مصر من يقدر على بنائه بدونها .. »

فتبسم زكريا وقال « هل سالت سعيداً السجين في المطبق ؟ »

قال « كلا ... انهُ ذهب من فكري .. هل تظنه يقدر على هذا الامر ؟ »

قال « اظنه يقدر .. ومع ذلك فما على مولاي الا ان يامر باحضاره ويساله ويرى ما يقول »

فصفق ابن طولون فدخل غلام فقال له « قل لصاحب المطبق ان ياتيني بالنصراني المهندس انه مسجون عنده ... ادخلوه عليّ الساعة »

---

(١) المقريزي ٣٦٥ ج ٢

الفصل السابع والثلاثون

جامع ابن طولون

فاشار الغلام مطيعاً ومضى ووقع زكريا في حيرة وهو يخاف ان يخيب ظنهُ في سعيد ولكنهُ قال في نفسهِ انهُ اذا فشل بانقاذه من هـذا الطريق عاد الى التظلم من سجنه بلا حق على ان يتهم اسطفانوس بانهُ هو الذي وضع قصرية الجير

وكان ابن طولون في اثناء الانتظار مطرقاً يفكر بما سمعهُ ويتمنى ان يصح قول النوبي في سعيد لانهُ كان شديد القلق من هـذا الامر وما عتم ان دخل الحاجب يقول « ان السجين النصراني في الباب »

قال « ادخلوه »

فدخل سعيد وقد تغيرت سحنته وطال شعره على غير هندام اذ لم يمسه المشط ولا رأى وجهه الشمس منذ مدة طويلة [1] فلما رآه زكريا انكره وتأثر من حاله واصبح لشدة قلقه عليه وخوفه ان لا يستطيع العمل يرتعش وهو يتجلد . اما سعيد فدخل ولم ينتبه لزكريا وانما كان همه ان يجيب دعوة ابن طولون فوقف متأدباً فقال له ابن طولون « كيف ترى نفسك ؟ »

قال « أراني كما كنت »

قال « ألم تشعر بالخطأ الذي ارتكبته في بناء العين »

قال « لا يسلم احد من الخطأ . . ولكنني لم اسأل عن خطإي لاتحققه او أتبرأ منه وانما تعجل سيدي في عقابي بلا سؤال . »

قال « الا تعدُ ترك قصرية الجير ووقوعي عن فرسي بسببها ذنباً . . . ولكن ما لنا ولهذا فنحن الآن عارضون عليك عملاً آخر فاذا زعمت انك ماهر في الهندسة اخرجه لنا فنغتفر لك ما مضى »

(١) في التاريخ ان بين بناء الجامع وبناء العين اطول مما اقتضاه سياق الرواية . وذكر المقريزي ان النصراني هذا سمع وهو في السجن ان ابن طولون يريد بناء الجامع ولم يجد من يبنيه له بلا عمد فكتب اليه يقول انا ابنيه لك كما تحب فاستنفده، وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ـ ذكرنا هذا حتى لا نشوه التاريخ

قال « ها هو يا سيدي »

قال « عزمت على بناء جامع كبير على جبل يشكر في اطراف القطائع — انما اشترط ان لا يكون فيه اعمدة فهل تستطيع رسمه على هذا الشرط ؟ »

فاطرق سعيد واخذ يفكر وقلب زكريا يخفق خوفاً من الفشل وابن طولون يراعي حركات سعيد ثم تناول هذا خيزرانة كانت ملقاة بجانب الحائط واخذ يمرها على البساط كأنه يرسم بها خطوطاً ومربعات وابن طولون يراعيه . واخيراً رفع سعيد راسه وقال « اني افعل ما امر به مولاي ولكنني استاذنه ان يكون في الجامع عمودان فقط هما عمودا القبلة »

قال « عمودان فقط ؟ »

قال « نعم فقط اثنان »

فقال ابن طولون وقد بان البشر في محياه « هل تقدر ان تبني الجامع على ان لا يكون فيه غير عمودي القبلة ؟ »

قال « نعم »

قال « اخاف ان يكون شكله مشوهاً او منظره قبيحاً ؟ »

قال « كلاً سيكون من اجمل الجوامع — ليس مثله الا المسجد الذي بناه امير المؤمنين المعتصم في سامرا » (١)

قال « قبلت به .. ارني صورته »

قال « ائتوني بالجلود فاصوره لكم كما يكون بعد الفراغ من بنائه »

فكاد قلب زكريا يطير من الفرح ولكنه ظل ساكتاً ليتحقق الامر بعد الرسم

وامر ابن طولون بالجلود فاتوه بها فاخذ سعيد يصور عليها رسم الجامع بجدرانه وقبلته وصحنه ومآذنته وميضئه فلما فرغ من الرسم دفعه الى ابن طولون ففرح به كثيراً وامر ان يطلق سراحه وان يخلع عليه وقال له « ساطلق يدك في النفقة على البناء .. ومتى فرغت منه كافأتك احسن مكافأة »

فاحنى سعيد راسه شاكراً

اما زكريا فلم يعد يستطيع كتمان فرحه فتقدم حتى وقف بجانب سعيد فاستلفت انتباه ابن طولون وظنه يتصدر لينال الجائزة فقال له « والفضل في حل هذا المشكل لهذا النوبي الشيخ بارك الله فيه »

(١) راجع رواية عروس فرغانة

فالتفت سعيد الى زكريا فرآه ينظر اليهِ ويضحك فعرفه وخفق قلبه لتذكر دميانة وبانت البغتة في محياه وخاف ان يلحظ ابن طولون بغتته' فاستاذنه' في الخروج فقال له' « تخرج الي دار الاضياف وسنامر لك بقصر تقيم فيهِ ولا ياذن بخروجك من القطائع لان وجودك اصبح يهمنا كثيرًا واذا شئت ان تأتي باهلك يقيمون معك في ذلك القصر فلا بأس » والتفت الي زكريا وقال « انك صاحب فضل يا عم ... بورك فيك ... سل ما تشاء »

قال « لا اسأل الا ان يكون مولاي موفقاً ... وقد انشرح صدري لظهور الحق ويكفيني ذلك »

فقال احمد « ولكنه' لايكفينا نحن .. » وصفق فجاء الغلام فامر له' بجائزة فدعا له' وخرج وهو يعلم ان سعيدًا يود مقابلته قبل الانصراف فترصده عند خروجهِ

فلما رآه' سعيد اسرع اليهِ وسأله' عن حال دميانة فقص عليهِ ما جرى لها وما قاسته' من عناد ابيها وما كان من امر اسطفانوس وانها الآن في حلوان تنتظر رجوعه' ولا يقدر يتصور سرورها لما يرجع اليها بهذه البشارة

وكان سعيد يسمع حديثه' وهو يكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من كلامه قال له' « تبًا لذلك الخائن النذل . كانه' ينتقم بهذا العمل عن اللطمة التي ذاقها ليلة عيد الشهيد .. وكان يحسن بهِ ان يبين نفسه' ولكنه' لئيم جبان . وقد واطأه' مرقس على ابنتهِ وهو جاهل لا يعرف ماينفعه' ولا ما يضره' والحمد لله على رد كيدهم في نحورهم .. فاذهب الى دميانة بشرها بالفرج وقل لها ان ذلك الغر سينال جزاء فعلتهِ قريباً ... وكم اود ان اذهب معك لاراها ولكن ابن طولون لاياذن بخروجي من قصره كما سمعت على انني ساسعى في زيارتها في وقت آخر وآتي بها تقيم معي في القصر الذي وهبه' لي الوالي بعد ان اهيئه' لاستقبالها وتقيم فروض الاكليل

فودعه' زكريا واراد الانصراف فرأى غلام ابن طولون واقفاً ينتظره' ليحمله الى الكاتب يدفع اليه الجائزة . ولم يخط خطوتين نحو باب القصر اذا هو باسطفانوس قد برز من وراء الباب ووقف وجعل ينظر الى زكريا ويتفرس فيهِ ولسان حاله يقول له' « قد عرفتك » ولو لم يشاهده' مع سعيد بعد ان علم برضى ابن طولون عنه' واكرامه اياه' لاسرع الى القبض عليهِ بحجة السرقة لكنه' خاف سعيدًا وتذكر ليلة عيد الشهيد فكظم

الفصل الثامن والثلاثون

البجة

واما زكريا فنظر اليه نظر الفائز ومشى وهو لايبالي ولولا رغبته في الاسراع الى دميانة لشكاه الى ابن طولون وان كان لايضمن فوزه عليه نظراً لنفوذ والده فاكتفى بان نظر اليه شزراً نظر تهديد واحتقار ومشى حتى قبض الجائزة وتحوّل يطلب حلوان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة وهو لايشعر بما تقع قدماه عليه من شدة شوقه لملاقاة دميانة وتبشيرها بما اتاه من اسباب التعزية والفوز

ولم يكد يتوسط الطريق الى طرا حتى رأى الناس يتراكضون نحو القطائع وفيهم النساء والاطفال على غير نظام كانهم هاربون من معركة وعرف من جهة مسيرهم انهم قادمون من حلوان فسأل بعضهم عن سبب ذلك الفرار فاجابوه « ان البجة سطوا على حلوان ونهبوها . . »

فقال « ومتى كان ذلك ؟ »

قالوا « نزلوا عليها في هذا الصباح وفتكوا باهلها ونهبوا بيوتها »

فاجفل زكريا وخفق قلبه ووقف لحظة وقد جمد الدم في عروقه خوفاً على دميانة فرآه الراكضون واقفاً فقالوا له « ارجع ياعماه والا فانك تذهب فريسة البجة لعنهم الله انهم كالابالسة ووجوههم كوجوه الشياطين »

فلم يبال بما سمعه ولم يزده ذلك التحذير الا رغبة في المسير الى حلوان ليرى ماتم لدميانة وظل ماشياً ولو تنبأ بشيء من ذلك لذهب الى الفسطاط أولاً وركب الفرس ولكنه وجد نفسه اقرب الى حلوان مما الى الفسطاط فظل مسرعاً بعدو وهو لايزال يرى الناس يتراكضون فراراً من القتل والنهب وقد سبق الى ذهنه ان دميانة لا بأس عليها لانها في جوار صديقه قعدان العربي

فلما أطل على حلوان طلب منزل الرجل فاشرف عليه عن بعد فرأى الخباء منصوباً فاطمأن باله ولكنه لم يرَ احداً حوله ولم يدن منه حتى رأى الخراب مخيماً عليه . واول شيء استلفت انتباهه شبح ملقى على الارض بباب الحديقة عرف انه غلام صاحبه فتقدم نحوه

فرأى الدم يجري منه وقد مات فاضطربت جوارحه وخاف ولكن لهفته على دميانة شغلته عن الخوف فمشى في الحديقة وهو يتلفت فرأى آثار حوافر الخيول بين الاغراس وقد تكسرت وتخربت . ولم يزل ماشياً وقلبه يخفق حتى اقبل على الخباء فسمع انيناً وتقدم فرأى رجلاً مطروحاً كالميت ولم يقع نظره عليه حتى عرف انه صاحبه قعدان فاجفل وصاح « قعدان ! قعدان ! » واكب عليه وامسك يده ليجلسه ويفحص حاله

فادار قعدان وجهه اليه والدم يسيل من كتفه على اثر طعنة عميقة . فلما رأى زكريا حاله علم انه في حال النزع فقال له « لا بأس عليك يا اخي ما الذي اصابك »

قال بصوت مرتعش وهو يقطع كلامه من شدة الضعف « عفواً يا زكريا اني لم .... استطع الاحتفاظ بدميانة ... فقد اخذوها مني ... اخذها لصوص البجة ... ويعلم الله اني بذلت جهدي في حمايتها حتى قتل ولدي ورجالي وها انا كما ترى .. فالعفو اني لم استطع القيام بحق الجوار »

وكان يقول ذلك وهو يقطع كلامه وزكريا ينظر اليه وقلبه يكاد ينفطر لما آنسه من آلامه ولما سمع اعتذاره وكيف انه ضحى اهله ونفسه في حماية جاره اكبر انفة العرب ونخوتهم واسف لذهاب صديقه قتيلاً بلا فائدة لانه فهم من خلال حديثه انهُ لم يستطع حماية دميانة فاحب ان يستفهم عما جرى لها فقال « لا بأس عليك يا اخا العرب .. انك والله قد وفيت حق الجوار واجبت سنة العرب .. وهل للانسان من شيء يبذله في سبيل جاره اعز من اهله ونفسه فارجو ان يشفيك الله .. » وكان زكريا لا يزال قابضاً على يد قعدان فهمَّ بانهاضه وهو يقول « انهض اجلس .. هل آتيك بماء تشربه .. ثم لاغسل جراحك .. »

فاجتذب يده منه وقال « لا فائدة من الغسل ولا من الشرب فاني ميت لا محالة .. واعلم يا اخا النوبة ان دميانة لا تزال حية ولكن البجة اخذوها سبية واظنهم اخذوا ايضاً ابنتي وسائر اهلي .. » قال ذلك وتململ وبان التألم في وجهه وصرخ « آه .. لو كنت استطيع القيام للحقت بهم » واختلج وشهق واسلم الروح

فلم يتمالك زكريا عن البكاء رغم اشتغال خاطره بدميانة واسف لموت هذا الصديق الذي يندر مثاله ولكنه لم يجد حيلة ينفعه بها وقد قضى نحبه سوى ان يواريه التراب ولم يجد احداً يستعينه لان اهل حلوان كانوا قد هجروها في ذلك اليوم وهجرها ايضاً البجة بعد ان نهبوها وفروا خوفاً من رجال الحكومة ان تدركهم فاحتفر حفرة القى قعدان فيها ودفنه

وصل على قبره ورجع الى نفسه واخذ يفكر في الذي يجب ان يفعله للحصول على دميانة

فراجع الكلام الذى سمعه من قعدان ففهم من مجمله ان البجة سطوا على حلوان فنهبوها وسبوا نساءها . وكان زكريا قد عرف البجة وعاشر بعضهم وهم يقيمون في الصحراء الشرقية يعيشون على الغزو والنهب وهم اشداء اهل بادية وخشونة فلما تصور دميانة معهم اقشعر بدنه لعلمه انهم لا يعافون محرماً ولا دين لهم يردعهم عن اكبر الجرائم وهم يومئذ لا يزالون على الوثنية

الفصل التاسع والثلاثون

الحيرة

وكان زكريا يفكر في ذلك وهو يمشي على غير هدى نحو الجهة التي حسب البجة نزلوا منها او عادوا اليها لعله يقف على اثر لهم او يرى من يرشده اليهم حتى صعد الى اكمة اشرف منها على الصحراء عن بعد فلم ير احداً ولكنه عرف من آثار الحوافر ان القوم كانوا هناك وذهبوا فحدثته نفسه للهفته ان يقتص اثرهم وحده للبحث عن دميانة ثم رجع الى رشده لتيقنه عجزه عن ادراكهم ولا هو يعرف مقرهم . وهب انه ادركهم فكيف يقدر على تخليص دميانه منهم فوقف برهة وهو في تلك الحيرة ثم انتبه بغتة الى الانبوب فافتقده فاذا هو لا يزال تحت ذراعه فتذكر دميانة وما قاسته من البلاء والعذاب ولما دنت سعادتها واسرع بتبشيرها بالفوز سبيت فقال في نفسه « ليكن اسم الرب مباركاً ان هذه الفتاة مع تقواها وطيب عنصرها ومع اسباب السعادة التي تحيط بها كانها خلقت لتشقى . . اين انت الآن يادميانة ؟ . ماذا اقول لخطيبك اذا سألني عنك أأقول له سباها البجة ؟ . . وهم قوم لا يحفظون حرمة ولا يوقرون عرضاً . . » ولما قال ذلك غلب عليه الحزن واليأس فبكى واغرب في البكاء ولم يكن حوله احد يسمعه فاطلق لحزنه العنان

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلما رأى الاظلال استطيل انتبه لنفسه واستوحش فعاد الى صوابه فقال في نفسه « لا يفيد الندب في مثل هذا الحال . . يجب ان اعمل عملاً يجب ان اسعى في انقاذ دميانة . . . كيف انقذها . . أأذهب الى سعيد اخبره بما اصابها واستنجده ؟ . وماذا ينفع استنجاده انه لا يستطيع عملاً حتى ابن طولون لو اراد ان ينجدني

ولو جرد جيشاً على البجة لا يفيد شيئاً فان هؤلاء ما برحوا عصاة على الحكومة من عهد بعيد فلم تخضعهم دولة لقيامهم في الصحراء التي لا يستطيع سلوكها سواهم ... فلا ثمرة من استنجاد سعيد سوى تكديره واقلاق راحته .. ماذا افعل اذا ؟ .. »

وتذكر للحال ايام صبوته يوم كان في بلده بالنوبة وتذكر ما لملك النوبة من السطوة والهيبة في قلوب البجة فقال « لا ينجدني في هذا السبيل الا ملك النوبة .. ولكن اين هو واين نحن ان بيننا مراحل عديدة .. ثم هو لا يعرفني ولا ينجدني ... »

وكان يناجي نفسه وهو راجع من تلك الاكمة نحو حلوان فلم يجد خيراً من ان يعود الى الفسطاط فينزل الخان وفيه ثيابه وفرسه ثم يرى ماذا يعمل ومشى وهو لا يبالي بالتعب وقد اظلمت الدنيا فجعل طريقه على ضفة النيل واخذ يعمل فكرته في طريقة لانقاذ دميانة من مخالب اولئك اللصوص

خرج من حلوان وقد غربت الشمس وهو في لباس بدو النوبة كما كان عند خروجه من القطائع ومشى وهو مرتبك الافكار فوقع بصره نحو العشاء على انوار عند سفح المقطم علم انها في قبة الهواء فتذكر موقفه مع دميانة وتذكر للحال صديقه في المسجد القائم هناك وكان قد مر به قبل ذهابه الى حلوان وهو يعرف فيه الاطلاع على احوال البجة وسائر اهل الصحراء لقيامه في اوائلها فخطر له ان يذهب اليه ويستشيره في الامر لعل له وسيلة قريبة لنيل المطلوب . فعرج نحو المقطم وما عتم ان صعد حتى اتى المسجد فلاقاه صديقه وانكره لاول وهلة ثم تعارفا فدعاه الى الجلوس فجلسا بين يدي الباب خارج المسجد على الارض فسأله عن حاله فاخبره انه ترك دميانة عند صديقه العربي في حلوان وجاء الفسطاط في مهمة ولما رجع رأى البجة قد سطوا على البلد وقتلوا من قتلوه وفر الباقون . وانهم اخذوا دميانة سبية الى ان قال « وهل تعرف شيئاً عن اولئك البجة واين يقيمون ومن هو زعيمهم ؟ »

قال « ان زعيمهم اليوم يقال له ابو حرملة »

فصرخ زكريا « ابو حرملة ؟ فرج النوبي ابن بلدنا ؟ »

قال « كلا .. ليس الرجل الذي تعنيه ولكنه تسمي باسمه تشبهاً بالشجعان ولف حوله عصابة من قومه وجعل ديدنه السطو على اطراف مصر ينهب ويقتل ولم يسبق انه سطا على حلوان قبل الآن »

فتنهد زكريا وقال « لعله فعل ذلك لسوء طالع تلك الفتاة التقية .. واين تظن اولئك البجة يقيمون الآن ! »

قال « بقيمون ! لا اعرف لهم مقاماً لانهم قوم رحل يعيشون على الغزو والسطو »
قال « وما رأيك الان . كيف العمل ياصاحبي ! اني اراني في حيرة . . كيف يمكنني انقاذ هذه الفتاة فقد أؤتمنت عليها وعاهدت نفسي ان اقوم بخدمتها ورعايتها . وقدا خذت مني في اثناء غيابي وياليتني كنت حاضراً ساعة السطو فكنت اما انقذها او اقتل في سبيل ذلك فاذهب مرتاح الضمير . . » قال ذلك وغص بريقه ولم يتمالك عن البكاء

الفصل الاربعون

الاستنجاد

فلما راه صاحبه يبكي مع شيخوخته شاركه في احساسه واخذته الاريحية فقال« خفف عنك يا زكريا . . واشكر الله لانك لم تكن حاضراً في تلك الساعة لانك كنت مقتولاً لا محالة ولا تبقى حيلة لانقاذ الفتاة اما وانت حي فلا تعدم وسيلة لانقاذها »

قال « ما هي الوسيلة ؟ ارشدني . . هل تعلم مقر هؤلاء فاذهب اليهم بنفسي واكلم ابا حرملة واستعطفه لعله يشفق على الفتاة و افتديها بما يريد من المال »

قال « اما مقر هؤلاء فلا سبيل الى معرفته والاستعطاف لا فائدة منه واما الفداء فلو كان الاسير رجلاً او غلاماً او امرأة طاعنة في السن فربما افاد اما وهي فتاة جميلة فلا اظنهم يقبلون عنها فدية والغالب ان يجعلها ابو حرملة في جملة نسائه فقد سمعت انه رغاب في النساء . . »

فقطع زكريا كلامه قائلا « تعني انه يتزوجها ؟ »

قال « يتزوجها او يتسراها لا ادري . . »

صاح زكريا « اعوذ بالله من ذلك . . » واطرق هنيهة ثم قال « لا اخاف عليها منه وان كان جباراً ما دامت حيـة ولكن . . . » وبلع ريقه واخذ ينكت الارض باصبعه ويعمل فكرته

فابتدره صاحبه قائلاً « لا فائدة من طول التفكير اننا لا نعرف مقرهم واذا عرفناه لا قدرة لنا على مناوأتهم »

فتذكر زكريا سعيداً ومنزلته عند ابن طولون فقال « وما قولك اذا استنجدنا امير مصر ؟ هل ينجدنا بجند »

فابتدره قائلاً «ولا فائدة من نجدة الامير فانه لا يعرض رجاله للموت في الصحراء .. ولو كان في امكانه ردهم لفعل ذلك من قبل فان اولئك البجاو بين لم ينفكوا عن السطو على حدود هذه البلاد من ازمان متطاولة والحكومة عاجزة عن ردهم فكيف بتعقبهم الى منازلهم .. ومنازلهم على ظهورهم ..»

فعلم زكريا ان لا فائدة من استنصاره سعيداً فعزم على كتمان هذا الامر عنه وعاد الى التفكير وهو مطرق فقال له صاحبه «ما بالك لم تفكر بمولانا ملك النوبة وانت تعلم نفوذهُ على البجاة فانهم لا يخافون سطوة سواه كما تعلم اوهم يكرمونهُ على الاقل»

قال «اعلم ذلك وقد خطر ببالي ان استنجدهُ ولكنهُ لا يعرفني وبلدهُ بعيد واخاف ان اضيع الوقت بالسفر اليه في اطراف النوبة ثم اعود بالفشل ويذهب سعيي عبثاً»

فقال «اما انت نصرانيٌّ ؟..»

قال «نعم»

قال «ألا تعلم تمسك ملكنا بالنصرانية وغيرته عليها ؟»

قال «اعلم ...» وانتبه لرأي اشرق وجهه لهُ وقال «قد فطنت لوسيلة تضمن النجاح .. فطنت لما تريد ان تقوله .. ستقول لي ان استنجد احد اساقفتنا ليتوسط لي لدى ملك النوبة ولكنني اقدر ان اوسط البطريرك نفسه»

فصاح الرجل عند ذلك قائلاً «بورك فيك هذا احسن رأي واذا اتبعتهُ فانك نائل ما تريد .. اذا استطعت ان تأخذ كتاباً من البطريرك الى ملك النوبة يوصيه بك فانهُ فاعل ما تريد ..»

فلم يتمالك زكريا عن القيام للحال ومد يده فودع صديقه وقال «اعذرني على سرعة الذهاب فقد استصوبت رأيك وانا عامل بهِ والوقت ثمين»

قال «ألا تنام هنا الليلة وتسافر في الصباح ؟»

قال «دعني اذهب لاعداد ما يلزم ..» قال ذلك وتحوّل قاصداً الفسطاط من جهة الشاطئ.

ولما أطل على حصن بابل ووقع بصره على دير المعلقة عرفه من نور معلق بباب الحصن فتذكر دميانة والاسقف ومرقس وتذكر البطريرك ميخائيل وهو يعلم انه في دير ابي مقار بالصحراء الغربية في وادي النطرون والطريق اليهِ شاق ولا بد من التأهب للمسير فيه

ووصل الفسطاط وقد اغلقت ابوابها فبات في مكان خارجها ولما فتحت الابواب دخلها متنكراً حتى اتى الخان واخذ يتأهب للسفر الى دير ابي مقار وقد علم ان المسافة اليه بعيدة سيقطع في اثنائها النيل والصحراء الغربية

ورأى لتمام الحيلة ان يتنكر بلباس الرهبان وحدثته نفسه ان يركب فرس مرقس الذي اتى به من طاء النمل ولكنه خاف ان ينمّ عليه فيذهب تنكره عبثاً فباعه لصاحب الخان واشترى هجيناً خفيفاً وضع عليه رحلاً ونزل السوق فاشترى ثياب الرهبنة واهمها الرداء الاسود الخاص بالرهبان والقبعة الخاصة برهبان دير ابي مقار . قضى في ذلك يوماً كاملاً وفي المساء اعدّ كل شيء على ان يسافر في صباح الغد

ولما عزم على السفر تذكر سعيداً وقال في نفسه « كيف اتركه واسافر بدون ان يعلم مصيري ولا ما تم لدميانة فربما ذهب الى حلوان فلا يقف على خبرها فيظنني خدعته او ربما تولاه اليأس اوغير ذلك »

قضى ليلته وهو يفكر في سعيد ولم ينم الا قليلاً وتعاظم الامر عليه في اثناء رقاده — لان الانسان اذا فكر في امر يهمه وكان تفكيره في الظلام وهو راقد مغمض الاجفان تعاظم عليه الوهم . فتصور زكريا انه اذا لم يطلع سعيداً على ما جرى يرتكب ذنباً عظيماً فلما اصبح تنكر بغير لباس البادية الذي جاء به يوم مقابلة سعيد وخرج الى القطائع واخذ يسال عن المهندس النصراني لانه كان معروفاً هناك بهذا الاسم فلم يهتدِ اليه . ولكنه اهتدى الى القصر الذي اعدوه له وسال حاجبه فقال له « خرج في مساء الامس ولم يعد بعد »

فاخذ يفكر في ماذا عسى ان يكون حاله وكيف يخرج والى اين مع ان ابن طولون انكر عليه الخروج وخاف ان يكثر من السؤال لئلا يشتبه الحاجب به فرجع وخطر له في اثناء رجوعه ان سعيداً ربما ذهب الى حلوان بعد ان بلغه سطو البجة عليها لان خبر تلك الغزاة ذاع في انحاء المدينة . فترجح لديه انه ذهب الى هناك . فتوجه زكريا في ذلك الطريق لعله يلاقي سعيداً وما مشى طويلاً حتى شاهد فارساً قادماً من طريق حلوان وتنبأ من قيافته انه سعيد وما عتم ان وصل الفارس فاذا هو بعينه فناداه زكريا فوقف ولما عرف اسرع اليه وترجل وهو يقول « اين دميانة .. ذهبت الى حلوان فلم اجدها ولا وقفت لها على خبر . هل كنت تقول غير الواقع ؟ »

قال « كلاَّ ياسيدي انما قلت لك الصدق .. ولكن .... الم تسمع بما اصاب حلوان ؟ »

قال « سمعت ان بعض البجاة سطوا عليها ونهبوها • فهل اخذوا دميانة في جملة السبي ؟ • » قال ذلك وهو يتلعثم وقد جف حلقه

قال « يظهر انهم أخذوها •• وكنت ذاهباً للتفتيش عنها بدون ان اخبرك لئلاّ اكدرك بلا فائدة لانك مقيد في منصبك ولا سيما الآن • ثم رجعت امس الى رشدي ورأيت الافضل ان آراك قبل سفري »

قال « وماذا جرى ؟ اخبرني •• قل »

فقص عليه حديثه منذ فارقه بالامس وسار الى حلوان وكيف وجد قمدان العربي وانه لم يجد وسيلة لانقاذ دميانة غير توسيط البطريرك لدى ملك النوبة • وانه ذاهب في الغد الى دير ابي مقار »

وكان سعيد يسمع كلامه ويكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من السماع قال له « لماذا لا نطلب البجاة رأساً فنحمل عليهم برجالنا ونأخذ دميانة قهراً •• اني لا ارجع عنهم حتى اخذها •• » قال ذلك والغضب يرقصه

فقال زكريا « لايعلم احد مقرهم في هذه الصحراء يا سيدي وقد فكرت في ذلك ••• ثم انك اذا كلفت ابن طولون ان ينجدك بالرجال فانه لا يجيب طلبك • وهو مصيب اذا لم يفعل • »

قل « مالي ولابن طولون •• اذهب بنفسي ••• » قال ذلك مدفوعاً بالحماس والغيرة ولو اراد مباشرة العمل لرجع عن عزمه

اما زكريا فقال له « اذا كنت ترى وسيلة لاسترداد دميانة بالقوة كما تقول فافعل واما انا فلا امل لي في ذلك الا على الطريق الذي ذكرته لك •• دعني اذهب بهذه المهمة ولا أضيع الوقت سدى •• هل تأذن بذهابي ؟ »

فتنهد سعيد والدموع تكاد تترقرق في عينيه لتصوره حال دميانة في قبضة أناس وتبين لا آداب عندهم ولا دين لهم ولا شفقة في قلوبهم •• وقال « اذهب انت وانا سابحث عن طريقة قريبة فاذا وفقت اليها والا فانت سائر في عملك واذا جدّ لديك شيء اخبرني ••• وانا مقيم في القطائع هل عرفت منزلي ؟ »

قال « نعم عرفته •• استودعك الله اني راجع الساعة والاتكال على السيد المسيح وارجو ببركة سيدتنا مريم العذراء ان نتوصل الى الغرض المطلوب »

فدعا له سعيد بالتوفيق وافترقا

الفصل الحادي والاربعون

صحراء ليبيا

سار زكريا تواً الى الخان وقد اعد كل شيء لسفره فركب هجينه وخرج من الفسطاط فقطع النيل على جسر جزيرة الروضة وقطع جسراً آخر الى بر الجيزة • فلما صار في البر الغربي من النيل اغتنم خلوة بدل فيها ثيابه ولبس ثياب الرهبنة وهو نوبي اللون والملامح فاصبح كانه راهب من رهبان النوبة • واول شيء وجه انتباهه اليه تلك الاسطوانة التي وضع فيها آماله وآمال دميانة فانه جعلها في كيس علقه بعنقه تحت ابطه بحيث لا تظهر ولا ينتبه لها احد • وبات تلك الليلة وبكر في الصباح فركب هجينه وسار شمالاً يطلب بعض المحطات التي يمكن السفر منها الى وادي النطرون الذي فيه دير ابي مقار

والوادي المشار اليه في صحراء ليبيا غربي الدلتا على مسافة ثلاثة ايام منها يقطعها المسافر في رمال وصخور لا أثر للعمارة فيها ولا يلقى انيساً الا القوافل الذاهبة الى ذلك الوادي لتحمل الملح او النطرون الى الدلتا اوالراجعة بالمؤن والاطعمة للرهبان المقيمين في الاديار المبنية في تلك البادية الموحشة

ذكر بعضهم انه كان في جوار ذلك الوادي نحو خمسين ديراً وقال آخرون اقل من ذلك والموجود منها الآن لا يتجاوز عدد اصابع اليد اهمها اربعة دير ابي مقار ودير الامبا بشاي ودير السرياني ودير البراموس • اولها اقربها الى الدلتا ثم تتباعد حسب ترتيب ذكرها • وهي قديمة البناء ربما اتصل تأسيسها بالقرن الرابع للميلاد اي عند شيوع الرهبنة في النصرانية مما لا محل لتفصيله هنا

والذاهب الى وادي النطرون لا يأمن الذهاب وحده في تلك البادية خوف الضلال في الطريق وحذراً من اهل السطو • ولذلك فلم يكن الناس يسافرون الا مع القوافل جماعات ولم يكن زكريا يجهل ما يعترضه من الخطر في ذلك السفر فلما وصل الى المحطة التي يبدأ منها الدخول في الصحراء غرباً الى وادي النطرون اخذ يبحث عن قافلة يسير برفقتها فعلم ان ركباً يتأهب للمسير في الغد يحمل المؤونة من الزيت والحنطة وغيرها الى دير ابي مقار • ففرح بهذه الفرصة وانخرط في سلكهم ومعهم راهبان من رهبان

الدير فسألاه عن امره فاضطر ان يكون قوله مطابقاً لملابسه فقال « انني راهب من رهبان النوبة »

فقال له الراهب « اظنك قادماً بمهمة الى البطريرك مخائيل » وتنحنح

فقال « نعم احب تقبيل يديه .. »

فلما قال ذلك التفت احد الراهبين الى زميله وتبسم كأنه ينبهه الى شيء لاحظه فلما رأى زكريا تبسمه وايماءه خاف ان يكون قد كشف امره — ويكاد المريب يقول خذوني — لكنه تجلد والتفت الى الراهب الذي ضحك وقال وهو يظهر عدم الاهتمام « ما بالك تضحك ايها الاخ .. العلك لم تصدق قولي ؟ »

قال « العفو يا أخي .. ليس هذا غرضي . معاذ الله ان اشك في قولك .. ولكنني ضحكت لامر تذكرته وقع من عهد غير بعيد .. واذا كنت آتياً من النوبة الآن فانك جدير بمعرفته .. »

فلما سمع زكريا هذا الشرط خاف ان ينكشف امره ويظهر انه متنكر فربما كان عليه بأس فابتسم واغضى كأنه يعرف السر ويود السكوت عنه . واكتفى بانه تحقق وجود البطريرك مخائيل هناك فوافقه الراهبان وقضوا ذلك اليوم في الاستعداد واقلعوا في صباح اليوم التالي ومعهم الخدم لسوق الجمال او البغال وكلها للدير . وهي تحمل جراراً من الزيت واكياساً من الحنطة والعدس والفول وبعض الاقمشة غير ما عليها من الاقوات والماء للطريق

وما يتبطنوا الصحرا حتى اصبحوا في قفر يكتنفهم الرمل والصخور من كل ناحية كما يكتنف الماء المسافرين في البحار اذ لا يرون حولهم كيفما توجهوا الاماء والمسافر في البادية اذا اوغل فيها لا يرى حوله الا رمالاً . ومن اجمل مناظر الصحراء في النهار منظر السراب او الآل الذي يتراءى للناظر عن بعد كأنه ماء يجري في نهر او بحر ويرى اظلال الشجر او الصخور في اسفل الماء كما تعكس عن شواطيء البحور فيراها المقبل عليها عن بعد

ولم تكن هذه المناظر غريبة على زكريا فقد ركب البادية مراراً ورأى السراب وقاسى العذاب في شبابه ولكنه لم يأت دير ابي مقار قبل ذلك الحين ولا عرف الطريق اليه فكان معوله على رفاقه . ورآهم في قلة من الرجال فقال لهم وهم يسوقون هجنهم ضحى ذلك اليوم لا يسمع لها خطو على الرمال « أراكم في قلة وعهدي ان القافلة اذا لم تكن قوية يخشى عليها

من قاطعي الطريق هنا »

فقال احد الراهبين «كان ذلك قبل ولاية ابن طولون فانه احسن الظن بالاقباط ومنع التعدي عنهم فاصبح الواحد والاثنان يسافرون منفردين ولا خوف عليهم »

فقال زكريا « صدقت ان حال مصر في ظل هذا الامير لم يسبق له مثيل بعد امراء العرب في اول الفتح »

الفصل الثاني والاربعون

الاشباح

واستراحوا نحو الاصيل وتناولوا الطعام وعادوا الى المسير حتى امسى المساء فنصبوا خيمة خفيفة الحمل للمبيت فيها . وجلسوا للطعام وقد دنت الشمس من الافق واخذت تستطيل حتى صارت كمثرية الشكل واحمرّ لونها واحاطت بها هالات من الشفق باهرة الالوان مما يسحر العقول — ولو كان اهل تلك القافلة من الشعراء لوقفوا مبهوتين لهيبة الطبيعة وخيل لهم انهم يسمعون خطيباً يعظم امر الخليقة و يستعظم سرها — لا يخطر للانسان عظمة هذا الكون وكبر شأنه الا اذا خلا في موقف طبيعي مثل هذا . واما في المدن فتشغله الجواذب والدوافع ويلهو بملذاته ومطامعه . ولكن اصحابنا الرهبان لم يكونوا من الشعراء ولا استلفت ذلك المنظر انتباههم وانما شغلهم تعبهم عن كل شاغل فذهبوا الى الرقاد على ان يقلعوا في الغد فيصلوا دير ابي مقار قبل الغروب

وكان زكريا اكثرهم رغبة في الوصول لانه حالما تبطن الصحراء خطرت دميانة في باله لانها اخذت الى مثل هذه البادية واصبح سريع الرغبة في استحثاث هجينه للوصول الى الدير لكنه لم يشأ ان يترك رفاقه لان جمال الحمل تمشي ببطء بخلاف الهجن . فخطر له ان يستأذن رفاقه في صباح اليوم التالي ليسبقهم وحده فلما سألهم انكروا عليه انفراده فوافقهم واقلعوا في الصباح وساروا وهم يقطعون منخفضات ومرتفعات ليست من قبيل الاودية والجبال وانما هي تعاريج لا يبرح معها المسافر كيفما توجه يجد نفسه محاطاً بالتلال الصخرية او بروابي الرمل

وفي اصيل ذلك اليوم اطلوا من حافة ذلك السهل على واد عظم فيه آثار ايدي الانسان من الابنية المتفرقة وبعض الاشجار المبعثرة واول بناء كبير وقع نظرهم عليه دير ابي مقار بقرب

فتحة الوادي عن بعد شاسع وحالما اطلوا عليه اشرقت وجوههم وقال احدهم « هذاهو الدير »

فقال زكريا « لا بد من الوصول اليه الليلة ؟ » قال ذلك بنغمة الاستفهام دليلاً على رغبته في الوصول وخوفاً من تباطؤ القافلة فاجابه الراهب « اظننا نصل واذا لم نصل ففي صباح الغد . . واذا كانت الليلة مقمرة نواصل السير ليلاً حتى نصل . اذ يظهر لي انك مستعجل في مهمتك يا اخ » وضحك فعلم زكريا انه يقول ذلك على سبيل المزاح لانهم عرفوا من الامس ان الليلة مظلمة والقمر في اواخر ايامه فادرك انهم يمازحونه او يعبثون به فلم يجبهم وتشاغل باصلاح رحل جمله تحته . و بينما هم سائرون وعينا زكريا نحو الدير وقع نظره عند اول الوادي على اشباح راكبين على هجن ولم يستطع تمييزهم لبعد المسافة فقال لاقرب الراهبين اليه « اني أرى اناساً ودواب من هم ؟ »

فنظر الراهب الى الوادي وتفرس قليلاً ثم قال « ألا تراهم خارجين من الوادي انهم من التجار يحملون احمال الملح والنطرون او ربما حملوا القش الذي يصنعون منه الحصر فانه كثير هنا »

فقال « لا ارى معهم احمالاً مما ذكرت واذا كانت معهم احمال فينبغي ان تكون اقل من ذلك كثيراً »

وكان الراهب الآخر يتفرس في الاشباح فلما سمع جواب زكريا قال « صدقت . . احسبهم من تجار الزجاج لان في هذا الوادي معملاً يصنعون فيه الزجاج بنفقة اقل من نفقته في الفسطاط فيبتاع التجار من هذا كميات كبيرة يحملونها الى الاسواق »

فقال زكريا « لم اكن اعلم ان الزجاج يصنع في هذه الارض المنقطعة »

فقال الراهب « هو يصنع هنا من عهد دولة الروم ولا يزال [1] »

فسكت زكريا . و بعد هنيهة توارت تلك الاشباح وراء التلال ولم يعودوا يرونها وظلوا سائرين في طريقهم وعيونهم نحو الدير ولا سيما زكريا فانه كان اكثرهم رغبة في الوصول وزاد قلقه لما شاهد الشمس تقترب من الافق خوفاً من تخييم الظلام قبل الوصول

وهم في ذلك رأوا هجاناً ظهر من وراء رابية وعليه العباءة والكوفية اوقف هجينه لحظة ثم اشار اشارة وتقدم وظهر وراءه بضعة جمال على كل منها راكب وكلهم مسلحون بالرماح . ورآهم زكريا يتقدمون فخاف لانه توسم فيهم الغدر اذ لم يرَ معهم احمالاً فالتفت الى رفيقيه الراهبين فرآهما قد تغير وجهاهما فقال « يظهر ان هؤلاء ليسوا تجاراً . . واظنهم

(1) Butler, Anc. Copt. Churches I. 288

من الاعداء فان البستهم عربية »

ولم يتم كلامه حتى رأى القوم يسوقون هجنهم نحوهم وقد اشرعوا الاسنة فتحقق انهم من الاعداء فاخذ يتأهب للفرار واذا بهجان منهم تقدمهم وهو ملثم واشار بيده كانه يقول لهم « قفوا عندكم »

فقال زكريا « ماذا تريدون .. من انتم ؟ »

وكان قد وصل الهجان اليهم فتفرس بزكريا ولما تبينهُ قال له بالقبطية « الست قادماً من النوبة ؟ . قف ولا تتحرك »

فرآه زكريا يتكلم القبطية كانهُ واحد من اهلها مع ان لباسهُ عربي فاشكل امره عليهِ وقال في نفسه « لا يمكن ان يكون هذا عربياً .. فلعلهُ جاسوس من الاقباط بعين العرب عليهم » وزاده تلثمه شبهة بهِ لكنهُ شغل بالخوف منهُ عن البحث في شأنه

فتحقق القوم عند ذلك انهم مأخوذون وعلم زكريا ان رفاقه لا يستطيعون الفرار لثقل احمالهم أما هو فحملهُ خفيف وليس عليه ما يمنعهُ من الاسراع فتهيأ للفرار وقد استغرب قول الرجل انه راهب نوبي . فتقدم الراهبان وارادا الاستفهام عما يريده اولئك فقال احدهما يخاطب ذلك الهجان « ما الذي تبغونهُ منا »

قال « اتركوا الاحمال وانجوا بانفسكم »

قال « اننا نحمل طعاماً للدير .. ولم نعهد احداً تعرَّض لنا قبلاً لاننا اصدقاء الامير صاحب مصر »

قال « لم نتعرض لكم أما الآن فانتم اعداؤنا ... واذا لم تتخلوا عن الاحمال قتلناكم فانجوا بانفسكم »

فتحقق الراهبان وزكريا انهم مغلوبون على امرهم لان اولئك يزيد عددهم على عشرة بالسلاح الكامل وهم لا سلاح معهم فضلاً عن قلة عددهم . فاخذوا يتوسلون اليهم ان يتخلوا عنهم وانهم يستغربون هذه المعاملة التي لم يسبق لها مثيل منذ عدة اعوام فقال اولئك « لا تسألونا عن السبب بل اسألوا بطريرككم وهو يخبركم » قالوا ذلك وهم يهددونهم بالقتل اذا لم يتخلوا عن الاحمال و ينصرفوا

فتقدم زكريا يريد ان يستعطفهم وقال « ان هذه الاحمال طعام لرهبان يقيمون في هذا الدير لا اذية لهم وقد اوصى نبيكم بحسن معاملتهم فهم لم يرتكبوا خطيئة ولا أتوا منكرًا يوجب هذا العداء »

فانتهرهُ ذاك الرجل وقال لهُ « كانوا كذلك وقد افسدتموهم يامعشر النوبة .. وسترون عاقبة امركم قريباً .. واذا قلت كلمة أخرى اخرجنا ماتخفيه بين اثوابك من الرسائل »

الفصل الثالث والاربعون

الفرار

فخاف زكريا اذا اصرَّ على الانكار وبحثوا بين اثوابه ان يعثروا على الاسطوانة تحت ابطه فياخذوها وتذهب آماله عبثاً ولم يعد يعلم ماذا يعمل لينجو قبل ان يقبضوا عليه وهم اذا ارادوا قتله لا يمنعهم شيء. فتظاهر بالاستخفاف والتجاهل وقال « فتشوني اني لا احمل شيئاً وانما جئت لأفي نذراً لهذا الدير وانا اشير على رفاقي ان يتخلوا لكم عما معهم و يتبعوني قبل ان يشتد الظلام فيضلوا عن طريقهم » قال ذلك واشار الى الراهبين ان يتبعاه ووخز جمله فطار به وكانت الشمس قد غابت وتكاثفت الاظلال فزاد القوم رغبة في القبض على زكريا لما آنسوه من رغبته في الفرار فصاحوا به « قف عندك »

ولكنه كان قد اطلق لمجينه العنان فاقتفى اثره اثنان منهم . وكان قد تعود ركوب الجمال في شبابه وقد نسيه لطول الترك لكن رغبته في النجاة وخوفه من وقوع ذلك الانبوب بايدي القوم جدد نشاطه واحيا شبابه فثبت على الرحل ثبات الجبال . ولكن مطارديه من اهل البادية الذين شبوا على ظهور الجمال فلم يطارداه الا قليلا حتى احس انهم كادا يدركانه . وكان الليل قد سدل نقابه واصبح على مقربة من دير ابي مقار عرف ذلك من مصباح موقد هناك لاهداء القادمين . فلما ايقن بالهلاك ضاع رشده وارتبك في امره وعثر المجين برابية من الرمل فاختل موقفه فهوى زكريا عن ظهره واراد ان يتمسك برقبته فخانته يداه فسقط الى الارض فوق الرمال والمجين ما زال جامحاً في عرض الصحراء . ولما وجد زكريا نفسه على الرمال سليماً استرجع رشده وركض منحرفاً عن الطريق واخذ يبحث عن مكان يختبيء فيه ريثما يمر المجانان فوجد حفرة نزل فيها وهو يتلمس جوانبها

اما المجانان فكان احدهما قد تعب وتباطأ وظل الآخر يستحث هجينهُ في أثر زكريا وقد أشرع الرمح وزكريا تارة يتوارى عنهُ وراء التلال وطوراً يظهر لهُ . وربما اقترب منهُ حتى كاد يدركهُ فيعيقهُ عنهُ عائق من وعورة الطريق او غيرها فيسبقهُ . ولما

سقط زكريا عن الجمل كان قد بعد عن مطارده وتوارى في ظل اكمة ولم يقف هجينهُ بل زاد عدواً لانهُ أجفل من سقوط راكبه واحس بخفة محمله ولم ير الهجان المطارد سقوط زكريا فظل في اثر الهجين . ولم ينتبه ان الهجين يعدو وحده الاَّ بعد ان تجاوز مكان السقوط مسافة طويلة فأيقن ان زكريا سقط وقتل واصبح همهُ ان يقبض على الهجين من جملة الغنائم فاخذ يتعقبهُ

اما زكريا فتربص في تلك الحفرة وعيناه تتعقبان الشبح الذي كان يطاردهُ فرآه تجاوزهُ في اثر الهجين فاطمأَن على حياته فأَخذ يتجسس اعضاءه لئلا يكون قد تعطل شيءٌ منها فوجدها سليمة فشكر الله وعدَّ ذلك من كرامات مار مقاريوس صاحب الدير . وافتقد الاسطوانة فوجدها في مكانها تحت ابطه فاستخرج طرفها وقبلهُ مسرورًا ببقائها واعادها الى مخبأها ولبث ينتظر ما يكون من امر رفاقه هل ينجون بانفسهم ام يذهبون في جملة الغنائم . فمضت مدة لم يعد يسمع فيها صوتاً فخرج من الحفرة والظلام شديد وتسلق رابية واخذ يتلمس و يتفرس في ما حوله لعله يرى شبحاً او يسمع صوتاً فلم ير غير نور الدير وقد اصبح قريباً منهُ فمشى نحوه وقد احس بالتعب في ساقيه لكن فرحه بالنجاة من القتل انساه كل شيء

وما كاد يمشي قليلاً حتى سمع صوتاً فقفَّ لهُ شعرهُ وارتعدت فرائصه — سمع حفيف ثعبان ينساب على مقربة منه ثم سمع فحيحه فجمد الدم في عروقه ووقف وقوف الصنم لانهُ كان يسمع عن الثعابين السامة في تلك البادية . وكان الظلام قد حال بينهُ وبين ما حولهُ فلم يعرف كيف يتقي اذى تلك الحية فأخذ يرسم علامة الصليب على وجهه و يستغيث بمريم العذراء ومار مقاريوس صاحب ذلك الدير وبسائر القديسين بصوت كالتمتمة ولو اراد التكلم لم يستطعهُ لجفاف حلقه من الخوف

ظل واقفاً بضع دقائق حسبها ساعات حتى بعد الحفيف عنه فتحقق نجاته لكنه ما زال يخاف من طارق آخر فاستعان الله واستجار بقديسيهِ ومشى نحو النور الذي يراه في دير ابي مقار

الفصل الرابع والاربعون

دير ابي مقار

مشى زكريا على تلك الرمال وهو يتجسس طريقه · تارة تغوص قدمه في الرمل فيخاف ان تلدغها عقرب وطورًا تصدم صخرًا او تعثر بحصى فيجفله صوتها · وكان محتذيًا نعالاً من القش كانت شائعة في وادي النيل ينسجها بعض اهل الريف من الياف البردي او القنب او البوص · كان يخطو وهو يتعثر بثوبه وافتقد قبعتهُ فلم يجدها وكانت قد سقطت في اثناء الفرار ولم يشعر فلم يهمهُ امرها وانما همهُ الوصول الى الدير

اقبل على الدير فوجده مربع الشكل يكتنفهُ سور عال اشبه باسوار قلاع الحصار طول كل ضلع من اضلاعه ١٤٠ مترًا ولم يكن زكريا جاء ذلك المكان من قبل ولكنهُ كان يسمع ان القادم على امثال هذا الدير يقرع جرسًا فوق الباب فيفتح له · فاخذ يفتش عن الباب فدار حول السور فلم يجده فاتهم عينيه بالخطأ لاعتقاده ان الدبور لا يمكن ان تكون بلا ابواب · فاعاد التفتيش بدقة فوصل الى مكان من السور وجد عنده حجري رحى كبيرين قطر الواحد منهما ثلاثة اذرع فتفرس فيهما فرأى وراءهما بابًا لا يزيد علوه على ذراعين واذا فتح لا يدخله الانسان الا ساجدًا · فمدَّ يده الى الباب جسه بانامله فرآه مصفحًا بالحديد الضخم بحيث يستحيل كسره وهو لم يكن يريد كسره وانما يريد ان يعلن اهل الدير بوصوله ليفتحوه له فقال في نفسه « اذا كان هذا هو الباب فلا بد من وجود الجرس عليهِ اوورائه » فتسلق على احد الحجرين وتلمس الحائط فوجد عليه حبلاً جذبه فسمع صوت الجرس وكان له دويٌّ في ذلك الليل الموحش · وعلا نباح الكلاب من الداخل ووقف ينتظر ما يكون

وبعد هنيهة رأى اشعة نور مرسلة في الفضاء داخل السور تقترب نحوه وأخيرًا رأى النور اصبح فوق السور يحمله راهب هرم قد اطل عن السور وهو يتطاول بعنقه والمصباح في يده وقد مدها نحو زكريا كانه يستكشف حاله ووقعت اشعة المصباح على وجه الراهب فابان عن شيخ هرم تجعد وجهه وشاب شعره · وحالما وقع بصره على زكريا قال باللغة القبطية « من انت »

قال « غريب قاصد زيارتكم لتقبيل انامل البطريرك والتبرك بصاحب هذا الدير »

قال « هل انت وحدك ؟ »

قال « نعم يا اخي الا تفتح لي ؟ »

قال « ان فتح الباب يقتضي مشقة كبيرة لازاحة الحجرين من الخارج والاحجار التي وراءه من الداخل فالاوفق على ما ارى ان ندلي لك حبلاً ونرفعك بالبكرة »

قال « كما تشاء »

فمضى الراهب ثم عاد وادلى له حبلاً تشبث به فادار الراهب بكرة كبكرة البئر فصعد زكريا حتى بلغ اعلى السور فسلم على الراهب ونزلا من وراء الباب وقد تغطى معظمه بالاحجار الضخمة التي دعموا الباب بها . وربما زاد وزنها على عشرات القناطير . فاستغرب زكريا ذلك الحذر لان نقل هذه الاثقال يقتضي وقتاً ومشقة فقال « اراكم قد اكثرتم من الدعائم للباب كانكم في حصار »

قال « لم نفعل ذلك الا في هذين اليومين لاسباب ستعلمها .. تفضل الآن الى غرفة الاضياف وغداً نعرض امرك للرئيس »

ومشى الراهب بالمصباح امامه بين نخلات تناطح السحاب حتى ادخله غرفة معدة للاضياف وقد اخذ التعب منه مأخذاً عظيماً فصلى فرضه ونام

ودير ابي مقار عبارة عن السور الذي ذكرناه وفيه خمسة ابنية : ثلاث كنائس وبناء لسكن الرهبان وقضاء حوائجهم من اعداد الطعام وتناوله وبرج عال يقال له القصر فيه ذخائر الدير من الكتب او الآنية القديمة . ويتخلل هذه الابنية نخيل وبعض المغروسات التي يحتاجون اليها في اصلاح الطعام

والكنائس المشار اليها هي (١) كنيسة ابي مقار على اسم صاحب الدير (٢) كنيسة الشيوخ (٣) كنيسة ابسخرون . والبناء الذي فيه مساكن الرهبان عبارة عن دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للمنام وفيها غرفة مستطيلة للطعام وحجرة كبيرة للطحن واخرى للخبز واخرى للطبخ . اما القصر فانه مؤلف من طبقتين السفلى اقبية معقودة فيها خزائن الكتب او غيرها من الذخائر الثمينة كالالبسة او التيجان او الصلبان ونحوها ومخازن المؤونة للزيت والحنطة وفيها منافذ سرية يلجأ اليها الرهبان عند الخطر العظيم اذا أخذ ديرهم

وفي الطبقة العليا من هذا القصر ثلاثة معابد احدها على اسم مار سواح والآخر لمار انطانيوس والثالث باسم مارمخائيل . وفي هذا المعبد الأخير جثث البطاركة الذين ماتوا هناك محنطة في توابيت . والقصر حصين قد احتاطوا لمنع الاذى عنه بانهم جعلوا بابه في

الطبقة العليا لا يمكن الصعود اليه الا على سلم او جسر مدرج واصطنعوا له سلما مستقلاً ضخم الشكل ثقيل الحمل ينصب عليه عند الحاجة فاذا انزل عنه لا يمكن رفعه الا بالالات الرافعة او يتعاون في نصبه عدة رجال (١)

وافاق زكريا في صباح اليوم التالي على صوت الناقوس للصلاة باكرًا فنهض واسرع مع سائر الرهبان لحضوره القداس في كنيسة ابي مقار وهي افخم تلك الكنائس واجملها فيها ثلاثة هياكل اكبرها الهيكل الاوسط مساحته ٢٥ قدماً في ٢٠ عليه قبة مبنية من القرميد على طرز جميل وعلى جدرانها صور بعض القديسين وفي وسطها مذبح من الحجر وراءه مقاعد كالمنبر

فاصطف الرهبان لسماع الصلاة وعددهم بضع عشرات بينهم عدة قسوس يتقدمهم البطريرك بلباس الصلاة ورئيس الدير . وكان زكريا يعرف البطريرك من قبل وقد شاهده مرارًا في كنائس مصر لكنه رآه الآن قد تغيرت ملامحه وبانت الشيخوخة في جبينه ولحظ فيه انقباضاً لم يعهد به مثله فقال في نفسه « لامرٍ ما تغير البطريرك » وزاد رغبة في ملاقاته . فاقيمت الصلاة بالقبطية على جاري العادة وليس في الجمع غريب غير زكريا فاستلفت وجوده انتباههم واصبحوا ينتظرون الفراغ من القداس لسماع حديثه

الفصل الخامس والاربعون

البطريرك مخائيل

اما هو فحالما انقضت الصلاة وخرج البطريرك والرهبان ذهب الى الراهب الذي استقبله في الامس وطلب اليه ان يقدمه الى البطريرك فاستمهله الى ما بعد الفطور ودعاه الى الطعام في غرفة مستطيلة في وسطها مائدة طويلة من الحجر الى جانبها مقاعد يجلس عليها الرهبان في صفين . فاجلسوه معهم وجاء الطعام وهو في غاية البساطة لا لحم فيه ولا فاكهة واخذوا يأكلون بعد صلاة مختصرة الا راهباً منهم تولى قراءة فصول من الكتاب المقدس في اثناء الطعام

وكان زكريا يأكل وقلبه مشتغل بما سيدور بينه وبين البطريرك من الشؤون التي

(١) Butler, I. 296 & 304

جاء من اجلها او اتفقت له في طريقه . وقد تحقق ضياع المؤونة المحمولة الى الدير والذين حملوها اذ لم ير واحداً رجع منهم الى تلك الساعة . وكان الرهبان يتحادثون ويشركون زكريا في حديثهم وهم يحسبونه راهباً مثلهم

فلما فرغوا من الطعام تقدم الراهب الشيخ الى زكريا ان يتبعه الى غرفة رئيس الدير فقدمه اليه فاسرع زكريا الى تقبيل يده فرحب به وسأله عن حاله وغرضه فقال « جئت لمقابلة ابينا البطريرك »

قال « العلك من رهبان النوبة ؟ »

فوجم هنيهة ولم يجب فراراً من الكذب ثم قال « كلا يا سيدي وانما لبست هذا الثوب لسبب سأعرضه على مولانا البطريرك »

قال « حسناً . ولكن غبطته مشغول الآن ربما لا يرضى بمقابلة احد .. »

فاطرق زكريا ووجد نفسه غير قادر على الصبر فقال « اود مقابلته الساعة واذا اذنت ان تسأله لعله يسمح بمقابلتي فاني قادم اليه بمهمة »

قال « احسبك قادماً من بلاد النوبة .. »

قال « كلا »

ففهم الرئيس انه يكتم شيئاً لا يريد التصريح به فاستمهله ريثما يبعث الى البطريرك . فمكث زكريا حتى عاد الرسول وهو يقول « ان غبطة البطريرك ليس في غرفته »

فقال الرئيس « كيف ذلك ؟ الم يتناول الفطور ؟ »

قال « يظهر انه لم يأكل اليوم »

فهز الرئيس رأسه هزة الاسف وقال « لم أر غبطته في قلق مثل هذا القلق منذ عرفته .. سامح الله من سببه له » قال ذلك وندم عليه فابتدر الرسول قائلاً « ابحث عن غبطته في القصر لعله ذهب الى هناك فقد رأيته يكثر التزداد الى كنيسة مار ميخائيل هذين اليومين »

فذهب الراهب الرسول وعاد وهو يقول « نعم انه في القصر .. وقد كلفت شماسه ان يسأله عن عزم اخينا مقابلته فقال « ان غبطته لا يقابل احداً الآن لانه في شاغل خاص .. »

فرأى زكريا ان يقتحم هذا الامر ويطلب مقابلته لاعتقاده الدالة عليه منذ عرفه في مصر فوقف زكريا وقال للرئيس « يأذن سيدي الرئيس ان يرافقني الاخ الى الشماس

وانا استأذنه »

فاشار الرئيس الى الراهب فمشى مع زكريا حتى خرج من تلك الدار واطل على القصر الذي ذكرناه وهو اشبه بالابراج منه بالقصور فوجد السلم منصوباً عليه فصعد الراهب وزكريا في أثره حتى وصلا الى الطبقة العليا فاستقبلهما الشماس وتصدى لهما ولسان حاله يقول « الم أقل لكم ان غبطته مشغول ؟ »

فلما رآه زكريا عرفه وتذكر انه التقى به مراراً فتقدم اليه وحياه فلما سمع صوته عرفه فقال « زكريا ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جئت لاقبل انامل البطريرك »

فتنهد وقال « انه يصلي في معبد مار مخائيل .. لا يدخل عليه احد »

قال « ولا انا ؟ فقد قطعت السهل والجبل وتحملت المشقة من طاء النمل الى هنا ألا يؤذن لي بمشاهدته ؟ »

فلما سمع ذكر طاء النمل تذكر اجتماعه بصاحبها مرقس هناك فقال « واين هو المعلم مرقس ؟ »

قال « هو في الفسطاط .. استأذن لي البطريرك في الدخول .. »

قال « ما ذا اقول له »

قال « قل له ولدك زكريا خادم دميانة يطلب تقبيل يديك »

قال « وهل يكفي هذا لتعريفك ؟ »

قال « يكفي »

فدخل الكاتب وعاد ووجهه منبسط وقال « ادخل » ومشى بين يديه حتى اقبل على معبد مار مخائيل واشار اليه ان يتقدم ورجع

الفصل السادس والاربعون

حديث ذو شؤون

اطل زكريا على تلك الكنيسة الصغيرة وهي غرفة واحدة قسمت الى هيكل وخورس بحاجز من خشب لا يبلغ السقف قائم بخمسة اعمدة عليها بعض النقوش والصور . وكان يتوقع ان يرى البطريرك واقفاً الى المذبح للصلاة في وسط الهيكل فلم ير غير قلنسوته هناك فوقف لعله يراه قادماً او يسمع صوته يناديه واذا هو قد أطل من وراء الحاجز فاجفل زكريا عند رؤيته لما في وجهه من التغير وهو حاسر الرأس وقد تدلى شعره على قفاه وخديه وتجعدت لحيته واحمرت عيناه كأنه آت من وراء موقد تكاثف دخانه ولما وقع بصره على زكريا دار من وراء الحاجز حتى خرج اليه وهو يقول « زكريا ! من اين انت آتٍ ؟ »

فتهيب عند سماع صوت البطريرك مع ما شاهده في وجهه من آثار التهيج واكب على يده ليقبلها باحترام فمنعه فوقف مطرقاً وقد أحنى رأسه وقال « اني آتٍ من الفسطاط ياسيدي »

قال « كيف فارقت اسقفها ؟ » وتشاغل باصلاح شعره وظهر من غنة صوته انه يضمر شيئاً

فادرك انه يشير الى كتاب كان قد كتبه اليه يستنجده فيه على ذلك الاسقف فأنجده ولم تنفع نجدته فخاف زكريا ان يكون قد ساءه ذلك فقال « فارقته في خير »

فامسك البطريرك يد زكريا ودعاه الى الجلوس بين يديه وجلس على كرسي فتباطأ زكريا في الجلوس اجلالاً لمقام البطريرك فالح عليه فقعد على الارض مطرقاً متأدباً فقال البطريرك « فارقت اسقف الفسطاط في خير . . وكيف فارقت تلك الفتاة المظلومة ؟ »

قال « انما جئتك بشأنها يا سيدي » وتنهد وسكت ثم قال « ان هذه المسكينة قد توالت عليها النوائب والاحن . . واذا سألتني عنها قصصت حديثها عليك غير اني التمس من مولاي البطريرك ان يأذن بسؤال ارجو ان لا يضن بالجواب عليه — هل اسأل ؟ »

فتنهد البطريرك تنهداً ختمه بزفير طويل ثم قال « ستسألني عن امور استغربتها فيَّ . . ستسألني عن حالي . . أليس كذلك ؟ »

قال « بلى ياسيدي .. كنت قادماً اليك بمهمة استنجدك فيها فشغلت عنها بما اراه فيك من الانقباض والغضب وعهدي اننا في زمن صاحب مصر الحالي ابن طولون في امان وسكينة فهل حدث تغيير لا اعلمه ؟ »

قال « حدث اشياء كثيرة اساء بها ابن طولون معاملتنا وبالغ في اضطهادنا بما لم يسبق الى مثله سلفاؤه الذين كنا نسمع بظلمهم ونشكو جورهم .. ولكنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه .. ان الشر جاء من عندنا .. جاء من ابنائنا ... هم الذين ساقوا هذا البلاء علينا .. » قال ذلك ولحيته ترقص من الغضب

فتهيب زكريا ولم يجسر على الاستيضاح فظل ساكتاً فاستأنف البطريرك الكلام قائلاً كأنه يريد تغيير الموضوع « كيف اتيت الى هذا المكان ؟ هل اتيت وحدك ؟ »

قال« نعم ياسيدي » وذكر ماجرى له وما اصاب الراهبين واحمالها فتحقق ان لحادثتهما علاقة بما يشير البطريرك اليه فقال « اصطحبت ركباً آتياً باحمال المؤونة الى هذا الدير »

فقطع البطريرك كلامه قائلاً « وما ذا جرى لهم ؟ اين هم ؟ »

فقص عليه حديثهم باختصار ولما ذكر كلام ذلك المهجان عن تغير ابن طولون على الاقباط قطع البطريرك كلامه قائلاً « هذا ما اشرت اليه في اثناء حديثي » ورفع رأسه وقال « ويلاه ... آه يا ربي ومخلصي لماذا اغلظت قلوب حكامنا علينا »

فازداد زكريا رغبة في معرفة الحقيقة فقال « وما الذي جرى يا سيدي .. لقد شغلت بالي .. »

قال « ماذا اقول لك وقد بعث الي ابن طولون بالامس يطلب مالاً قال هو في حاجة اليه ليرسله الى الخليفة في بغداد » ومد البطريرك يده الى جيبه واستخرج درجاً فتحه وقال « هل تقرأ القبطية »

قال « نعم يا سيدي اقرأها »

فدفع الدرج اليه وقال« اقرأ »

فتناوله زكريا وقرأ فيه ما ترجمته « انت تعلم ما هو واجب علينا من تادية اموال الجزية الى خزينة الخليفة ببغداد صاحب هذه الديار مع ما هو عليه الآن من الاحتياج الى نفقات الحرب . فمن كان في مركزك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من نفقات الطعام واللباس . وقد علمت انك ذو ثروة طائلة من نقود وآنية ذهب وفضة وانواع الاقمشة الحريرية وقد استدعيتك بوقار لا باضطرار فادفع ما لديك لابعث به الى الخليفة فتحظى مني ومنه

بمنة جزيلة » (١)

فلما فرغ زكريا من القراءة دفع الدرج الى البطريرك وقال له « من اين تاتي بهذه المطالب ؟ »

قال « لا ادري .. وقد كتبت اليه اشكو عذري وفقر الاديرة فلم يصغ . وفي عزمي ان أوسط كاتب المادراني في ذلك »

فلما سمع زكريا اسم كاتب الماردانى تذكر اسطفانوس فاطرق وتغيرت سحنته فادرك البطريرك فيه ذلك وقال « ما بالك يا بني ؟ ما الذي غيرك ؟ »

قال « تذكرت امراً جرى لنا في الفسطاط وحديثاً سمعته منك فلاح لي ان هذا التعدي ليس اصله من ابن طولون »

قال « ألم أقل لك ذلك ؟ .. انهُ من أبنائنا .. » وتنهد وقال « لقد اطلت الكلام واطلقت لنفسي العنان معك ولم اخاطب أحدًا سواك بهذا الامر .. لا ادري كيف وجدت راحة بالحديث معك .. هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

فتململ زكريا وبالغ في التأدب وقال « لا اجهل ضعتي وتنازل غبطة البطريرك في محادثتي فان مثلي لا يحلم بهذا الاكرام .. »

فقطع البطريرك كلامه قائلاً « كلا . ليس هذا مرادي .. وليس في النصرانية تفاضل بين ابنائها . وما البطريرك الا والد والرعايا اولاده لا فرق بين خادمهم ومخدومهم . وزد على ذلك اني استلذ الحديث معك وارتاح لمباسطتك وبناء عليه فاني احب ان اطلع على ما عندك . هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

قال « اذا سمحت لي قلت ما يخطر ببالي » قال « قل »

قال « اتذكر يا سيدي يوم كتبت اليك استنجدك على اسقف الفسطاط ؟ »

قال « نعم اذكر .. وقد كتبت اليه اوصيه بالفتاة خيرًا »

قال « اظن كتابك ساءه ولا يخلو ان يكون حمله غضبه على الوشاية »

فقال البطريرك « لا يخلو ان يكون ذلك ساقه الى النكاية بي .. ولكني اعرف سبباً آخر كان له تاثير اعظم . ومنه يتبين لك اننا نحن معشر المسيحيين نحمل حكامنا المسلمين على ظلمنا .. وما ذلك الا من فساد نياتنا وكثرة خطايانا .. » قال ذلك وتنحنح وبلع ريقه فتطاول زكريا لسماع ما سيقولهُ البطريرك

---

(١) الخريدة النفسة ٧٤ ج ٢

فقال البطريرك « السبب الآخر الذي اعرفه اني دعيت مع رهط من الاساقفة لتكريس كنيسة جديدة في جهة دنشور من ابرشية سخا فتأخر اسقف هذه الابرشية عن الحضور فبدأت بالصلاة قبل حضوره فلما جاء غضب وهجم عليّ وانا اقدم القربان المقدس وخطفه من بدي والقاه على الارض وخرج فعقدت مجمعاً حكم بقطعه من وظيفته فاضمر لي السوء ودس الى ابن طولون ان عندي اموالاً كثيرة فبعث اليّ ابن طولون بذاك الكتاب .. ولكن لا بأس ان الله لاينصر الظالمين والسيد المسيح لا يتخلى عن رعيته »

ووقف البطريرك بغتة فوقف زكريا حالاً وتحفز للخروج فامسكه البطريرك بكتفه وقال « تعال معي » ومشى به نحو الحاجز الذي كان البطريرك وراءه فادخله الهيكل ولم يقع بصر زكريا على ماهنالك حتى اجفل وتراجع والتفت الى البطريرك لفتة استغراب وعيناه شاخصتان من الرعب فقال له البطريرك « لا تخف يابني ان هذه الجثث التي تراها امامك هي جثث ابائنا الابرار اسلافنا البطاركة الذين تقدموني على هذه الديار[1] .. وقد حفظت محنطة هنا احتفاظاً ببقاياهم ولما اشتد بي القلق في الليل الغابر بكرت في هذا الصباح ففتحت هذه التوابيت وجعلت اتفرس بهذه الوجوه لاقترب بتصوراتي من العالم الثاني واعملت الفكرة عسى ان يفتح عليّ برأي ينقذني وينقذ اولادي الاقباط من هذه الورطة وشعرت وانا منفرد بهذه الرمم كأني في مجلس شورى مجرد عن هذا العالم .. وكم تمنيت لو نطقت الجثث ولكني استرشدت بارواحها »

الفصل السابع والاربعون

حديث زكريا

وكان زكريا واقفاً وهو يرتعد من هول ذلك المنظر الرهيب ولم يكن يعلم ان البطاركة تحفظ جثثهم هناك على هذه الصورة .. وتفرس بها فرآها لا تزال محفوظة كما تحفظ محنطات الفراعنة واذا هو بالبطريرك قد تناول قلنسوته وكان قد وضعها على المذبح فلبسها وقد اشرق وجهه وذهب انقباضه فلما رآه زكريا منبسط الوجه سرّي عنه وآن له ان يفاتحه بما جاء من اجله ولكنه تمهل حتى يرى فرصة مناسبة

(1) Butler, I. 304

اما البطريرك فتحول للخروج من ذلك المعبد وهو يقول « لقد آن لك ان تقص علينا ما جئت من اجله يا زكريا »

فاستبشر وقال « هل اقول الآن ؟ »

قال « قل ولكنني لم اسألك عن هذا الثوب الذي عليك . . اي متى دخلت الرهبنة» قال ذلك ومشى وزكريا الى جانبه والوراء

قال « لم اترهب يا سيدي ولكنني تنكرت بهذا اللباس في اثناء الطريق وقد اخذ اولئك اللصوص سائر ثيابي فلم استطع تبديله »

قال « اتعلم ان هذا التنكر بعث على زيادة النقمة عليك ؟ »

فانتبه زكريا لما سمعه من ذلك المجان فقال « علمت ذلك من كلمة قالها احد اللصوص ولكنني لم افهم السبب »

فقال « اتحب ان تعرف السبب ؟ » وصفق فجاء شماسه مهرولاً فقال له « انزل بنا الى الطبقة السفلى لنستخرج الكتاب الذي جاءنا بالامس من ملك النوبة »

فمشى الشماس امامهما وتبعاه فنزل بهما في سلم سري داخل القصر حتى بلغ الى حجرة رأيا فيها كتباً متراكمة وفي جملتها صندوق فيه ادراج كثيرة تناول الشماس كتاباً منها دفعه الى البطريرك ففتحه وقال « هذا كتاب ملك النوبة ارسله الينا يدعونا فيه الى خلع طاعة المسلمين والاتحاد معه عليهم باسم دولة الروم . . وقد علمت من نصه انه ارسل كتاباً قبله لم يصلنا فالظاهر انه وقع في ايدي المسلمين واطلعوا عليه . وقد فهمت من رسول ابن طولون انهم عارفون بهذه المراسلات فظنوني موافقاً هذا الملك على غرضه وانا بريء من ذلك لاني لا أرى فائدة منه فالظاهر انهم لما رأوك بهذا اللباس وانت نوبي ظنوك رسولاً اليّ من ملك النوبة »

فانتبه زكريا لذلك السبب وقال « صدقت ياسيدي ان محاولتنا التخلص من سلطة المسلمين لا فائدة منها ولا سيما بعد ان تولى ابن طولون فانه ... »

فقطع البطريرك كلامه قائلاً « انه لا بأس به ورغم ما ذكرته لك من امره معي فاني لا احمله تبعة ذلك وانما التبعة علينا نحن فاننا نحرض حكامنا على ظلمنا بسوء تصرفنا وفساد نياتنا » قال ذلك وهو يكاد يغص بريقه . وكانه اكبر ان يظهر هذا الضعف فعمد الى تغيير الموضوع فقال لزكريا « لقد شغلناك عما جئتنا من اجله وامتد بنا الحديث فقل ما الذي تريده منا »

وكانا قد خرجا من القصر واقتربا من غرفة البطريرك فدعا الرئيس زكريا ان يتبعه الى غرفته فتبعه فدخل البطريرك وجلس واشار الى زكريا ان يجلس ويقول ما يريده فجلس واخذ يقص حديث دميانة وما قاسته من معاملة والدها وخطيبها حتى هربت الى حلوان وكيف سطا البجة على هذا البلد ونهبوه وسبوا اهله وفي جملتهم دميانه وانه جاء ليوسطه في استنصار ملك النوبة لانقاذها

وكان البطريرك يسمع الحديث وهو مطرق يهز رأسه حيناً بعد حين استنكافاً من تصرف مرقس او اسطفانوس فلما سمع خبر اسر دميانة بغت وقال « دميانة ... اسرت ؟ .. انها لا تستحق ذلك لانها تقية ورعة .. كأن فيها بركة من سميتها القديسة دميانة عليها السلام . ولكن الله يجرب خائفيه ... والآن سمعتك تطلب وساطتي لدي ملك النوبة ؟ »

قال « نعم يا سيدي ان لم يكن في ذلك ثقلة عليك »

قال « ذلك واجب عليَّ من عدة وجوه اولاً لاني انما قبلت هذا المنصب لاخدم مصالح شعبي وابذل ما في وسعي لراحتهم وسعادتهم ثانياً لاني احن الى هذه الفتاة واحبها لتقواها وورعها . ثالثاً اني احب ان اجيب ذلك الملك على كتابه ولا اثق بمن يوصل كتابي اليه وانت ولدنا وتعرف تلك البلاد فسأكتب كتاباً ارد فيه على ما كتبه اليَّ بشأن القيام على الدولة اقبح رأيه هذا وادعوه الى الطاعة واذيل الكتاب بالتوصية اللازمة حتى يساعدك في ما تريده »

فطأطأ زكريا رأسه اذعاناً وارتياحاً وسكت . فصفق البطريرك فجاء الشماس فقال له « اكتب الى ملك النوبة كتاباً فحواه كذا وكذا (وذكر الفحوى) وذيله بالوصاية بولدنا زكريا ليساعده في انقاذ ابنتنا التقية دميانة »

فاشار مطيعاً وخرج ثم عاد وبيده صحيفة من القباطي وقد كتب عليها بالقبطية شرحاً طويلاً فتناولها البطريرك وقرأها ووقع عليها واعادها الى الشماس فطواها ولفها بمنديل وختم المنديل ودفعه الى زكريا فتناوله وقبله ووقف واكب على يد البطريرك يقبلها ووضع المنديل في الكيس تحت ابطه مع الاسطوانة العزيزة وقد تهلل وجهه فرحاً وظل واقفاً كانه ينتظر امر البطريرك فقال له « يظهر انك في عجلة ... »

قال « ألا ترى يامولاي ان اتعجل الوصول الى بلاد النوبة لانقاذ دميانة .. ؟ فاني لا اعلم حالها »

قال « صدقت .. بادر الى المسير وليكن الله معك والسيد المسيح ينصرك ويأخذ بيدك .. » واشار بيده اشارة البركة . ثم التفت الى الشماس وقال له « قل للرئيس ان يزود ولدنا زكريا بما يحتاج اليه في طريقه .. » والتفت الى زكريا وقال « كيف تجعل طريقك »

قال « أرى ان اسير في الطريق الذي جئت به في الصحراء الى النيل ثم الازم ضفة النيل الغربية الى الجيزة واستلم طريق الصحراء مع بعض القوافل الى دنقله »

قال « رافقتك السلامة ببركة سيدتنا البتول وسائر القديسين »

الفصل الثامن والاربعون

رفيق السفر

فاكب زكريا على يد البطريرك فقبلها ثانية للوداع وخرج والشماس معه فأعدّ له ما يلزم وصرفه . وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة وقال له عند الوداع « ليس عندنا ركائب نعطيك واحداً منها ولكنك حالما تخرج من الدير تجد قوافل مارة من وادي النطرون تطلب النيل فرافق واحدة منها »

فشكر له نصيحته وظل واقفاً وعلى كتفه كيس فيه الزاد اللازم للطريق فاستغرب الشماس وقوفه وقال له « العلك تحتاج الى شيء »

قال « كلا .. ولكنني تذكرت ما اصابني في مجيئي فينبغي لي ان احتاط منه في رجوعي .. الا تبدلني بهذه الثوب ثوباً آخر اتنكر به ؟ لان الذين لاقونا في مجيئنا رأوني بثوب الرهبنة هذا فينبغي ان ابدله بثوب آخر » .

قال « لقد اصبت في تخوفك . تمهل ريثما اعود اليك » ومضى ثم عاد ومعه بقجة فتحها واذا فيها قفطان وعباءة وقلنسوة وعمامة فقال له « هذه اثواب بعض الجنود وقعت لنا صدفة لعلها تفي بالمطلوب »

ففرح بها زكريا ولبسها وطلب مرآة يرى بها وجهه فاعطاه فنظر فيها فاذا هو قد تغيرت قيافته ولكن وجهه ما زال ينمّ عليه عند التفرس فاقتنع بما كان وودع الشماس فرافقه الى باب الدير وفتحه له فخرج

فلما رأى نفسه في الصحراء اكبر امره وتصور دخول الظلام عليه وهو منفرد

يمشي على قدميه لايدري اين يبيت ولا الى اين يلتجئ . فوقف حائراً وكاد عزمه يحول عن السفر وحده ثم تذكر نصيحة الشماس فطلب طريق وادي النطرون وهو على مقربة منه . وقبل أن يشرف عليه سمع انيناً قريباً فوقف وتلفت ثم مشى الى جهة الصوت فلما اقترب منه رأى رجلاً ملقى على الارض ويداه ورجلاه مشدودة بحبال وهو يستغيث وحالما رأى زكريا قال له بالقبطية « انجدني ايها الجندي .. بحرمة الذي تعبده »

فعلم زكريا انه يخاطبه بالجندية لما راى لباسه لباس الجند فاسرع اليه فاذا هو شاب قمحي اللون عليه ثياب التجار فاخذ في حل الحبال فلما افلت الرجل هم بيدي زكريا واخذ يقبلهما وهو يقول « جزاك الله خيراً يا سيدي »

فقال زكريا « من انت وما هو حديثك »

قال « اني تاجر احمل الملح والنطرون من هذا الوادي ولي قافلة اسيرها بامان ففي هذه المرة جئت مع القافلة فحملنا الاحمال وخرجنا من الوادي في هذا الصباح واذا بجماعة سطوا علينا فساقوا القافلة برمتها وتركوني مقيداً كما رأيتني » وكان يتكلم وهو يكاد يبكي من الاسف

فأثرت حاله في زكريا وازداد خوفاً على نفسه من الخطر فقال « لا بأس عليك يا صاحبي الحمد لله على سلامتك . والآن ماذا تريد ان تفعل ؟ »

قال « لا اريد شيئاً لاني واثق بضياع اموالي واحمالي واظن اللصوص سيقتلون رجالي ولا اسف على شيء ما دمت حياً واني اشكر الله على لقائك وانت جندي فهل تعدني انك ترفع هذا الى صاحب مصر ؟ »

فاعتقد زكريا ان تنكره انطلى على الرجل فوعده انه سيفعل ذلك متى وصل الفسطاط ولكنه احب ان يستعينه في امر هذا الرجوع فقال « وكيف السبيل الى الرجوع الآن فقد كان معي جمل تاه مني واصبحت راجلاً كما ترى »

فاطرق الرجل هنيهة ثم قال « اظنني اقدر ان احصل على جمل من مكان قريب وراء هذه الاكمة كنت قد ربطته هناك قبل هجوم اللصوص ولعلهم لم يعرفوا مكانه فيكون باقياً فتركبه »

ففرح زكريا وقال « امكث هنا وانا اذهب للتفتيش عن الجمل »

قال ذلك « واسرع وقلبه يخفق فرحاً بهذه الصدفة حتى دنا من الاكمة فسمع جعجعة الجمل فلم يتمالك عن الضحك من شدة الفرح ووثب حتى قبض على زمامه وحل

عقاله وساقه الى الرجل فوجده في انتظاره فشكره فقال زكريا « ان الله قد ارسلك لانقاذي من العذاب في هذه الصحراء »

فقاطعه الرجل وقال « بل انت ارسلك الله لانقاذي اذ لولاك لمت مقيداً فانا مدين لك بحياتي ولا اقدر اكافئك سوى ان تركب الجمل وانا اقوده »

فقال زكريا « حاشا لله ان اقبل بذلك ‥ ولا حاجة بنا اليه فانا نركب معاً والجمل يحمل ثلاثة واربعة كما تعلم

قال « كما تشاء » واخذا في معالجة الرحل حتى يسعهما وعلق زكريا كيس الزوادة به وركبا وسارا على حذر الى المساء فباتا بعد ان تحادثا ملياً وزكريا لايرى من ذلك الرجل الاكل لطف فشكر الله على هذه الصدفة وتعب ضميره لانه خدعه بتنكره وحدثته نفسه ان يبيح له بحقيقة امره لكنه تراجع خجلاً من الاعتراف بالكذب واجل ذلك الى آخر الطريق وكان زكريا يخاف ان يلتقي باللصوص الامس فلم يلتقيا باحد

و بعد يومين وصلا الى ضفة النيل فقال التاجر « هل تحب ان نسافر الى الفسطاط في النيل »

قال « مالنا والنزول الماء دعنا نواصل السير على هذا الجمل فقد استحسنت مشيته »

قال « كما تشاء واذا كنت قد استحسنت هذا الجمل فمتى وصلنا الى الفسطاط تركته لك هدية »

فسر زكريا لهذه الهبة لشدة احتياجه اليها وتوهم ان الرجل يبالغ في اكرامه طمعاً في مساعدته لدى ابن طولون وكان يتألم من ذلك لان ضميره حي يأبى ان يعتقد الناس ماليس فيه او يتوقعوا منه مالا قدرة له عليه وانما اصبح همه ان يتخلص من ذلك الرفيق . وهم ان يبيح له بحقيقة غرضه مراراً ثم تراجع . وما زالا راكبين يسير بهما الجمل على ضفة النيل الغربية يقتربان من النيل ساعة و يبتعدان اخرى وزكريا يزداد استئناساً بالرجل وامتناناً له حتى اطلا على الاهرام فلم يبق لزكريا حيلة بالسكوت وقد بلغ الجمل الى محاذاة الهرم الكبير ولم يبق الا ان يتحولا نحو الجيزة ويعبرا الجسر الى جزيرة الروضة ومنها بجسر آخر الى الفسطاط

وصلا الهرم نحو الاصيل والرجل يستحث الجمل حتى يدرك الفسطاط قبل الظلام فقال زكريا « ما افخم هذه الاهرام وما اجمل الجلوس عندها والاشراف على البساتين والمياه تتخللها » ففهم ذلك ان زكريا يريد النزول فقال « ننزل هنا » واناخ الجمل ونزلا وزكريا يعمل فكرته و يكد قريحته ليستنبط حيلة يستبقي بها الجمل معه هناك . وهو في ذلك قال له

رفيقه « بالحقيقة ان المبيت هنا جميل فاذا وافقتني عليه قضينا هذا المساء هنا وفي الصباح نمضي معاً الى الفسطاط او كما تشاء »

فاستحسن مسايرته وقال « لقد نطقت بالصواب · ولا اخفي عنك اني لا اقدر ان انزل معك الى الفسطاط لان لي غرضاً احتاج الى قضائه وراء الجيزة »

فابتدره قائلاً « شعرت انك تريد شيئاً تكتمه عني فنحن اخوان لا ينبغي ان تكتمني امرًا تطلبه فقد قلت لك ان حياتي منة منك وانا انما ارغبك في الذهاب الى الفسطاط معي لا كافئك على صنيعك فان المال لا قيمة له عندي فاذا كنت تستثقل النزول فامكث هنا واذن لي ان اغيب عنك ساعة ثم اعود اليك بهذا الجمل وازودك بتذكار يدلُّ على اعترافي بفضلك »

فكاد زكريا يطير من الفرح لما آنسه من السهولة في معاشرة ذلك الرجل فلم يعد يعرف كيف يشكره وقال « لا فضل لي في شيء فعلته بل الفضل لك في نقلي من تلك الصحراء على جملك »

فقطع كلامه قائلا « بل هذا جملك استاذنك في ركوبه الى الفسطاط واعود اليك به فهل أجدك هنا ؟ »

قال « تجدني عند قاعدة هذا الهرم الكبير » فودعهُ ومضى

الفصل التاسع والاربعون

الخيانة

ومكث زكريا كانهُ في حلم وافتقد الاسطوانة والكتاب تحت اثوابه فوجدها هناك ضمن الكيس المعلق في عنقه · فاطمأن باله واخذ يتمشى حول الهرم ثم تجاوزه الى اهرام كثيرة مبعثرة هناك حتى وصل ابا الهول فتأمله حيناً ثم عاد ورأى الشمس تنحدر وتكاد تغيب فاحس بالوحشة لانفراده في تلك الرمال ثم غربت الشمس واخذ الظلام تتكاثف فاستبطأ صاحبه وندم لانه لم يسأله عن اسمه ومسكنه · على ان ذلك لم يهمه بقدر اهتمامه بالحصول على الجمل لان الدراهم ذهبت منه في بادية النطرون مع الجمل قبل دخوله الدير واصبح لا يملك شيئاً وعدَّ عثوره بذلك التاجر نعمة خصوصية من نعم الله

وملَّ زكريا الانتظار وتعب بصره من التشوف عن بعد لعله يرى صاحبه قادماً ثم

صعد على بعض درجات الهرم الكبير حتى وصل الى مدخله فوقف بباب المدخل وعيناه شائعتان نحو الجيزة لعله يرى شبحاً او يؤانس نوراً و يده لا تكاد تفارق ابطه يتلمس الكيس الذي فيه الاسطوانة والمكتوب . ونظراً لانفراده في ذلك الخلاء سرحت افكاره في عالم الخيال فتصور ان اسطفانوس علم بوجوده هناك فارسل من يقبض عليه فلما تصور ذلك اختلج قلبه في صدره لانه اعزل ولا طاقة له بالدفاع . وانما يهمه من امر الدفاع ان لا تذهب الاسطوانة منه ومد يده واستخرج الكيس من تحت ابطه وتفقد ما فيه جيداً مخافة ان يكون قد خدع باللمس فرأى الاسطوانة والكتاب . وهو يهم ان يعيد الكيس الى عنقه سمع خربشة فاقشعر بدنه لانفراده ووحشة المكان وكثرة الافاعي والحشرات في تلك الخرائب فاصاخ بسمعه والكيس لا يزال في يده وقد جمد الدم في عروقه فاذا هو يسمع وقع اقدام يتخلله همس فانزوى في مدخل الهرم وهو يحاول الاختفاء لان المدخل المذكور ضيق وعميق كانه قناة مربعة لا يدخله الانسان الا سحفاً وهو جالس او نائم . فتربع زكريا عند المدخل وتنصت وشاعت عيناه لجهة الصوت فرأى بضعة رجال قد تزملوا بالعبي يتقدمهم رجل يخاطبهم همساً وهو يقول « قد تركته هنا ولا بد من وجوده لعله نائم »

ولم يكد زكريا يسمع الصوت حتى عرف انه صوت صاحبه التاجر فانتبه لنفسه وشك في ذلك الرفيق و بالغ في الانزواء وقد توسد المدخل مستقبلاً ارضه بصدره بحيث يكون رأسه مطلاً الى الخارج . والمدخل مائل نحو الداخل بانحدار فخاف اذا تراخى ان يزلق الى جوف الهرم وهو لا يعرف قراره والناس يتحدثون ان الجان تسكنه . ولامست ساقه ارض المدخل فاقشعر بدنه من برده وخيل له انه لمس حشرة ولولا اشتغال خاطره بما سمعه من تهامس اولئك الرجال لما تجاسر على المكوث هناك لحظة • كل ذلك وهو قابض على الكيس بيده وكان القوم قد اقتربوا نحوه وهم يتفرسون في ما حولهم ولم يخطر لاحد منهم ان الرجل الذي يبحثون عنه في واجهة الهرم وانه مختف في مدخله ولا هم يعرفون له مدخلاً يختفي فيه الرجل والرجلان . فلما رآهم على مقربة منه امسك نفسه واصاخ بسمعه فاذا احدهم يقول « اين هو اننا لا نرى بشراً كانك خدعت المعلم اذ ربما لم يكن الرجل هو وقد خدعك »

فقال « لا ريب انه بعينه وقد رأيت الاسطوانة معلقة في عنقه وسترونه وترونها »

ثم رفع بصره الى الاعلى كانه ينظر الى المدخل فاستولى الخوف على زكريا لعلمه انه لا يقوى على الدفاع ولا الفرار وخصوصاً بعد ان تبين القوم وتحقق انهم مدججون بالسلاح

ولم يبق عنده ريب ان رفيقه بالامس جاسوس استمهله ريثما وشى به الى المعلم مرقس فبعث من يقبض عليه . وعلم ان المعلم مرقس لا يهمه من امر ذلك القبض الا الحصول على الاسطوانة التي اخذها زكريا من منزله لان كل آماله فيها وهي ساعتئذٍ في يده فاخذ يفكر في ماذا يفعل بها . واذا ببعضهم يتسلق الاحجار كانه يهم بالصعود الى باب الهرم فازداد خفقان قلب زكريا وضاق نفسه حتى كاد يغمى عليه وعلم انه غير ناج من ذلك الشرك فاخذ على نفسه اذا ظفروا به ان لا يظفروا بالاسطوانة لعلمه ان مرقس اذا ظفر بها معه قتله حالاً واما اذا قبض عليه بدونها يستبقيه ليساعده في البحث عنها . فتلمس الحائط الى جانبه فوجد حفرة او هو شق بين الاحجار عميق فادخل الكيس فيه وغطاه بحجر حتى تحقق انه لا يظهر لاحد . ثم تلملم وتجمع حتى جلس القرفصاء بباب الهرم كأنه يتحفز للوثوب وكان الرجل الصاعد بعد ان تسلق درجتين او ثلاثاً وقف على حجر مرتفع ونظر الى ما حوله ثم خاطب دليلهم قائلاً « ان اليهود لم يصدقوا عمرهم حتى يصدقوا اليوم .. ها انا عند الهرم فأين الرجل المطلوب .. ووالله اذا لم نجده لتذوقن العذاب »

فعلم زكريا ان صاحبه يهودي احتال عليه . فتولته الرعدة وامسك انفاسه مخافة ان يدهمه عطاس او سعال فينكشف امره واذا هو بالقوم قد تحولوا من هناك وهم يقولون « انه ليس هنا فلنبحث عنه في مكان آخر » ومشوا نحو الهرم الثاني فما صدق زكريا انهم تحولوا من امامه حتى خرج من المدخل وتنفس الصعداء ومشى مشية المتلصص ونزل حتى صار على الارض امام الهرم الكبير فتربص حيناً وهو قاعد حتى ظن القوم بعدوا فنهض ومشى يطلب الفرار نحو البساتين يختبئ فيها الى الصباح فاذا نجا يعود الى الكيس

ولم يكد يمشي خطوات قليلة حتى سمع منادياً يقول له « قف عندك والا قتلت »

فلم يجبه وظل ماشياً كانه يتجاهل وركبتاه ترتعدان واذا بالرجال اسرعوا اليه وحدثته نفسه بالفرار ولكنه يعلم عجزه عن ذلك لتعبه وضعفه على اثر تلك الرعبة فرأى ان يقف وقوف المتجلد فالتفت الى جهة الصوت وقال « من تعني ؟ »

فتقدم اليه اربعة رجال علم من قيافتهم عن قرب انهم من الجند المصري ومعهم ذلك اليهودي وهو يقول « هذا هو امسكوه »

فنظر زكريا اليه وقال « تباً لك من خائن ... » ثم التفت الى الرجال وقال « لا حاجة بكم الى القبض عليَّ فاني اسير بين يديكم وانا اعزل »

فتقدم احدهم وبيده حبل وبجانبه رجل آخر واخذا يشدان وثاقه ويقولان قد امرنا

ان نأتي بك موثقاً »

فلما شدوا وثاقه ساقوه بين ايديهم الى مكان آخر وراء الهرم كانوا قد خبأوا فيه افراسهم واركبوه واحداً منها وهم حوله يخفرونه وساروا يطلبون الفسطاط

الفصل التاسع والاربعون

مرقس

وصلوا الفسطاط في اواخر الليل وادخلوا زكريا غرفة منفردة وقاموا يخفرونه الى الصباح . اما هو فمع خوفه على حياته كان يجد تعزية في انقاذ الاسطوانة من يدي مرقس فبات بقية تلك الليلة وهو يفكر في ما مرَّ بهِ وكيف وقع في هذه الشراك بعد ان اوشك ان ينجو وعلم ان المكيدة كلها من ذلك اليهودي وادرك انهُ مرسل من قبل مرقس او اسطفانوس يتعقبه . واستغرب كيف انطلت عليه حيلته حتى وقع في الامر ولكنه شكر الله على نجاة الاسطوانة

وفي الصباح باكراً سمع الباب يفتح ودخل عليه رجل لم يقع بصره عليه حتى اجفل لانهُ المعلم مرقس لكنه تجلد ولم يبد حراكاً فقال له مرقس « اهذا جزاء التربية والخبز والملح ؟ تفسد عليَّ ابنتي وتفرُّ بها حتى اضاعت مستقبلها واصبحت شريدة طريدة ؟ »

فظل زكريا ساكتاً مطرقاً فحسبه مرقس ندم على عمله فازداد جرأة عليه فقال « بماذا اجازيك على هذا العمل ان القتل خفيف بجانب ذنبك »

فرفع زكريا بصره اليه وقال « ان القتل لا يخيفني ولا انت تستطيعه . . . ومن كان مثلك لا يخشى باسهُ . . »

فغضب مرقس وقال « تخاطبني بهذه الجسارة وانت خادمي ؟ »

قال « حاشا لله ان اكون كذلك . انما انا خادم تلك الفتاة الطاهرة . . . ذلك الملاك الارضي . انا خادم دميانة وعبدها اكراماً لوالدتها المسكينة وطوعاً لصاحبة الامر . . ولو لا تكفلي بالثبات في تربيتها لتركتها فراراً من عشرة ابيها الظالم »

فحمي غضب مرقس وقال « وتقول اني ظالم ؟ »

قال « الا تعرف نفسك ؟ . هل تجهل معاملتك لابنتك التي تزعم انك نقمت عليَّ

في سبيل الدفاع عن مصلحتها وانت تعلم من هو الذي اضاع حقها ..»

فاستاء مرقس من هذا التعريض وفهم مراد زكريا لكنه تجاهل توصلاً الى مرغوبه فقال «اراك تهذي بكلام لا معنى له .. اتعلم لماذا ساقوك الى هذا المكان وبعد قليل يحملونك الى السجن المظلم اذ تسلم لابن طولون .. أتعلم لماذا؟»

قال «انت تعلم»

قال «انا اعلم .. ساقوك لانك سرقت منزل سيدك واخذت منه التحف والجواهر وفررت بها .. وايضاً لانك تساعد البطريرك ميخائيل على تواطؤه مع النوبة للقيام على المسلمين»

فلما سمع زكريا قوله هز كتفيه وظل مطرقاً لا يظهر اهتماماً فاستغرب مرقس ذلك منه وقال «يظهر انك لم تدرك مقدار ما يهددك من الخطر بسبب هذه التهم . وانا مع كثرة اساءتك اليّ لا ازال اميل الى الرفق بك اكراماً للخبز والملح وعليه فقد اوصيت الجند ان يأتوا بك الى هنا قبل حملك الى ابن طولون لكي استطيع انقاذك . واعلم ان نجاتك انما هي في يدي اذا شئت اطلقتك واذا شئت سلمتك الى الحكومة وانا ميال الى اطلاق سراحك اذا ظهر لي ندمك على ما فرط منك وسلمت اليّ ما اخذته من منزلي ... ليس كل ما اخذته فانا اكتفي منك بالاسطوانة فان فيها اوراقاً تهمني ولا فائدة لك منها فاذا اطعتني وسمعت نصيحتي نجوت من هذه الساعة والاّ فاني مسلمك الى ابن طولون وانت تعلم عاقبة ذلك»

فقال «اما ندمي فاني لم اعمل عملاً اندم عليه واما الاسطوانة فلا علم لي بها كما اني لا اعرف شيئاً عن الجواهر التي ذكرتها . وانت تعلم اني لم آخذ شيئاً ولا انا ممن يطمعون بالاموال وليس للاموال قيمة عندي اذ ليس لي ولد اورثه واياي اصبحت قصيرة لا تستحق حشد الاموال ولا مطمع لي في ملاذ الدنيا وشهواتها مثل غيري»

فقطع مرقس كلامه قائلاً «مالنا وللجواهر اني اكتفي بالاسطوانة التي فيها الاوراق هاتها وعليك الامان»

قال «من اين آتي بها؟ ليس عندي اسطوانات ولا ورق»

قال «او تنكر ايضاً؟ . انها في جيبك»

قال «كلا ليس معي شيء»

فصفق مرقس فدخل جندي كان واقفاً بالباب فاومأ مرقس الى زكريا وقال «فتشه

فانك تجد معه اسطوانة هاتها »

فتقدم الجندي واخذ يفتش اثواب زكريا قطعة قطعة ومرقس يقول له « فتش تحت اثوابه بين ذراعيه وجنبه » وهو يفتش وزكريا باسط ذراعيه ومرقس يراعي حركاتهما ويتفرس ويدقق حتى اذا تعب الجندي من التفتيش ولم يجد شيئاً اشار اليه مرقس ان يخرج فخرج وعاد الى زكريا وقد امتقع لونه من الغضب والفشل لانه كان على ثقة من وجود الاسطوانة معه فقال « اين ذهبت بالاسطوانة يازكريا »

قال « ليس عندي اسطوانات ولا افهم ما تقول »

فاطرق مرقس وخطر له انه اعطى الاسطوانة الى دميانة اذ ليس ثم من يثق به سواها فقال « اين دميانة »

فضحك زكريا ضحكة استخفاف وقال « تأخرت في السؤال عن مكان ابنتك يا ايها الوالد الشفوق .. وانت تسألني عنها الآن لا غيرة عليها ولكنك تظن الاسطوانة عندها فكن على يقين انها لا تعرف شيئاً من امرها »

فاعاد مرقس السؤال « اين دميانة »

قال « دميانة .. لا اعرف مقرها »

قال « كيف وانت فررت بها .. ماذا جرى لها ؟ »

فحدثته نفسه ان يخبره عن مكانها لكنه خاف ان يستعين مرقس بذلك على الفتك بها فيذهب سعيه هدراً فقال « لا اعرف اين هي الآن »

قال « يظهر انك تبحث عن حتفك بظلفك .. اصبر وسترى عاقبة امرك » قال ذلك وخرج واغلق الباب وراءه بشدة . فعلم زكريا انه مأخوذ الى السجن بعد قليل وفي الواقع لم تمض هنيهة حتى جاء الجند فحملوه الى القطائع وزجوه في السجن ريثما يطلب . فلنتركه تحت التحقيق ولنعد الى دميانة مع البجة

الفصل الخمسون

البجة ودميانة

البجة جيل من الناس كانوا يقيمون في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر تبدأ بلادهم

من الشمال بقرية يقال لها حزبة معدن الزمرد في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاث مراحل . وكان لذلك المعدن شأن في التاريخ القديم يستخرجون زمرده من مغائر بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول . وآخر بلاد البجة اول بلاد الحبشة وابعد بلادهم قرية يقال لها هجر . وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي ويقيمون باخبية من الجلود وكانت انسابهم من جهة النساء (١) أي ان الرجل منهم ينتسب الى والدته وهي الامومة في الاجيال المتوحشة . وهم قبائل كثيرة على كل قبيلة رئيس وكانوا من عهد الفراعنة يهاجمون ضفاف النيل في الصعيد فينهبونها ويعودون الى البادية فلا تقوى الدولة على اللحاق بهم . وكانت توادعهم لانها تحتاج اليهم في استخراج المعادن ليحفروا المناجم او يكفوا اذاهم عنها وكذلك الروم لما ملكوا مصر . ولما فتح المسلمون مصر لم يحاربوهم حتى كانت ايام ابن الحبحاب في اوائل القرن الثاني للهجرة فهادنهم على مال يؤدونه الى بيت المال وتوالت المخابرات والغزوات بينهم . ولما اختل شأن مصر في اوائل الدولة العباسية تطاول البجة في تعديهم حتى صاروا يسطون على ضواحي الفسطاط فلما تولى ابن طولون صار يتقي غزواتهم بحامية يقيمها وراء المقطم

فاتفق في اثناء اقامة دميانة في حلوان ان شرذمة منهم سطت عليها ونهبتها وقتلت كثيرين من اهلها وفي جملتهم قعدان العربي وحملوا ابنته ودميانة معها سبيتين . حملوهما على الجمال وهي سريعة الجري شديدة العدو صبورة على العطش يسابقون بها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فاخذها صاحبها وان وقعت الى الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فاخذها صاحبها

فلما رأت دميانة نفسها على الجمل وقد ادير راسه نحو البادية انتبهت لهول المصاب واخذت تبكي وتستغيث وتتضرع الى الله ان ينقذها وكانت لما رأت اولئك القوم دهشت لخشونتهم لانها رأت وجوهاً صفراء واجساماً رقاقاً وبطوناً خماصاً اكثرهم عراة الصدور يدهنون جلودهم بالشحم وشعورهم متلبدة متكاثفة بما عليها من آثار الشحم يحملون رماحاً طول الواحد منها سبعة اذرع عوده اربعة اذرع وحديده ثلاثة . يحملون درقاً من جلود البقر مشعرة وبينها درق مقلوبة من جلود الجواميس . وبعضهم يحملون قسياً عربية غلاظاً من السدر والشوحط اذا عدا احدهم تحسبه من الجن لدقة ساقيه وسرعة جريه

(١) المقريزي ١٩٤ ج ١

فلا تسل عن حالها من الدهشة والخوف ولم تعلم برفيقتها فانها كانت على جمل آخر. ولم يمسهما احد بسوء وانما حملوها في جملة السبي وتبطنوا الصحراء وهم يتراطنون بلغة ليست بالقبطية ولا النوبية ولا العربية فلم تفهما مايقولون. ولما امسى المساء حطوا الرحال ونصبوا خيمة نزل فيها رئيس تلك العصابة وهو يمتاز عنهم بلباسه الملون وبسدرته المزركشة وقد تقلد سيفاً مفضضاً وكان راكباً جواداً اصهب. وانزلوا السبايا في خيمة فلما اجتمعت دميانة بابنة فعدان واسمها عليا استأنست بها وجلستا تتباكيان وكل منهما تعزي الاخرى ولا يعزي دميانة غير الامل بالنجاة باعجوبة من الله

ولما غربت الشمس وساد الظلام اوقدوا ناراً بين يدي الخيام للاستضاءة واتى رجل يعرف القبطية تقدم الى دميانة ورفيقتها واخذ يطمئنهما ويحبب اليهما تلك الصحراء. ثم اتاها بالطعام وهو اللحم واللبن فعافت نفس دميانة الطعام ولكنها اضطرت من العطش الى شرب بعض اللبن. ولما سمعت كلام الرجل سكن روعها لانها آنست منه تشجيعاً ورأت فيه اريحية فقالت له « الى اين انتم سائرون بنا ؟ »

قال « اننا سائرون الى مولانا الامير ابي حرملة كبير امراء البجة »

قالت « اين هو ؟ »

قال « هو على مسافة بضعة ايام من هذا المكان .. لا تخافي اذ لا يستطيع احد منا ان يمسك بسوء ومثلك يا جميلة لا ينالها الا الامير »

فلما سمعت قوله اقشعر بدنها ولكنها تجلدت والتفتت الى عليا فرأتها مطرقة ولم تكن في مثل ذعرها لانها تعودت عيشة البادية وعرفت بعض طباع البدو. اما الرجل فلما رآها تلتفت الى رفيقتها ضحك فبانت اسنانه بلا قواطع مع صغر سنه فكان له منظر غريب ثم قال « اما هذه العربية فربما اختار الامير ان تكون عنده او لعله يهبها الى احد امرائه او يستخير الآلهة في شأنها .. » ثم تفرس في فم دميانه وقال « ما اجمل فاك لولا وجود القواطع فيه فان الاسنان الامامية منه تشوه منظره لان هذه القواطع لا تلزم الا للبهائم » واشار الى فمه وقال « انظري الى اسناني فاني من قبيلة تقتلع هذه القواطع لئلا تتشبه بالحمير وليس كل البجة يفعلون ذلك .. اما اميرنا فانه يحب ذوات الاسنان البيضاء والا فانه كان يقلع اسنان نسائه »

فاستغربت دميانة حديثه واستخفت روحه ولكنها ما زالت في اضطراب وقلق. واحس الرجل بخطوات خارج الخيمة فوقف وغير الحديث وتلثم وتحفز للخروج واذا برجل آخر دخل

هو رئيس تلك العصابة له عينان براقتان ووجه نحيف ولكن دلائل الصحة والقوة بادية فيه وتعرف رئاسته من لباسه . ولما راى ذلك الرجل هناك نظر اليه نظر التوبيخ وقال له بلسانهم كلاماً لم تفهمه دميانة ولا عليا ولكنهما فهمتا انه بوبخه ثم قال له قولاً واوماً اليه ان يقوله لهما فقال « ان مولانا القائد يلومني لاني حدثتكما وهذا ممنوع عندنا ويقول لكما ان يطمئن بالكما ولا تخافا »

فاومات دميانة براسها ايماء الشكر وعيناها قد احمرتا من اثر البكاء في اثناء الطريق . فاوعز اليهما بواسطة الترجمان ان ترتاحا وتناما على جلد فرشوه لهما هناك وخرج

فنامت دميانة بعد ان صلت وتضرعت الى السيد المسيح ان يرعاها ويحرسها

وفي صباح اليوم التالي جاءهما الخدم باللحم واللبن فاكلت عليا حتى شبعت اما دميانة فلم تاكل الا قليلاً . وكانت قد تعودت تلك المصيبة نوعاً فانتبهت لنفسها في الصباح ونظرت الى ما حولها فرات انها في صحراء رملية قاحلة وان تلك العصابة مؤلفة من بضعة وعشرين رجلاً معهم الجمال والخيول . ولما اشرقت الشمس ركبوا وجعلوا يطوون البيداء وبالغ اولئك البجة باكرام تينك البنتين والتخفيف عنهما شان اهل البادية في المحافظة على العرض الا ما يحللونه لانفسهم في الحق من الغنائم

الفصل الثاني والخمسون

الاستخارة

قضوا يومين آخرين على هذه الصورة وفي اليوم الثالث اشرفوا نحو الظهيرة على معادن الزمرد فرأوا المناجم وهي حفر يشتغل فيها اناس من البجة بينهم بعض اهل النوبة على نحو ما وصفناهم من العمل تحت الارض وهم عراة الا ما يستر العورة . فلم يهم دميانة النظر الى اولئك القوم وكيف يشتغلون في استخراج الزمرد . ولم يقف الركب الا ريثما ساقوا معهم بعض الماشية مما كانوا قد اختزنوه هناك يكفيهم بقية الطريق الى مقرّ الامير ابي حرملة ورجاله . وفي اليوم التالي نحو الاصيل وصلوا الى نجع كبير عرفوا عن بعد انه نجع الامير وهو مؤلف من عدة خيام من الجلد في وسطها خيمة واسعة مزخرفة وبجانبها خيمة اخرى بشكل القبة من الجلد ايضاً . وبجانب النجع مسارح للماشية من الضان والبقر ولحظت دميانة

ان تلك البقر تمتاز بقرونها الطويلة مما لم تر له مثيلاً في مصر

ولم يكن يهمها شيء من ذلك وانما كانت تحدث نفسها في ماذا عسى ان يكون شأنها مع الامير الذي قالوا لها انها ستكون عنده . واخذ الركب بالتحول واتى بعض الخدم اناخوا جمل دميانة وانزلوها عنه فمشت وفرائصها ترتعد خوفاً وقلبها يخفق ووقفت مطرقة لا تدري ماذا تعمل فاذا بالرجل الترجمان اتى وقال لها « تقدمي معنا الى المعبد حيث نتبرك بالكاهن ونستخير الآلهة على يده لمن تكون هذه الغنائم» وقال بصوت ضعيف سمعته هي وحدها « فعسى ان يكون نصيبك للامير لانك اهل له »

فوقعت تلك الكلمات في أذنها وقوع الصاعقة ولكنها اطرقت وجعلت تصلي سراً وتطلب الى الله ان يشجعها ويأخذ بيدها لتستطيع النجاة من هذه التجارب واحست بعد تلك الصلاة انها في حرز حريز لا خوف عليها كأن لها جنداً من الملائكة يحرسها

اما سائر الركب فانهم ترجلوا وسار قائدهم امامهم الى تلك القبة بجانب الخيمة الكبرى ولما اقتربوا منها فتح بابها واطل منه كاهن بلباس مزخرف على رأسه شبه التاج من الريش وعلى كتفه شملة مطرزة وحول وسطه حزام من جلد محجر بالزمرد والياقوت تحته قباء من القباطي الابيض وبيده صولجان من خشب الابنوس في اعلاه شبه رأس الفرس من الذهب وحالما فتحت الخيمة تصاعدت رائحة البخور . ولما اطل الكاهن على الناس سجدوا جميعاً وكانت دميانة وراءهم تسايرهم في المشي الى جهة القبة . فلما رأتهم يسجدون وقفت ولم تطعها نفسها على السجود ولم ينتبه لها الكاهن . ثم دخلوا القبة وفي صدرها تمثال من نحاس لعله ماخوذ من اصنام المصريين القدماء قد اقاموه على دكة من الحجر وزينوه بالحلي فتحول الكاهن نحوه وسجد له فسجدوا جميعاً خلفه ثم تمتم قليلاً وتمتموا ودميانة واقفة تستغفر الله على هذه المشاهد

وبعد الفراغ من الصلاة اشار الكاهن الى الوقوف فخرجوا جميعاً وخرجت دميانة ورفيقتها وهما مطرقتان حياء لغرابة حالها بين أولئك البدو . ثم تقدم الترجمان فاستوقفها فوقفت ووقف الكاهن بباب القبة ثم دخلها مستدبراً واقفلها وراءه واشار القائد الى دميانة وصاحبتها ان تبقيا واقفتين . وبعد قليل سمعت جرساً يدق في القبة ثم رأتا الباب فتح وخرج الكاهن عارياً وظهرت الصور الملونة على صدره وذراعيه وقد تغيرت سحنته وتحولت عيناه فلا يشك الناظر اليه انه مجنون او مصروع فاجفلت دميانة عند رؤيته وغطت وجهها بكفيها وكادت تصيح من الخجل

ولكنها تجلدت واذا هي تسمع الكاهن يتكلم بصوت عال مع اختناق كان شخصاً آخر يتكلم في جوفه وهم يعتقدون ان الهاً يتكلم عنه ولما اتم كلامه اجابوه بكلمتين كانهم يؤمنون على اقواله ولما عاد الى القبة اشار القائد الى الترجمان ان يكلم دميانة بما قاله الكاهن فوجه كلامه اليها قائلاً « اعلمي يا جميلة ان الكاهن قد اختار الآلهة بك فاشارت ان تكوني من نساء ابي حرملة اميرنا الاكبر وهذا قائدنا يهنئك بهذه النعمة » والتفت الى عليا وقال لها « وانت نصيب هذا القائد الباسل » واشار اليه

وكانت دميانة وهم يصلون لآلهتهم تصلي لالهها وتتوسل اليه ان يشجعها ويقويها فلما سمعت ما تلاه عليها الترجمان لم يجفلها وان كان قد وقع عليها وقعاً شديداً ولكن الايمان الصحيح يقوي القلوب وهو اكبر تعزية لبني الانسان في الشدائد العظام

وفي الحال بعد ان قال الترجمان ما قاله ذهب ثم عاد ومعه رجل نوبي حالما وقع نظرها عليه استخفت روحه ولم تدرك سبب ذلك لاول وهلة والواقع انها استأنست به لانه يشبه خادمها زكريا فتقدم واشار اليها ان تتبعه الى خيمة الامير . وذهب الترجمان لآخر مع عليا الى خيمة القائد ولم يكن الامر عظيماً على عليا ولا غريباً عندها لانها اعودت البادية واهلها

الفصل الثالث والخمسون

ابو حرملة

اما دميانة فمشت في اثر ذلك النوبي وهي تقدم قدماً وتؤخر أخرى وتستعين الله ومريم العذراء والقديسين على ما تخافه هناك . وسمعها النوبي تذكر مريم العذراء على سبيل الاستغاثة فشعر بانعطاف نحوها لانه ربي تربية نصرانية في بلاده والنوبة يومئذ كلهم مسيحيون فتباطأ في مشيه حتى حاذاها وقال لها « يظهر انك نصرانية فهل انت قبطية ؟ »

فلما سمعت استفهامه استبشرت وقالت « نعم اني قبطية ووالدي من وجهاء القبط »

قال « يظهر عليك ذلك .. فلا ينبغي ان تنزعجي .. هل انت متزوجة هناك ؟ »

فظهر الخجل في وجهها وسكتت ودل سكوتها على انها عذراء فقال لها « اذا كنت غير متزوجة فلا اجد سبباً لاضطرابك فانك مسوقة الى خيمة امير البجة او هو اكبر امرائهم

واشجع فوادهم ومن حسن حظك انك وقعت في نصيبه من الغنيمة وسيكون لك مقام رفيع عنده لاني لا اعرف بين نسائه واحدة في مثل ما انت فيه في الجمال والكياسة وهو يفهم اللغة القبطية نوعاً فالافضل ان تسلمي امرك الى الله وتقنعي بهذا النصيب

وكانا قد اقتربا من باب الخيمة فتقدمها النوبي واشار الى حاجب بالباب ان ينبئ الامير بقدومه فدخل الحاجب وعاد وقد اذن في الدخول فدخل النوبي ودميانة في اثره وقد صبغ وجهها الحياء وتولاها الخوف واصطكت ركبتاها فرأت النوبي حالما دخل انحنى كانه يسجد لايقونة . ووقع نظرها على امير جالس في صدر الفسطاط خفيف العضل خفيف الشعر اسود اللون حاد العينين تظهر الامارة بلباسه وهيبته وقد جلس الاربعاء على بساط من السجاد الثمين فوق مقعد سوداني (عنقريب) وارتدى بكساء من الحرير الملون وعلى رأسه عمامة شبه التاج وبين يديه سيف قبضته من الذهب وحول عنقه عقد من الحجارة الكريمة بينها قطع من الذهب بصور تماثيل صغيرة لبعض الآلهة وفي اصابعه الخواتم سلم النوبي على ابي حرملة بلسان البجة فاجابه به ولم تفهم دميانة شيئاً ولا هي استطاعت ان تسجد له كما فعل الترجمان لكنها سمعت ابا حرملة ينادي النوبي « سمعان » وهو اسم نصراني فاطمأنت بالها لاعتقادها انه نصراني مثلها — وجامعة الدين من اشد الروابط علاقة بالقلب لانها تشترك بالوجدان وهي امتن في العامة من جامعة الوطن وغيرها

ووجه ابو حرملة نظره الى دميانة وتفرس فيها فاطرقت ثم سمعته يخاطب سمعان وتحول سمعان نحوها يترجم كلام الامير فقال « ان مولانا الامير قد اعجب بما شاهده فيك من الجمال والهيبة ويقول لك انه سيبذل جهده في ما يرضيك فلا ينبغي لك ان تعدي نفسك سبية او غريبة فانه يعدك من افضل نسائه »

فلم تجب ولكنها زادت اضطراباً لانها اصبحت داخل العرين ولا يلبث الاسد ان ينشب اظافره فيها فاستعاذت بالله وظلت ساكتة . فاشار ابو حرملة الى سمعان وخاطبه فتحول الى دميانة وقال لها « تفضلي معي يا جميلة الى الخباء فقد اوصاني الامير ان اعد لك خيمة خصوصية تقيمين فيها على الرحب والسعة »

قال ذلك وخرج فخرجت في اثره وهي تتعثر باذيالها فلما صارت خارج الخيمة احبت ان تستغيث بسمعان فقالت « يظهر لي يا سمعان انك نصراني مثلي فاستحلفك بالسيد المسيح ان تنشلني من هذه الحفرة »

فابتسم سمعان وخاطبها وهو ينظر في الارض لئلاَّ يلحظ احد انه يكلمها خوفاً من

الامير وقال « ان لم أكن نصرانياً كما ظننت فقد ولدت في بلاد النصارى فسموني باسم من اسمائهم وانا اعرف كثيرين منهم في مصر والصعيد والنوبة وقد رأيتك شديدة الخوف وانا أوكد لك انك ستكونين معززة مكرمة · فاصرفي خوفك وثقي بي فانا اكون لك اخاً ابذل جهدي في راحتك ·· »

فاستأنست بوعده وقالت « اذا كنت تعدُّني اختاً لك فارجو ان تساعدني على الخلاص ·· هذا غاية ما ارجوه منك ·· واذا انقذتني كان لك فضل كبير لا يضيع عندي ولا عند اهلي »

قال « يا حبذا ولكن الخلاص على هذه الصورة لا يستطاع ونحن بين رجال كالاغار يختطفون بسرعتهم الابصار فاصبري · ولا ريب عندي انك تكونين مسرورة بعد قليل »

وكان سمعان يقول ذلك عن اخلاص وهو لا يعرف ما في خاطر دميانة وما الذي يثقل على طبعها من تلك الصحبة · فقد كانت فضلاً عن تمسكها بالعفة وحرصها على صيانة نفسها عالقة القلب بسعيد وكل من السببين يكفي لدى الحر ان يفتدى بالحياة · فلما يئست دميانة من نصرة سمعان وتحققت وقوعها في الفخ علمت انها لم يبق لها مخرج الا بما وراء الطبيعة فعادت الى الايمان وأخذت تراجع في ذهنها مواعيد الكتاب للمؤمنين في ايام الشدة وسكتت وهي ماشية وسمعان لا يتكلم فتجاوزوا فساطيط الرجال حتى اشرفوا على الاخبية وقد دنت الشمس من الغروب · وكانت الاخبية عديدة بينها خباء فخيم توجه سمعان نحوه واشار الى دميانة ان تتبعه فتبعته حتى اطل على باب الخباء فنادى فخرجت له عجوز طويلة القامة شديدة العضل وملامحها اقرب الى الرجال مما الى النساء عليها الدمالج والاساور والعقود وقد فاحت منهـا رائحة الطيب وابرقت عيناها واحمرتا فاثر منظرها في دميانة اكثر من تأثير منظر ابي حرملة ووقفت مبهوتة وابتدرها سمعان قائلاً « نحن الآن عند خباء الامير وهذه قهرمانة بيته وهي التي ربته من صغره وتعد نفسها والدة له وقد عهد اليها العناية بنسائه وكأني بك قد خفت منظرها فلا تخافي وانا اوصيها بك خيراً » ثم التفت الى القهرمانة وكلمها بلغة البجة كلاماً بهذا المعنى · فنظرت الى دميانة وابتسمت ابتسامة فلما استأنست دميانة بها لكنها لم تجد بداً من السكوت واشارت القهرمانة اليها ان تدخل فدخلت وهي تنظر الى سمعان والدمع ملء عينيها كأنها تستغيث به وقد أثر منظرها فيه لكنه كان يعتقد انها لا تلبث ان تمكث بضعة ايام مع الامير حتى تعتاده وتألف البقاء معه

الفصل الرابع والخمسون

الصلاة تعزية

دخلت دميانة باب الخباء فاستطرقت منه الى عدة غرف من الجلد في كل منها امرأة او نساء وبينهم النوبية والبجاوية والحبشية والقبطية بين سرية وخادمة وجارية والكل وقفن احتراماً للقهرمانة حتى وصلت بها الى غرفة ليس فيها احد في بعض جوانبها بساط من جلد ووسادة من جلد محشوة بالقش و بجانب البساط وعاء كالجراب مفتوح وفيه آنية (التوالت) السواك والمشط وحق الطيب . وقد تعلق بجدار الغرفة ركوة من جلد و بجانبها قربة مملوءة ماء فلما صارت دميانة في وسط الغرفة والقهرمانة معها شعرت بانقباض شديد لم تعد تملك معه نفسها فجعلت دموعها تنحدر على خديها ونفسها تطلب البكاء وهي تمسك احساسها واذا بالقهرمانة تقول لها بلغة قبطية مكسرة « اجلسي يابنية على هـذه الوسادة » وربتت لها على كتفها تحبباً فلم تعد دميانة تتمالك فالقت نفسها على الوسادة واخذت بالبكاء بصوت عال كالاطفال ونسيت موقفها

فاستغربت القهرمانة بكاءها بغتة واخذت تسألها عما تريده فقالت « هل تحتاجين الى شيء » .

فلم تجبها

فقالت « هل انت خائفة ؟ لاتخافي يابنية ان الامير يحبك كثيرًا و بعـد قليل يأتي اليك .. قومي اصلحي شأنك ... هذه الاطياب وهذا السواك وهذا المشط وانا اساعدك » قالت ذلك ومدت يدها الى الجراب وهي تنظر الى دميانة فاذا هي تزداد بكاء ولا تنتبه لقولها فعادت الى تطييب خاطرها وملاطفتها وما زالت بها وهي تارة تلاعبها وطورًا تمازحها وآونة تهددها او تمنيها او تطمئنها حتى سكن روعها ولم يطمئن بالها ولكنها تجلدت واظهرت انها تريد الانفراد فتركتهـا القهرمانة ومضت وقد خيم الظلام فازدادت دميانة انقباضاً ووحشة وكانت تستانس بنار موقدة بين يدي الخباء انارت الخباء نورًا ضعيفاً . فلما خلت بنفسها ركعت على ذلك البساط ركعة مؤمن صادق الايمان و بسطت يديها نحو السماء ورفعت بصرها الى العلى واخذت تصلي كانها تخاطب شخصاً تراه بعينيها وتثق انه يجيب طلبها وجعلت تتضرع الى الله وتستجير بالمسيح ومريم العذراء وسائر القديسين تطلب الخلاص من هذه

التجربة التي اوشكت الوقوع فيها. وكانت تصلي بحرارة ودموعها تتساقط على خديها وهي تتلو الصلاة بصوت خافت تتخلله نبرات عند التوسل والالحاح في الرجاء . وقد حلت شعرها وكشفت عن صدرها واستغرقت في تضرعاتها ومناجاتها حتى نسيت موقفها فصارت تطلب وتتضرع بصوت عال تعترضه غصة او بحة وتقرع صدرها وتزيد الطلب والدعاء كأنها تجردت عما يحيط بها

وكانت القهرمانة قد تركتها ولم تبعد عن غرفتها فسمعت صلاتها فاسترقت الخطى اليها حتى وقفت بجانب الباب بحيث ترى موقف دميانة وتسمع تضرعاتها ومع غلظ قلبها لم تتمالك عند رؤية دموعها المتساقطة وسماع صوتها المخنوق من الانعطاف اليها لكن غلب عليها الاستغراب وكانت على موعد من قدوم ابي حرملة بتلك الساعة وعليها ان تهيء العروس وتصلح من شانها قبل قدومه فهمت ان تدخل وتوقفها عن الصلاة واذا هي تسمع خطوات عرفت انها خطوات الامير فتحولت نحوه واشارت اليه باصبعها ان يمشي الهوينا ليرى حال دميانة بعينيه ارادت بذلك ان تستلفت استغرابه

فمشى حتى اطل على الفتاة بحيث يراها ولا تراه فرآها جاثية وشعرها محلول وقد انتفش واسترسل حتى غطى كتفيها واعلى صدرها ووقع نظره على جانب وجهها فرأى الاحمرار قد جلله والدمع بلله وهي تبسط يديها نحو السماء تارة وتقرع بهما صدرها تارة اخرى فنظر ابو حرملة الى القهرمانة نظر الاستغراب وهي نظرت مثل نظره ولكنه حمل ذلك من دميانة محمل الاستيحاش لبعدها عن اهلها وعزم على اكرامها حتى تستأنس به وقد زاده منظرها في تلك الساعة رغبة فيها فتراجع واوصى القهرمانة ان تتلطف في تطييبها واعدادها له وانه عائد بعد قليل ومضى

اما دميانة فقد طالت صلاتها ولم تمل لكنها شعرت بعد حين بتعب يديها فانتبهت لنفسها واذا هي قد سري عنها وذهب ما كان قد احدق بها من الهموم والمخاوف وشعرت بشجاعة واطمئنان وتحققت ان لاخوف عليها من حبائل الشيطان

وهي تتحفز للوقوف دخلت القهرمانة ضاحكة وهمت بدميانة فقبلتها فاشتمت دميانة منها رائحة خصوصية كانت تشتمها من ذلك المعسكر على الاجمال ولكنها أحست بها قوية من وجه القهرمانة وهي رائحة بعض الاطياب الخاصة باهل البادية . اما القهرمانة فامسكت دميانة بيدها واجلستها على الوسادة بجانبها وقالت لها « لقد آن لك ان تطيبي للقاء عريسك وهذه شمعة قد اختصك بنورها وكان قد حفظها لاعز اوقاته وامرني ان اضيئها في هذه الغرفة ليرى

وجهك المجمول بها .. ويجب ان تعتبري ذلك اكراماً خصوصياً فانه لم يفعل مثله مع سواك من نسائه ..» قالت ذلك واستخرجت قضيب شمع غليظاً مغروساً في شبه القاعدة واستخرجت القداحة وولدت النور بواسطة الزناد واضاءت الشمعة ووضعتها على منضدة او كرسي صغير في بعض جوانب الغرفة . وتناولت الجراب واستخرجت المشط والسواك وحقوق الاطياب واخذت تشتغل باصلاح شعرها وتمشيطها وتطييبها ودميانة ساكتة لا تتكلم ولا تمانع وقلبها مطمئن هادئ

الفصل الخامس والخمسون

موقف هائل

ولما فرغت من تمشيطها وتطييبها اتتها بثوب من الحرير الملون كان ابو حرملة قد بعث به اليها مبالغة في اكرامها فلبسته وهي ساكتة فظنتها القهرمانة راضية مسرورة فخرجت الى ابي حرملة فاستقدمته فاتى وكان قد خلف ملابسه واتشح بثوب من الحرير يشبه ذاك وتطييب . ولما دخل الغرفة اشار الى القهرمانة فخرجت ثم عادت وبيدها ركوة من جلد وقدح من خشب وضعتهما بين يديه وخرجت وبقي هو ودميانة ليس في الغرفة سواها . فلما شعرت دميانة بذلك الانفراد اختلج قلبها في صدرها رغم استسلامها واتكالها بعد الصلاة واستأنفت الاستغاثة في سرها

أما هو فقعد على البساط وتناول الركوة فصب منها في القدح وقدمه الى دميانة وهو يقول بلغة قبطية مكسرة « اشربي يا عروسة .. اشربي من هذه المربية فانها تنعش القلب وتذهب الحزن .. »

فظلت ساكتة مطرقة لا تعلم ماذا تقول فقال لها « انا اشرب هذا القدح عنك » فشربه وصب قدحاً آخر وقدمه لها وقال « خذي اشربي .. » وادنى القدح من فيها فنفرت منه وظهر الاشمئزاز في وجهها فقال « يظهر انك لم تعودي هذا الشراب » ووضع القدح من يده وسحف على البساط حتى دنا منها ووضع يده على ركبتها فاقشعر بدنها ولم تتمالك عن النهوض بغتة ونفرت فاخذ يضاحكها فقال « ما بالك .. لماذا تخافين مني وانا احبك كثيراً » ومد يده ليمسك يدها ويجذبها اليه فتباعدت فتطاول حتى أمسك يدها فاذا

هي باردة كالثلج وشعر بتيار كهربائية زادته رغبة فيها . وأما هي فلما لمسها قف شعرها وكاد الدم يجمد في عروقها . ولم تجد فائدة من النفور فاطاعته وقعدت وهي تتجنب ان تلمسه وخاطبته والدمع في عينيها قائلة « اتوسل اليك ياسيدي ان تتركني وشأني »

قال « ولماذا . . الا ترضين ان تكوني من نسائي »

فلما سمعت سؤاله خافت ان تجيبه « لا » فيغضب فقالت « اني جارية حقيرة لا استحق هذا الاكرام وانت في غنى عني بمن عندك من النساء الكثيرات فاتخذني جارية اخدم في مطبخك او ارعى الماشية او اي شيء آخر »

قال « لا . لا . بل انت افضل النساء عندي وسأجعل لك المقام الاول فلا تجزعي فما انا وحش وان لم اكن من اهل المدن نظيرك »

فقالت « يظهر لي من كلامك ومن علو منزلتك انك طيب السريرة اذ لا يمكن ان يبلغ مقام الامارة اسافل الناس . . فاتقدم اليك ان تسمع كلمة اقولها لك . . هل اقول ؟ »

قال « قولي »

قالت « انا اعلم ان حظوتي عندك من اسباب الشرف العظيم الذي يتمناه كثيرون ولكنني احب ان تعفيني من تلك الحظوة . وانا اسيرة عندك استخدمني بما تشاء . فاني اكون خادمة او راعية او جارية للطبخ او الغسل او الحرث او اي شيء غير الزواج . . اسمح لي . . اعفني . . استحلفك بمن تعبد او بمن تحب ان تتركني وشأني »

قال « كيف اتركك وشأنك وقد وقعت لي من الغنيمة بعد استخارة الآلهة ورأيت فيك جمالاً لم اشاهده في سواك . . فانا انصح لك ان ترجعي عن عنادك وتأتي راضية اولى من ان تأتي مكرهة . . وانت تعلمين ان ابا حرملة صاحب هذه القبيلة لا يعجزهُ مايريدهُ منك »

فشعرت بثقل تهديده وهي تعلم انه اذا عزم على امر لا يردعه رادع فاطرقت واعملت فكرتها ولم تجب . فاستبطأ جوابها فقال « هل رجعت عن غيك يا قبطية . . هل شعرت اني ادعوك الى السعادة ؟ »

فرفعت بصرها اليه وقد تكسرت اهدابهما من البكاء وذبلتا من الحزن والقنوط وقالت « قلت لك ان كثيرات من امثالي يتمنين الحصول على هذه السعادة ومع ذلك فاني استعفيك منها . . واطلب مني ماشئت غير ذلك . قلت لك اني اكون خادمة جارية راعية اكون اي شيء تريده غير الزواج »

فقطع كلامها قائلاً « راعية خادمة ؟ ان الخدم كثيرات فاننا نبيع الارقاء بالمئات »

الفصل السادس والخمسون

الدهان السري

فانتبهت دميانة لفكر طرق ذهنها فجأة وحالما خطر لها بان البشر في وجهها فقالت والجد بادٍ في محياها وقد ذهب خوفها « انت امير كبير واكثر اشتغالك بالحروب »

قال « نعم »

قالت « واظنك تخسر كثيرين من رجالك في اثناء القتال »

قال « كثيرين »

قالت « وانت طبعاً لا تكون في مأمن على نفسك ايضاً »

قال « اني لا اخاف الموت »

قالت « لم اقل انك تخاف الموت ولكن الا تكون معرضاً للقتل »

قال « طبعاً .. ولكن مامعنى هذا الكلام وما دخله في ما نحن فيه ؟ »

قالت « تمهل ايها الامير وستسمع النتيجة .. الا تعلم من الجهة الاخرى بما في مصر من العلوم السرية التي ورثناها عن اجدادنا الفراعنة ؟ »

قال « اسمع بشيء كثير .. وما ذا يهمني من العلم »

قالت « الا يهمك ان تنجو انت ورجالك من القتل ولو تساقطت عليكم الحراب كالامطار او وقعت عليكم السيوف كالجنادل ؟ »

فضحك حتى بانت اسنانه البيضاء وهز رأسه وقال « بلى يهمني ولكن هل في علم المصريين ما يمنع الموت ؟ »

قالت « نعم ايها الامير ... وذلك سر لا يعلم به الا قليلون »

فشخص ببصره اليها شخوص المستغرب وقال « وهل تعرفينه انت »

قالت « اعرفه »

قال « انما تحتالين في النجاة »

قالت « اسمع لي .. انا لا اقول جزافاً ولا اطلب منك التسليم بدون تجربة .. ان سر هذا الدواء محصور في بعض الاديار بمصر وقد تعلمته وعرفته »

قال « وما هو ؟ »

قالت « هو دهن اصطنعه واقرأ عليه اذا دهن الرجل جلده به امن الموت اذ لا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا نصال »

فقال « دعينا من الكلام المراءان هذه الاكاذيب لاتنطلي عليَّ »

قالت « انها ليست اكاذيب يا سيدي انه سرٌّ في يدي لا أبيح به لك الاَّ بشرط ان تعاهدني على كتمانه وتقسم بما تعبده انك تفي لي .. »

قال والجد يتجلى في جبهته وعينيه « اتقولين الحق ؟ »

قالت « نعم »

قال « اذا صدقت وكان عندك مثل هذا الدهان فاني اعطيك ما تطلبينه »

قالت « لا اطلب شيئاً غير اطلاق سراحي وايصالي الى بلدي واهلي وان لا تطالبني بالزواج او غيره »

قال « لك ذلك .. واقسم بالهي اني مبرٌّ بقسمي ولكن كيف نعرف صحة هذا الدواء ؟ »

قالت نجربه على رجل ندهن جسمه به ونضرب عنقه فاذا قطع كان الدواء كاذباً .. واذا ذهبت الضربة ضياعاً ولم يصب الرجل بسوء الا تصدق قولي وتفي لي ؟ »

قال « بلى .. ولكن من يرضى ان نجرب ذلك عليه ويعرض نفسه لهذا الخطر ؟ »

قالت « اذا لم تجد احداً انا اجربه بنفسي »

فاطرق ابو حرملة وقد دهش لهذا الكلام وقال « طيب .. ومتى تصطنعين هذا الدهان ؟ ومتى نجربه ؟ »

قالت « غداً . ان شاء الله . »

فنهض وهو لا يصدق ما يسمعهُ وقال « لنصبرن الى الغد » ثم وقف وقال لها « اني منصرف الساعة فاصنعي العقار وفي الغد نجربهُ فاذا صح فاني فاعل ما تريدين »

قالت « لا اريد غير اخلاء سبيلي وارجاعي الى اهلي »

قال « حسناً » وخرج وقد تولتهُ الدهشة وسار تواً الى فسطاطه

اما دميانة فلما خرج من عندها تنفست الصعداء واخذت في اعداد الدهان فمزجتهُ من الاطياب التي بين يديها واضافت اليها اشياء اخرى غير معروفة حتى صار بقوام الشحم وجعلته في القدح الذي عندها وباتت تلك الليلة مضطربة لهول الامر الذي هي مقدمة عليه ولكن ايمانها كان قوياً

وفي اليوم التالي جاءتها القهرمانة فرأتها مشغولة بالصلاة فاتتها بالطعام فاكلت قليلاً

ثم جاء سمعان النوبي الترجمان يطلب دميانة من القهرمانة فسلمتها اليه . فلما رأته ارتاحت الى رؤيته وابتسمت ابتسامة حزين بائس فاثر منظرها في نفسه ولكنه قال لها « ارجو ان تكوني قد غيرت رأيك في اميرنا »

فتنهدت وارسلت دمعتين انحدرتا على خديها وهي ساكتة تمشي في اثره حتى بلغت الى خيمة الامير وقد خبأت قدح الدهان في جيبها فامر ابو حرملة بادخالها عليه وحدها فدخلت واراد سمعان ان يدخل معها فاشار اليه الحاجب ان يبقى خارجاً فمكث وهو يتعجب من تلك الخلوة مع حاجة الامير الى مترجم

الفصل السابع والخمسون

اضرب بسيفك

اما دميانة فدخلت الفسطاط وقد علقوا على اعمدته اسلحة وادراعاً وجلس ابو حرملة على عقربه متكئاً وقد مدّ رجليه وقدماه حافيتان وليس على رأسه الا عمامة صغيرة لا كما بلا نظام وبيده خيزرانة يتلاهى بها . فمشت دميانة الى وسط الفسطاط ووقفت فاشار اليها ان تتقدم فتقدمت حتى اقتربت منه فاومأ اليها ان تقعد فقعدت فقال لها « ذهبتُ امس الى خبائك فاطمعك ذلك فيّ وبعث على نفورك فاردت ان استقدمك الى فسطاطي لعلك تغيرين عزمك الا تزالين خائفة ؟ »

فقالت « لست خائفة ياسيدي ولكننا اتفقنا مساء امس على شيء هل نسيته ؟ »

قال متجاهلاً « وما هو »

قالت « الم تعدني باطلاق سبيلي اذا استحضرت لك الدهان الذي يمنع القتل ؟ »

فضحك وقال لها « لا احسبك تقولين الجد .. دعينا من الادهان وارجعي الى رشدك »

قالت « انما اقول الجد ووعد الامير مقدس »

فاعتدل في مجلسه وقال « تضمنين دهاناً يمنع القتل ؟ ما هو ؟ »

قالت « نعم يا مولاي » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت القدح ودفعته اليه فتناوله ونظر في ذلك الدهان فاذا هو خاثر كالشحم وله رائحة الطيب فقال « هذا الدهان يقي من

القتل ؟ »

قالت « نعم اذا دهنت به عنق الرجل لا يقطع فيه سيف ولا خنجر »

فهز راسه وهو يتامل بما في القدح تارة و ينظر اليها تارة اخرى وهي مطرقة تنتظر امره فقال « ينبغي لنا ان نجرب ذلك »

قالت « جربه »

فقال بلحن التهديد « اجربه بك انت »

قال « جربه يا سيدي بمن شئت فانا على يقين من صدقه »

فرد القدح اليها وقال « خذي ادهني المكان الذي تريدينه وانا اجرب ضربه بسيفي هذا » ووضع يده على سيف الى جانبه

فتناولت القدح من يده وهي تقول « جرد سيفك » ورفعت شعرها الى اعلى راسها وكشفت عن عنقها واخذت بعض الدهن براس سبابتها وجعلت تمرح عنقها واعلى صدرها . فلما فرغت من العمل جثت بين يديه وقالت « اطلق حسامك جرب قوتك .. »

فنهض واستل حسامه وقال « أأضرب ؟ »

فقالت وهي مطرقة وقد كشفت عن قفا عنقها « اضرب »

فوقع نظره على بياض جلدها ورأى انكسارها فابت نفسه ان يؤذيها لانه لم يطلق حسامه على عنق الا براها بري القلم فتراجع وقال « راجعي نفسك اني لا اظنك الا مقتولة »

قالت « لا تخف .. اضرب .. ان يدك سترتد خائبة .. »

فاخذه الغضب وقال « ترتد خائبة ؟ » ورفع يده وهمّ بالضرب واذا بصوت يناديه من الخارج « لا تفعل يا مولاي » وسمع خطواً فالتفت فرأى سمعان داخلاً مسرعاً حتى حال بينه وبين دميانة فقال ابو حرملة « ما بالك ؟ . »

قال « ماذا تفعل يا مولاي ؟ »

قال « اجرب دهاناً اصطنعته هذه القبطية تقول انه يمنع القتل واكدت لي ذلك حتى ارادت ان اجربه على عنقها »

قال « وهل صدقت قولها ؟ »

قال « لم اصدقها ولذلك اردت ان اجرب ذلك فيها »

قال « انك قاتلها »

قال « هي تقول ان الدواء مجرب لا ريب في صدقه . ولولا ذلك لم تعرض نفسها

للقتل فقد رايتها تستحثني على الضرب بكل قوتي »

فلما سمع الترجمان قوله ابتسم وادار وجهه حتى استقبل دميانة بوجهها وهي لا تزال جاثية مطرقة وشفتاها تتحركان كأنها تصلي فلما اقترب سمعان منها رفعت بصرها اليه وعيناها تتلألآن بالدمع فقال لها « اتصدقين فعل هذا الدواء »

قالت « كيف لا وها اني اطلب تجربته في نفسي دعه يضرب ثم يرى مايكون »

فضحك سمعان وقال « ذلك لايجوز عليّ يادميانة ... فقد عرفت قصدك » وتحول نحو الامير وقال « لاتصدقها ياسيدي ولا تطلق حسامك الا اذا كنت تريد قتلها وهي تعلم يقيناً ان الدواء لافائدة منه وان الضربة من يدك تقضي عليها »

فقال والدهشة ظاهرة في عينيه « تعرف ذلك وتعرض نفسها للقتل ؟ .. لا لا هذا لايكون .. دعني أجرب »

فصاحت دميانة « دعه يجرب وسترى صدق قولي فاستريح من هذا الامر لانه سيرجعني الى اهلي . »

قال « لاتفعل ياسيدي انها تريد الموت .. »

قال « كيف تسعى بنفسها الى القتل ؟ »

قال « تفعل ذلك فرارًا من امر يحرمه دينها عليها وأنت تطلبه منها فلما لم تجد وسيلة للنجاة بالحسنى فضلت الموت على الرضا به »

فجعل ابو حرملة يتنقل بنظره من سمعان الى دميانة ومن دميانة الى سمعان كأنه يتفحص مايضمرانه ثم قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته لانه حدث قبل هذه المرة بصعيد مصر منذ اكثر من مئة سنة في دير من ديارات الراهبات وقد سمعته اثناء مروري هناك »

فلما سمعت دميانة قوله نظرت اليه نظرة عتاب ولسان حالها يقول « اقدوقفت في سبيل نجاتي من العار »

فقال ابو حرملة « وكيف ذلك »

قال « لما قام العباسيون على بني امية وارسلوا جيوش خراسان لمحاربتهم هرب كبير بني أمية مروان الى مصر وجعل يهاجم اديار الراهبات والرهبان فاتفق ان رجاله وجدوا في بعض الديارات فتاة جميلة الصورة فاحضروها اليه فاعجبه جمالها فارادها لنفسه وهي تأبى ذلك لان النصارى يتفاخرون في المحافظة على العرض ولا سيما الراهبات فان الفتاة منهن تستنكف ان

تمس عفتها بشيء وتفتدي عفتها بنفسها . فلما ارادها الامير وعلمت انه غير تاركها احتالت عليه وزعمت مثل زعم صاحبتنا هذه ان عندها دواء اذا دهن به الجسم ارتدت عنه السيوف القواطع وانه اذا وعدها باطلاق سراحها دلته على ذلك الدهن فرضي بقولها واشترط ان يجرب ذلك فيها فرضيت ودهنت عنقها وامر الجلاد فضربها فاطاح رأسها عن بدنها فعلم انها فعلت ذلك تفضيلاً للموت على ان تمس عفتها (١) . . . وتحدث اهل مصر بهذا الحادث العجيب زمناً طويلاً »

الفصل الثامن والخمسون

سلطة الفضيلة

فلما سمع ابو حرملة قولهُ ردَّ سيفه الى غمده وهو مطرق ثم رمى السيف على البساط وتقدم الى دميانة وقال لها « قومي يا اخية . . قومي . . هل انت تريدين الموت ؟ »

فصاحت وهي واقفة وقوف المستعطف والدمع يتلألأ في عينيها « نعم افضل الموت على ما تطلبهُ مني . . . اذا كنت لا تزال على عزمك الاول فاقتلني حالاً »

فاظهر الغضب وقال « تفضلين الموت على ان تكوني عندي ؟ »

قالت « كلا ياسيدي لا اشكو من شخصك فانت امير كريم الاخلاق ولكنني اتجنب شيئاً آخر . . » واطرقت حياء

فتصدى سمعان للكلام وقال « انها انما تريد المحافظة على عفتها حسب اعتقادها وليس بالنظر الى رجل معين »

فاحسَّ ابو حرملة كأنه غلب على امره وشعر بقوة في تلك الفتاة الضعيفة البنية لم يكن يشعر بمثلها في كبار الرجال . ومرَّ قوتها احتقارها هذه الحياة ومحافظتها على عفافها وثباتها في المبدإ الذي شبت عليه ولم يمنعها خطر الموت عن البقاء فيه . والتمسك بالعفاف ونحوه من الفضائل يكسب اصحابه قوة ومهابة حتى في الامم المتوحشة فلم يتمالك ابو حرملة عن النظر الى دميانة نظر الاحترام وقال لها « كيف تفضلين الموت . . »

(١) الخريدة النفيسة ج ٢

قالت « افضله لانه ينجي من ارتكاب ما اعتقده مخالفاً ارادة الله وتعاليم السيد المسيح »

فالتفت ابو حرملة الى سمعان وقال « فهي اذاً نصرانية على مذهب سيدك صاحب النوبة ... »

قال « نعم يا مولاي والنصارى يعدون المحافظة على العفة من اكبر الفضائل »

قال « فملك النوبة اذاً اولى بها منا وانا اكراماً لهذا الثبات قد عفوت عنها .. لكنني لا اتكلف ارجاعها الى مصر ونحن بعد ايام قادمون الى النوبة فنسلمها الى ملكها ... »

فلما سمعت دميانة كلامه اشرق وجهها وذهب انقباضها وتناثرت دموع الفرح من عينيها وهمت بيد الامير لتقبلها فزاده هذا الشعور شفقة عليها واعجاباً بها لانه لم يكن يتصور انه يوجد في الدنيا امرأة تأبى ان تكون زوجة له فكيف انه رآها تفضل الموت على التفريط بعفتها فقال لها « قد تركتك وشأنك ونحن قادمون بعد ايام الى النوبة فنكون على مقربة من دنقلة عاصمة ذلك الملك فادعمك اليه .. هل يرضيك ذلك ؟ »

فاشارت برأسها وعينيها انها تشكره على هذه المنة وهي لا تعرف كم تبعد دنقلة عن ذلك المكان ولكنها كانت تود التخلص من تلك الشراك باية وسيلة كانت اما سمعان فيعرف البلدين وما بينهما من البعد فقال « واذا كان الامير يرى ثقلة بقائها في معسكره وانا نوبي وقد اشتقت الى بلادي فليأذن لي بالانصراف اليها فآخذ الفتاة معي واوصلها الى النوبة »

فضحك الامير وقال « لقد طالما لحظت رغبتك في فراقنا وقد سنحت لك فرصة فانهض واهد سلامي الى ملك النوبة وقل له اننا باقون على العهد .. وقل لغلامي ان يهيء لكما الركائب اللازمة وخذ خادماً او ما شئتم » والتفت الى دميانة وقال لها « اسبلي ذيل المعذرة على ما حملناك من التعب باجملة واذكرينا عند الملك بالخير حتى بلغت الى بلدك »

فتذكرت رفيقتها عليا فارادت ان تسال عنها لعلها تصطحبها معها وتكافئها على جميل والدها فقالت « اشكرك ايها الامير وسأنشر في الملأ مالقيته من نجدتك وكرم اخلاقك .. ولكن لي رفيقة كانت معي منذ اخذنا من حلوان .. »

فنظر ابو حرملة الى سمعان كأنه يستفهمه فقال « اظنك تعنين عليا فهذه قد تزوجها ذاك الامير وهي راضية لانها تحققت موت والدها وسائر اهلها وهي من بنات البادية »

قالت « لعلها تحب ان ترافقني »

قال « وقد سافرت في هذا الصباح مع زوجها .. »

فسكتت دميانة وخرجت مع سمعان واتكلت عليه في اعداد ما يلزم للسفر .. وحدثتها

نفسها ان تطلب اليه ان يحملها الى مصر بدل بلاد النوبة فتصل الى اهلها . فلما خرجا نظرت اليه وهي لا تصدق انها نجت من تلك الحبائل بعد ان كادت تقتل وشعرت ان له الفضل في ذلك اما هو فامله كان اكثر مسروراً منها لانه انقذها من الموت . فلما رآها تنظر اليه ضحك وقال لها « هل انت مسرورة يا سيدتي ؟ »

قالت « الفضل لك يا سمعان في حياتي . . . »

قال « لا فضل لي فاني فعلت الواجب وقد شعرت من اول لحظة رأيتك فيها ان عليَّ فرضاً واجباً نحوك »

فقالت « وانا حالما وقع بصري عليك شعرت بارتياح لرؤيتك ثم تحقق ظني بما آنسته من طيب عنصرك كانك مسيحي مثلي »

فضحك وقال « وانا كذلك . . اني ربيت تربية مسيحية ولذلك رايتني عرفت حركاتك »

وكانا يمشيان واهل المعسكر ينظرون اليهما وقد بلغهم الخبر ان الامير عفا عن تلك المرأة وامر بتسريحها . فظل سمعان ماشياً حتى أتى خيمته وامر الخادم ان يهيء الاحمال ودعا دميانة الى الجلوس وامر لها بطعام يعرف انها تأكله فاحست باستئناس كثير ولما سمعته يأمر باعداد الاحمال قالت « الى اين نحن ذاهبون »

قال « الى دنقلة يا سيدتي » وضحك

قالت « واين هي من هنا ؟ »

قال « نبعد بضعة عشر يوماً على الجمال »

قالت « هل هي من جهة مصر ؟ فاذا وصلنا اليها نقرب من الفسطاط ؟ »

فضحك وقال « ان مصر الى يميننا ودنقلة الى يسارنا فاذا كنا الآن بعيدين عشرين يوماً من مصر فمتى صرنا في دنقلة نصير على مسافة اربعين يوماً عنها »

فبغتت وانقبضت نفسها واطرقت فابتدرها سمعان قائلاً « لا تجزعي اننا لا نذهب الى دنقلة وانما نحن ذاهبون الى اسوان وهي على يوم وبعض اليوم من هنا » وخفض صوته وقال « لاني عرفت من بعض المارين بنا ان ملك النوبة قدم الى جوار اسوان متنكراً ومتى صرنا هناك لا نكون بعيدين عن مصر كثيراً »

فاشرق وجهها وقالت « بورك فيك . فانقدم اليك بعد وصولنا اسوان ان ترافقني الى مصر لا كافئك على صنيعك »

قال « ساكون في خدمتك حتى تدلي مامنك »

فشكرته وصممت اذا هو رافقها الى مصر ان تكافئه احسن مكافئة . وفي الحال تذكرت ما كان من امرها في الفسطاط وكيف اضطهدها ابوها ولا تعرف ما يكون مصيرها لانها لم تعلم بما دار بين زكريا وسعيد وكان زكريا قد تركها في حلوان وذهب لاستجلاب الاسطوانة ولقي سعيداً وكلمه ولما مضى ليخبرها بما حدث وجدها قد اخذت . فلم تكن دميانة تعرف شيئاً من حال اهل مصر ولكنها كانت تتوقع ان تكتشف الحقيقة وتوسمت في سمعان الرغبة في خدمتها فارادت ان يصحبها الى مصر لتستخدمه في التفتيش عن زكريا او سعيد واخذت تتاهب للرحيل الى اسوان

الفصل التاسع والخمسون

اسوان

وكانت اسوان آخر حدود مصر من جهة الجنوب وتبتدىء بعدها بلاد النوبة وهي مدينة آهلة فيها تجارة واسعة لما يتبادل من السلع والحاصلات بين مصر والسودان يجتمع فيها التجار على اختلاف الملل . وكثيراً ما كان النوبة يسطون عليها ليضموها الى بلادهم فيحاربهم المسلمون ويردونهم . وفيها مغارس النخيل الخصبة وعندها يبتدىء الشلال الاول من النيل وهي جنادل تعترض مجرى الماء فيسمع لها دوي وخرير ويعسر سلوكه بالسفن فيجرونها بالالبان جراً او يحملونها حملاً حتى تتجاوز تلك المضائق . وعند اسوان كثير من آثار الفراعنة اهمها هيكل انس الوجود المشهور . وكان في عهد روايتنا دير تجاه اسوان في البر الغربي يقيم فيه بعض الرهبان لا تزال آثاره باقية الى الآن . وناهيك بالجبل المجاور لاسوان من جهة الصحراء وفيه المناجم الصوانية التي كانوا يقطعون منها الاحجار الاسوانية وتراها الى الآن باقية وفيها الاحجار المقطوعة والحفر المنقورة

وكان ملك النوبة يومئذ يسمى فيرقي (او قيرقي) وكان طامعاً بملك مصر واخراجها من ايدي المسلمين واعادتها الى ملك الروم . فكانت المخابرات جارية بينهما سراً بواسطة اسقف مقيم في اسوان تاتيه رسل الروم فيبعث بالكتب او بالرسل الى ملك النوبة . واحب ملك النوبة في ذلك العام ان ياتي بنفسه للمخابرة شفاهاً مع الاسقف . فتنكر ونزل في مسلحة

على حدود النوبة و وراء اسوان ولا يعرف به غير نفر من خاصته . وبلغ ذلك الى سمعان من جماعة كانوا مع قافلة الملك عند خروجهما من دنقلة وتركوها قاصدين مناجم الزمرد فلقي سمعان رجل منهم يعرفه فقص عليه الخبر سرًا

و بعد يومين اعدت الركائب لدميانة وسمعان ومعهما خادم وجمل يحمل مؤونتهم والمسافة الى اسوان قصيرة . واشرفوا عليها في الاصيل فقال سمعان « اننا على مقربة من اسوان وهذا جبلها المشهور الذي يقطعون منه الاحجار و ينحتون التماثيل فينبغي لنا ان نتجاوز اسوان نحو الجنوب »

قالت « ولماذا لاننزل فيها فقد بلغني ان فيها ديرًا ذا كرامة احب ان ازوره »

قال « ان الدير على البر الآخر لانتصل اليه الا بعد ان نقطع النيل ولا بد من ذهابنا اليه اما الآن فعلينا ان نقابل الملك »

قالت « واي ملك ؟ »

قال « ملكنا . . ملك النوبة »

قالت « اليس هو في اسوان ؟ »

قال « كلاَّ انهُ لا ينزل اسوان لانها ليست داخلة في مملكتهِ ولكنه ينزل في مسلحة وراء الشلال فيها حامية من رجاله »

فتنحنحت وسكتت وظهر من ملامحها انها تكتم امرًا تحب اظهاره فقال « اظنك تستعجلين السفر الى مصر »

فضحكت وقالت « هل تلومني على ذلك ؟ وقد فارقت اهلي يبكون على فراقي وربما يئسوا من وجودي »

قال « لا الومك يا سيدتي . لكننا بسفرنا الى مصر لا نستغني عن نجدة الملك وزد على ذلك اني مكلف برسالة من ابي حرملة اليه لا بد من تبليغها »

قالت « افعل ما بدالك »

وكانا راكبين على الجمال وقد اشرفا على النيل عن بعد فرأيا سطحه يلمع كفرند السيف وتحده الجبال من الضفتين و يتخلل ذلك انقاض الهياكل الفرعونية فيها الجدران والاساطين ولما اقتربوا من اسوان سمعوا هدير الماء عند الشلال من تزاحمه في سيره بين الجنادل — مر على وادي النيل دول شتى وتوالت عليه احوال مختلفة من عز وذل ونزل ذلك البلد ملوك وقواد من عهد الفراعنة العظام الى اليونان فالرومان فالمسلمين وهدير ذلك

الماء واحد ومجراه على وتيرة واحدة لا يملُّ من الجري ولا يملُّ جاره من السمع

مرُّوا بالقرب من الجبل وقد كادت الشمس تدرك المغيب فقال سمعان « لا نزال بعيدين عن المسلحة فارى ان نبيت هنا الليلة هل تريدين ؟ »

قالت « لا رأي لي يا عماه -- افعل ما تشاء »

فاشار الى الخادم ان ينصب الخيمة وهي صغيرة كالمظلة تبيت دميانة تحتها ويبيت سمعان خارجاً والخادم يعقل الجمال وينام بينها فقال الخادم « اين انصبها »

قال « انصبها في سفح هذا الجبل في مكان ممهد » قال ذلك وترجل وانزل دميانة عن الجمل وقد تعبت واخذ يحدثها ليشغلها عن التعب والقت انظارها الى ما هنالك من المشاهد الطبيعية وهي لا ترى شيئاً لانها حالما وقع نظرها على النيل تنسمت رائحة الفسطاط وتذكرت حبيبها وتاقت نفسها الى اللقاء لترى ما يكون من امرها

وبعد قليل جاء الخادم وانبأهما بنصب الخيمة على مصطبة من الصخر في سفح ذلك الجبل فقال له سمعان « امكث انت هنا مع الجمال الى الصباح وكن متيقظاً لئلاً يسطو عليك اللصوص »

قال « حسناً » ومضى

وصعد سمعان ودميانة لليبيت تحت تلك المظلة وهي لا ترى بأساً من الانفراد بسمعان لانها كانت تعده مثل خادمها زكريا وقد آنست فيهِ لطفاً وخصوصاً لانها عرفته وهي في اشد الضيق وتوسمت فيه طيب العنصر وانه نصراني مثلها والدين من اهم اسباب التقارب

حمل سمعان معه بعض الزاد وجلسا تحت المظلة فتناولا شيئاً من الطعام ثم غلب عليهما النعاس فنامت دميانة على بساط فرشهُ لها سمعان تحت المظلة وتوسد هو ارضاً رملية على بضعة اذرع منها وجعل راسه على ذراعه . وهو يوشك ان ينام سمع دوياً فالصق اذنه بالارض جيداً وتنصت فاذا هو يسمع وقع خطوات قريبة فرفع راسه وقد خيم الظلام واصاخ بسمعه فسمع لغطاً بعيداً فنهض وتمشى حافياً نحو الصوت وهو يتلمس طريقهُ حتى اطل من وراء الجبل على خيام منصوبة ونار مشبوبة وتفرس فاذا هي خيام نوبية الشكل فلم يشك في انها مضارب الملك فحدثته نفسهُ ان يسير اليها لانه يلاقي فيها اكراماً وحفاوة ويبلغ رسالتهُ . ولكنه خاف ان يترك دميانة منفردة فعزم ان يسير بها في الصباح الى هناك وعاد الى متوسده ولم يكد ينام حتى سمع دوياً قريباً فنهض فرأى ثلاثة فرسان يسوقون افراسهم في طريق يؤدي الى ذلك المضرب فتنصت وتفرس بالمارين فلم يعرفهم لانهم متنكرون فعاد الى منامه

وقبل الفجر جاءه الخادم فساله هل شاهد احداً ماراً في ذلك الليل فقال « شاهدت ثلاثة رجال ومرَّ بي خادمهم فسألته اذا كان منهم خوف عليكم فقال « كلا . لا خوف منهم .. لانهم اسقف المدينة واثنين من رجاله » وبالواقع قد رجعوا في آخر الليل ولم نشعر بهم »

فلما سمع سمعان قوله اطرق هنيهة يفكر ثم ابتسم واشار اشارة معناها « عرفت السر » ثم التفت وقال له « امكث هنا بالجمال والثياب حتى نعود اليك » وقال لدميانة « هل تريدين مرافقتي الى هذه الخيام وراء هذا الجبل فانها مضارب ملك النوبة فنقابله ونستاذنه في السفر ثم نعود »

قالت « اذا كنت ترى فائدة من ذهابي اذهب »

قال « الافضل ان تأتي معي واظنك تحبين مشاهدة ملك النوبة فان الناس يتمنون رؤيته » واشار اليها ان تتبعه فمشيا حتى تجاوزا الجبل الى بقعة منخفضة فيها بضع خيام احداها كبيرة فتقدما حتى اقتربا من الخيمة الكبرى فتصدى لهما رجل نوبي غليظ البدن قوي العضل حافي القدمين قد التحف شملة لف بعضها حول حقويه وارسل باقيها من جهة صدره الى كتفيه فظهره وقد علق سكيناً في كوعه وشك سهاماً في شعره المتلبد وعلق قوساً في كتفه . ولما رأى القادمين تصدى لهما فتقدم سمعان اليه وكلمه بلسانه فبغت الرجل عند رؤيته وتولته الدهشة وصاح « سمعان » وهم به فضممه الى صدره وصافحه مثنى وثلاث بين المصافحة والتي تليها يقبل كل منهما يده على عادة النوبة في التسليم . فأخذ سمعان يخاطبه بالنوبية اشياء لم تفهمها دميانة ومشيا وهما متصافحان وكلم سمعان الرجل وهو يشير الى دميانة فاسرع اليها ودعاها ان تتبعه فاستشارت سمعان بنظرة فاومأ اليها ان تتبع الرجل فذهب بها الى خيمة فيها نساء استقبلنها احسن استقبال

الفصل الستون

ملك النوبة

اما سمعان فسار الى الخيمة الكبرى فاستأذن له رفيقه في الدخول فأذن له فدخل واذا هناك فيرقي ملك النوبة وكان بديناً كبير الهامة عليه لباس مزخرف وعند رأسه

زنجيان يحملان مراوح من ريش النعام يروحان له وهو جالس على جلد اسد لا يزال رأس الاسد معلقاً فيه وقد عولج حتى يظهر للرائي كانه اسد رابض . ولم يكن فيرقي في لباس الملك لانه جاء متنكراً ولكنه وضع على رأسه قبعة بشكل التاج وعلق في صدره صليباً من الذهب المرصع واتشح بطرف من الخز عليه صور ملونة اكثرها صور القديسين وخصوصاً صورة القديس جاورجيوس لابس الظفر . وقد جلس الملك الاربعاء ووضع السيف في حجره واصلح من شأنه فاكتحل وتطيب ونزع النعال من رجله . وكان في اواخر الكهولة وقد شاب شعره مع خفة ولكنه كان صحيح البدن مشرق الوجه . وقد احاط خصره بمنطقة من الخز لم يعهد مثلها في تلك بلاده . فلما رأى سمعان داخلاً رحب به وقال « مرحباً بخادمنا الامين سمعان »

فأكب سمعان وهو جاث حتى قبل ركبة الملك فأشار اليه ان ينهض ودعاه للجلوس فجلس بين يديه على حصير من سعف النخل جميل وتأدب فقال الملك « من اين انت قادم؟ »

قال « من المهمة التي انفذني سيدي الملك بها »

قال « من بلاد البجة ؟ . من هو صاحبها الآن وكيف وجدته ؟ »

قال « هو ابو حرملة و . . . »

فقطع الملك كلامه قائلاً « ابو حرملة ؟ النوبي ؟ »

قال « كلا يا سيدي ان صاحب البجة تسمى بهذا الاسم تقليداً لذلك القائد العظيم . . »

قال « وكيف وجدت سياسته ؟ هل هو معنا ؟ »

قال « لم يكن معنا في بادىء الرأي ولكنني جعلته يصير نوبياً اكثر من النوبة . . لان اولئك القوم انما يهمهم النهب فاذا علم ان محاربتنا المسلمين تجيز له النهب جاء معنا . . »

قال « هل افهمته الغرض الاصلي من مناوأة المسلمين ؟ »

قال « ان هؤلاء لا يفهمون معنى الانضمام الى الروم لانهم لا يدينون بالنصرانية . . وانما قلت له انه اذا قامت حرب بيننا وبين المسلمين كان هو بجانبنا . . ورأيت منه انعطافاً »

فضحك وقال « ان البجة اصدقاء النوبة من عهد اسلافنا واذكر اني في عهد ابي الملك الجليل ارسلت في مهمة كان رفيقي بها رئيس البجة غير هذا فذهبنا الى بغداد كرسي المسلمين للشكوى من سوء معاملة المسلمين في اقتضاء الجزية والبقط — وكنت غلاماً فلقيت من

خليفتهم يومئذ كل رعاية واهدانا الهدايا والتحف ووهبنا القصور وبالغ في اكرامنا وقد شاهدنا من خيرات العراق ما لا مثيل له هنا ولما رجعنا اهداني فرساً وسرجاً ولجاماً وسيفاً محلى هذا هو وثوباً ثميناً وعمامة من الخز لم البسها وهي هذه (واشار الى المنطقة حول خصره) غير ما اعطى الى سائر حاشيتنا من الهدايا واهم من كل ذلك ان الخليفة نظر الى شكوانا فوجد عامله بمصر يأخذ منا فوق ما يجب فامره ان يخففه [1] وبالجملة فقد لقينا من ذلك الخليفة خلقاً عظيماً واستتب الحال في عهده ثم تغيرت الاحوال بانتقال الخلافة الى سواه فعاد عامل مصر مناوأتنا . وحق العذراء ان ملك الروم خير لنا من هؤلاء المسلمين فانهم على دين غير ديننا ولا يدخرون وسعاً في سبيل قبض اموالنا واسترقاق رجالنا . ولا اظنني في حاجة الى زيادة التفصيل يا سمعان »

فاحنى سمعان رأسه مؤمناً على قول الملك ثم قال « فالبجة معنا الآن وقد آنست من رئيسهم كل ميل الى ذلك وهو لا يعلم اني جئت لاتجسس احواله وانما اتخذني مترجماً له وقد اغتنمت فرصة سنحت والتمست منه السفر الى دنقلة وانا اعلم ان مولاي الملك هنا »

فقال الملك « نعم لاني اتيت متنكراً لمشافهة اسقف اسوان فقد كان وسيلة بيننا وبين ملك الروم في المخابرة كما تعلم وقد جاءني مساء الامس وتداولنا ملياً فرأيت منه سعياً حميداً . بقي امر البطريرك مخائيل في مصر » قال ذلك وتنهد

فقال سمعان « الم تخابروه بعد ؟ »

قال « قد خابرناه مراراً ولم يأتنا منه جواب لنعلم هل هو معنا ام لا . . »

قال « طبعاً هو معنا لانه . . »

فقطع الملك كلامه وقال « لا تقل طبعاً . . لو كان معنا لاجابنا على كتبنا اليه . . »

قال « ربما ضاعت الكتب في ذهابها اليه او ضاع الجواب في مجيئه الينا »

فاطرق الملك حيناً وهو يحك عثنونه الشائب بسبابته ثم رفع بصره اليه وقال « صدقت ان الكتب قد تضيع في الطريق فهل تكون رسولي الى البطريرك مخائيل تبلغه الامر شفاهاً وتأتيني بالجواب النهائي ولك ان تستخدم مهارتك في اقناعه . . هل تفعل ؟ »

فاحنى سمعان رأسه مطيعاً وقال « افعل ذلك ياسيدي »

قال « اتعلم مقر البطريرك مخائيل ؟ »

قال « اظنه الآن في دير ابي مقار في بادية النطرون »

(١) المقريزي ٢٠١ ج ٢

قال « هل تعرف الدير وهل انت واثق من وجود البطريرك هناك »

قال « اعرف الدير ... واذا لم يكن البطريرك فيه اذهب اليه حيثما يكون .. كن مطمئناً ؟ وانما وازرنا بالدعاء »

فابتسم وقال « انك محبٌ صادق وسنكافئك احسن مكافئة .. واذا ظفرنا بما نؤمله كان لك جزاء حسن »

فوقف سمعان وانحنى انحناء الشكر وقال « اني لا التمس على خدمتي اجراً وانما افعل ذلك حباً بمولاي الملك وتأييداً للدين »

قال « اي متى تسافر ؟ »

قال « متى امر الملك ... ولكنني ارفع الى مقامه ان معي فتاة من قبط مصر وقعت سبية عند البجة وعهد اليَّ ان اعيدها الى اهلها فاحب ان اصطحبها ويكون سفرنا في قافلة بالبر الغربي اذ يكون طريقنا توًّا الى وادي النطرون »

قال « اصطحب من شئت ومهما احتجت اليه في سبيل ذلك خذه وسنأمر صاحب بيت مالنا ان يدفع اليك ماتريده من المال او الركائب »

قال « لا حاجة يامولاي الى الركائب فان الطريق الذي ذكرته لا يخلو من قوافل التجار مارةً باحمال الريش والصمغ والعاج الى مصر فنرافق واحدةً منها بغير ان يعرف القوم غرضنا واجعل نفسي خادماً للفتاة التي ذكرتها »

قال « احسنت ..ومن هي هذه الفتاة ؟ »

قال « ذكرت لمولاي انها سبية غنمها البجة من حلوان بجوار الفسطاط واتوا بها الى اميرهم فارادها لنفسه فابت تمسكاً بالتقوى حتى فضلت الموت على مجاراته » وقص عليه حديثها الى آخره

فاعجب الملك بما سمعهُ من تمسكها بالنصرانية واثنى على عفتها وتقواها وقال له « هل هي معك هنا ؟ »

قال « نعم هي في الخيمة الاخرى .. »

فصفق الملك فدخل غلامه فامره ان يستحضر الفتاة القبطية وقال لسمعان ساجعل سفرك الى مصر في خدمتها اكراماً لها . ثم عاد الغلام وقال « ان الفتاة بالباب » فنهض سمعان فاستقبلها تشجيعاً لها في ملاقاة الملك فدخلت وهي مطرقة فابتدرها الملك قائلاً « مرحباً بالفتاة الطاهرة النقية .. لقد سمعنا بصدق تدينك وعفة نفسك فاحببنا

ان نراك ونهنئك حفظك السيد المسيح وجعلك من مختاريه »

فطأطأت رأسها حياء واحتراماً فقال لها « قد اوصيت محبنا سمعان ان يذهب معك حتى يوصلك الى مأمنك » قال ذلك باللغة القبطية لانه كان يعرفها

فاستأنست دميانة وفرح قلبها لاهتمام ملك النوبة بامرها وشكرت تنازله وخرجت ومعها سمعان الى مبيتها بالامس فاستقرا هناك حتى اتيح لهما تعدية النيل الى البر الآخر فنزلا ديراً هناك اقاما فيه اياماً ينتظران مرور قافلة ذاهبة الى مصر يصطحبانها . وكان سمعان في اثناء ذلك يشتغل باعداد ما يلزم للطريق وصرف الخادم الذي جاء معهُ من عند البجة واوصاه اشياء يقولها لابي حرملة وامر خادماً آخر من اهل بلده اعد لهما جملين خفيفين احدهما له والآخر لدميانة وكانت قد تعودت ركوب الجمال

الفصل الحادي والستون

الى الفسطاط

وخاف ملك النوبة تاخر المهمة التي كلف سمعان بها فاعد قافلة خصوصية سير فيها جماعة من رجاله يحملون بعض اصناف التجارة الى الفسطاط وامرهم ان يسيروا في طريق البادية على البر الغربي للنيل حتى ياتوا الجيزة تجاه الفسطاط ومنها يعبرون النيل الى الفسطاط يبيعون تلك البضاعة في اسواقها فيوصل دميانة الى حيث تريد ثم يبحث عن مكان البطريرك مخائيل ويؤدي اليه مهمته . فلما اعدت القافلة سار سمعان ومارية معها وكل منهما على جمله بما يلزم من اسباب الراحة . وفي هذا الطريق محطات تقف القافلة عندها للطعام او الراحة او المنام ولم تعرف دميانة احداً من ذلك الركب الا سمعان . وكانت تزداد استئناساً به كل يوم عما قبله وهو لا يفتر عن القيام بما يلزم لراحتها ومؤانستها بالاحاديث المختلفة وهي تقص عليه ما تعرفه او ما مرَّ بها وتطرقت طبعاً الى سرد حكايتها وسبب خروجها من بيت ابيها وبالغت في الثناء على زكريا لما اظهره من الغيرة عليها حتى تفانى في مصلحتها وكيف انه تركها المرة الاخيرة في حلوان فسباها البجة ولم تعد تراه ولا تعلم اين هو

فلما سمع حديثها همه امرها فقال « والى اين تريدين الذهاب الآن ؟ »

قالت « لا ادري ولكننا اذا اقتربنا من الفسطاط نسال عن سعيد المهندس في القطائع

بين رجال ابن طولون فاذا عثرنا عليه علمنا منه ما بقي »

قال « اذا لم نقف عليه »

قالت « نبحث عن زكريا » وتذكرت مصائبها بعد ان شغلت عنها بالطوارئ التي دهمتها فانقبضت نفسها وتنهدت

وكان الجملان سائرين متحاذيين وراء القافلة على الرمال لايسمع لخفافهما وقع . واذا التفت الراكب الى يساره لايرى الا رمالاً وصخوراً واما الى اليمين فيقع البصر حيناً بعد حين على المزارع عند ضفة النيل وقد يرى النيل جارياً والعمارة على ضفتيه اكثرها قرى صغيرة الا بعض المدن اهمها اسيوط والفيوم وغيرهما

ولما وصلا بحديثهما الى ما تقدم كانا قد اقتربا من الجيزة ولقيا في طريقهما الهرم المدرج . واشرفا على اهرام الجيزة ووقع نظرهما في اليمين وراء النيل على ضفته اليمنى على حلوان وظهر لها المقطم وعليه قبة الهواء وتحتها قطائع ابن طولون فاذكرها ذلك يوم الاحتفال الذي اخذ فيه سعيد فهاجت اشجانها وغلب عليها السكوت وبان الانقباض في وجهها وتلألأ الدمع في عينيها ولاحظ سمعان ذلك منها فشاركها في احساسها واخذ في التخفيف عنها وكان قد عرف انها بنت وجيه غني واعجبته انفتها وعزة نفسها فقال لها « لا باس عليك يا سيدتي اشكري السيد المسيح على نجاتك من الاسر والعار »

فقالت « اشكره كثيراً . وهو الذي سخرك لانقاذي وهذا من نعمه الكبيرة .. غير اني لما اتذكر شقائي وتعاستي وكيف اني طريدة لا اخ لي ولا أخت ولا أم وقد عاداني ابي واضطهدني اقرب الناس الي .. لما اتذكر ذلك تنقبض نفسي . ولكن ... (وتنهدت) ولكن .. آه .. » وسكتت وظهرت في وجهها ملامح الخجل واليأس معاً لانها تذكرت سعيداً وارادت ان تذكره وترجو لقاءه فغلب عليها الحياء ولحظ سمعان ذلك فيها فاحب ان يخفف عنها وقد تذكر مصائبه وكان قد تناساها مع الزمان فقال « ان الانسان يا سيدتي عرضة للمصائب والمسيحي الحقيقي يتشبه بالسيد المسيح الذي تالم وصلب من اجلنا واحتمل كل ذلك بالصبر فينبغي لنا ان نصبر »

فلما سمعت احتجاجه بالدين اقتنعت واحست براحة ولكنها مازالت محبوسة العواطف وتود ان تقول شيئاً عن سعيد والحياء يمنعها

فقال سمعان « ولا يخفى علي انك تضمرين امراً يمنعك الحياء من التصريح به .. ان سعيداً هو مرجع آمالك واذا لقيته نسيت كل شقاء اليس كذلك .. »

فاجابت وقد غلبت على امرها « نعم صدقت . هل الافيه ؟ اين هو يا ترى . . أفي السجن ام .طلق سراحهُ ام اصيب بشيء آخر ؟ . سعيد سعيد . . حبيبي سعيد » واطلقت لنفسها عنان البكاء فخاف مِمان ان يسمع احد من الركب صوتها فاخذ يتباطأ في سيره وهي تجاريه حتى سبقتهما القافلة مسافة بعيدة وصارت على مقربة من اهرام الجيزة وكانا قد اشرفا عليها وعلى ابي الهول عن بعد واستبشرا بقرب الوصول

اما دميانة فرفعت الكلفة بينها وبين مِمان واتخذته عوناً لها كما كانت تعامل زكريا وزادها تعلقاً به مشابهته اياه في ملامحهِ واخلاقهِ فقالت « هل تظنني انسى هذه المتاعب يا مِمان ؟ »

قال « ارجو ذلك من الله . واعلمي اني غير تاركك حتى ابلغك مأمنك ويطمئن بالي عليك . . » قال ذلك وتنهد وقد تغيرت سحنتهُ وسكت فلحظت فيه ذلك فسألته عما طرأ عليهِ فقال « اني لا أمرُّ من هذا الطريق وانظر الى الفسطاط الاَّ وتنقبض نفسي وتهيج اشجاني . . لحادث اتذكره مع رغبتي في نسيانهِ . . فلا تهتمي بهذا الامر . . عودي الى حديثنا عن سعيد المهندس » قال ذلك وهو يمازحها لاذهاب ما خامرها من الانقباض

فضحكت ولكنها زادت ميلاً الى معرفة حديثه وحسبت الحاحها عليه بكشفه يعد من قبيل الرغبة في التخفيف عنهُ فقالت « لقد شغلت خاطري بما ظهر عليك من الانقباض فلعل لك حديثاً غريباً »

قال « حديثي غريب ولكنهُ قديم وقد كدت انساه »

قالت « ألا تقصهُ عليَّ نقطع به بعض الطريق ؟ »

الفصل الثاني والستون

الهجوم

قال « اقصهُ عليك اذا كان في قصه ما يسليك وخلاصتهُ اني نشأت في صغري مع اخ لي أصغر مني في بلاط ملك النوبة جد هذا الذي رأيتهِ بالامس وكنا في رغد وراحة لا همَّ لنا غير الاكل والشرب واللعب وقد جعلنا من خاصة خصيانه . واتفق ونحن غلامان ان خليفة المسلمين الذي يسمونه عبد الله المأمون اتى الى هذه البلاد لامر اقتضى ذلك وتبودلت المكاتبة بينه وبين ملكنا وكان ملكنا يشكو من سوء معاملة صاحب مصر في تحصيل

الخراج فاغتنم مجيء الخليفة وتقرب اليه بالهدايا من العاج والريش والرقيق وارسلني انا واخي في جملة الهدية فجيء بنا الى هذه المدينة (الفسطاط) فقبل المامون الهدية وفرق بعضها في رجاله واطلق بعض الارقاء وانا في جملتهم وكنت احسبهُ يطلق اخي معي او ياخذنا جميعاً لاني كنت شديد التعلق باخي لكنهُ لم يفعل فبكيت كثيراً وبعد قليل علمت بسفر المامون الى الارياف وانهُ اخذ اخي معه ثم علمت انهُ سافر الى بغداد فشق عليَّ ذلك ورجعت الى الملك واقمت في خدمته ولا ازال ٠٠ وما زلت منذ اتيت الفسطاط لا اسمع اسمها الا انقبضت نفسي فكيف اذا رأيتها ٠٠ »

فقالت « يحق لك الاسف يا عماه على ضياع اخيك ٠٠٠ » ثم انتبهت لامر خطر لها فقالت « وما هو اسم اخيك ؟ » قال « اسمه ابراهيم ٠٠ »

وهمت ان تستزيده ايضاحاً فاذا هو ينظر نحو الاهرام نظر المتفرس وقد تغيرت سحنته فالتفتت فرأت القافلة قد تبعثرت واحاط بها شرذمة من الفرسان علمت من البستهم انهم من الجند فقالت « ويلاه ان الجند سطوا على القافلة »

فقال سمعان « قبحهم الله قد سطوا عليها وسلبوها ٠٠٠ ان الجند وضع لحماية السابلة وليس لقطعها ٠٠ اني اراهم يسوقون الرجال والاحمال جميعاً ٠٠ الافضل لنا ان نلتجىء الى مكان نختفي فيه لئلا يصيبكِ سوءٌ ولو كنت وحدي ما رضيت التخلف عن الرفاق ولكنني افعل ذلك رغبة في صيانتك »

قال ذلك وتحول وهي تتبعه الى انقاض بناء قديم من بقايا الفراعنة وهي كثيرة هناك فترجلا وأدخلا الجملين الى مخبإ وجلسا على بعض الاحجار ودميانة ترتعد من الخوف وسمعان يخفف عنها ويشجعها الى ان قال « لا تخافي ان الجند لا يأتون هذا المكان وهم لم يرونا ولا اظنهم يريدون القبض على اي كان ٠٠ وبعد قليل تغرب الشمس ويخيم الظلام فنخرج خلسة فنمر من وراء الاهرام حتى تنزل الجيزة فنبيت في خان هناك ونصبح في الغد الى الفسطاط »

قالت « اخاف ان يلاقينا احد من هؤلاء »

قال « لا تخافي ٠٠ قبل ذهابنا نتجسس الطريق ونتشوف فاذا رأينا احداً اختبأنا »

قعدا في تلك الخربة وفيها الاساطين والتماثيل مهملة مبعثرة وكأن الجملين هالهما المنظر فتهيبا فاخذا في الجعير وسمعان يسكتهما لئلاً ينم جعيرهما على المكان ٠ فوضع لهما العلف يشغلهما به ولم يمض يسير حتى مالت الشمس نحو الافق فاخذت الاظلال تستطيل حتى

اذا توارت الشمس اختلطت الاظلال وصارت ظلاماً فاستولت الوحشة على تلك الخرائب فلجأت دميانة الى الصلاة تستجير بالمسيح ومريم العذراء واخذ سمعان يهتم بالانتقال من ذلك المكان لوحشته وانفراده وهو لا يخلو من الحشرات السامة فضلاً عما يعتقدونه من وجود الجان او العفاريت فيه ولولا الايمان والصلاة لما اطاقا المكوث هناك لحظة فضلاً عما قاسياه من العطش فان قرب الماء كانت محمولة مع القافلة واخذت معها

فلما تكامل الظلام قال سمعان « هيا بنا نركب نحو الاهرام اني لا ارى شبحاً ولا اسمع صوتاً ولا ريب ان القوم رجعوا الى الفسطاط »

فنهضت دميانة فاركبها جملها وركب جمله وربط زمام جملها برحل جمله بحيث تبقى هي في اثره

سارا على تلك الصورة مدة لا يتكلمان وقد تهيبا للسكوت التام المستولي على تلك الرمال وما يجاورها من المغارس فاذا التفت الناظر الى يساره رأى الافق تعترضه التلال الرملية والصخرية أو الى يمينه فيرى البساتين الى النيل ووراءه المقطم وفي سفحه القطائع والفسطاط وعلى ضفتي النيل شجر النخيل يناطح السحاب . ولم تكن تلك الصور واضحة لتغلب الظلام فكان الناظر اذا ارسل بصره الى الاغراس والاشجار والمنازل لم يرَ واضحاً منها الا اعاليها

الفصل الثالث والستون

شبح غريب

وكان سمعان وهو على جمله يتطاول بعنقه ويشخص ببصره ويتفرس في ما بين يديه مخافة ان يكون هناك متربص من اللصوص او الجند فكان يرى ابا الهول والهرمين الكبيرين تقترب اليه وتنجلي صورها بالتدريج وهو يصيخ بسمعه فلا يسمع الا صوت وقع خفاف الجمل على الرمال وصوت شخيره او تنفسه . حتى اذا اقتربا من ابي الهول امسك سمعان بزمام جمله حتى يسير الهوينا . ولم يكد يتجاوز ابا الهول ويشرف على الهرم الكبير حتى رأى شبحاً يتسلق الهرم تسلق المتلصص الخائف وظهر له من قيافته انه من العامة ولم يرَ وجهه ليتبين سحنته . فلما رآه يتلصص اوقف جمله فرأى الرجل توقف هنيهة ثم عاد الى الصعود فتأكد

سمعان انه لا يخشى منه . فساق الجمل نحو الهرم المذكور حتى استقبل الجانب الذي راى الرجل يتسلقه فرآه قد تحول نحوهما ونزل الى اسفل الهرم ووقف . فخطر لسمعان ان يسأله عن الماء ليتطرق من ذلك الى التفهم عن احوال اخرى فقال له باللغة القبطية « من الرجل ؟ »

فاجاب « من اهل القرى ومن انت ؟ »

قال سمعان « غرباء نطلب ماء هل تعرف مكاناً فيه ماء بهذا الجوار ؟ »

فتقدم ذلك الشبح وهو يقول « ان في هذا الجوار عيناً فيها ماء كثير تعاليا فادلكما عليها »

وكانت دميانة مصغية وهي تخاف ان يكون الرجل من طلائع الجند فلما سمعت صوته خفق قلبها واجفلت لانه يشبه صوت زكريا . فلما راته مشى وتبعه سمعان صبرت لتسمع كلامه ثانية . فعاد سمعان الى سؤاله عن اقرب الطرق الى الفسطاط فقال « تنحدران من هذه الاكمة بين هذه المغارس الى الضفة فتجدان هناك جسراً من السفن المتحاذية تقطعان عليه الى جزيرة الروضة ومنها على جسر آخر الى الفسطاط »

وكانت دميانة تسمع كلام الرجل وقلبها يزداد خفقاناً لانه صوت زكريا بعينه وتفرست في مشيته عن بعد فتحققت انه هو فلم تعد تعلم ماذا تقول من الدهشة والفرح فتجلدت وقالت « هل تريد ان ترافقنا في هذا الطريق يا عماه ؟ » قالت ذلك بصوت مختنق من شدة التأثر

فتعجب سمعان من تصديها ومن اختناق صوتها اما الرجل فلما سمع الصوت وقف والتفت الى دميانة والظلام يحول بينهما وكانت هي قد استمدت للتفرس فيه فلم يبق عندها ريب من أمره . واما هو فاختناق الصوت شوش عليه حكمه لكنه اشتبه فقال « اني في خدمتكم الى حيث تشاؤون فهل نذهب تواً الآن » واصغى ليسمع الجواب

فقالت « نشرب اولاً ثم نسير الى دير المعلقة »

فلما سمع قولها دير المعلقة اقشعر بدنه وتراجع حتى امسك بزمام الجمل وسمعان يستغرب رجوعه . اما هو فامسك الزمام وقال « من انتِ .. مولاتي ... دميانة .. دميانة ؟ »

فصاحت هي « زكريا ! . عماه زكريا . » وكادت لهفتها ان تقع عن الجمل فلما سمعها سمعان تذكر زكريا بهذه اللهفة ادرك انه خادمها الذي كانت تحدثه عنه فتحول عن الجمل واناخ جملها وساعدها على النزول فاكب زكريا على يدها يقبلها وكاد لولا الحياء ان يضمها اليه فقد كان يتلهف لرؤيتها ومع ذلك فانه حسب نفسه في حلم اذ لم يخطر له وهو يحسبها اسيرة في ارض البجة ان يلاقيها في تلك الساعة الحرجة بجوار الاهرام . فاعاد السؤال والاستفهام وهي ايضاً فقال « سيدتي دميانة .. انت هنا اشكر المسيح على سلامتك كيف

جئت ؟ من انقذك ؟ . »

قال « لا تقل سيدتي فانك عمي وهــذا عمٌ آخر انقذني من بلاد البجة وتكلف المشقة في ايصالي الى هذا المكان »

فصافحه زكريا وسلم عليه واثنى على فضله لكنه لم يتبينه لشدة الظلام

ولم يكن سمعان اقل دهشة لهذه الصدفة فقال « الحمد لله قد انقضت مهمتي على اهون سبيل فاهنئكما بهذا اللقاء »

فقال زكريا « امكثا عند قاعدة الهرم وانا آتيكما بالماء تشربان ثم نسير الى الفسطاط معاً » قال ذلك ومضى. ثم عاد اليهما بالماء فشربا ودميانة تود ان تعرف ماتم لسعيد والحياء يمنعها عن السؤال فقالت « اين كان غيابك كل هذه المدة — وكيف حالك »

فادرك غرضها فقال « ان حديثي طويل ساقصه عليك. اما حالي فانه على غاية مايرام والحمد لله وسيدي سعيد ينتظر مجيئك وهو على مثل الجمر واهنئك بما ناله من الحظوى في عيني صاحب مصر فهو صاحب الكلمة النافذة والمقام الرفيع . . »

وكان زكريا يتكلم وقلب دميانة يرقص فرحاً ولما فرغ من كلامه بسطت يديها نحو السماء وقالت « اشكرك اللهم لانك حرسته وحفظته وقد حق عليَّ وفاء النذور . »

فقال سمعان « لا اقدر اصف لكما مقدار سروري بهذا اللقاء فان قلبي يكاد يطير فرحاً فاهنئكما بذلك واستأذنكما في المسير بطريقي »

فاعترضته دميانة قائلة « كلا ياعماه اني لا اسمح بذهابك على هذه الصورة . . . ينبغي لي ان اكافئك على تعبك الجزيل . . »

قال « لا استحق المكافأة على شيء ياسيدتي وانا ذاهب الآن في مهمة لابدَّ لي من قضائها وساعود بعدها اليكم »

قال زكريا « ان مهمتك يااخي لم تفرغ بعد وما انا مطلق السراح لاكون في خدمتها »

فقالت دميانة « وكيف ذلك ؟ »

قال « اني سجين ياسيدتي »

قالت « سجين ! اني اراك حرًّا مطلقاً . »

قال « ولكني اتيت من السجن ولا بد لي من الرجوع اليه »

قالت « ترجع اليه من تلقاء نفسك ؟ تكون حرًّا وتقيد نفسك ؟ »

قال « خرجت من السجن بضمانة رجل على ان آتي هذا الهرم آخذ منه شيئاً اودعته

فيه واعود الى السجن ولا بدَّ لي من القيام بالوعد »

قالت « صدقت ان وعد الحر دين . . ولكن كيف حبست ولماذا اني لم افهم ما تقول »

قال « حديثي طويل ساقصه عليك في اثناء الطريق واستأذنكما الآن في الصعود الى باب هذا الهرم ثم اعود »

فاذنا له فصعد ثم عاد وقال « هيا بنا الى اسفل هذه الاكمة ان حماراً لي ربطته هناك فاركبه ونسير معاً »

فنزلوا حتى ركب حماره ومشى بين الجملين واخذ يقص ماجرى له بعد فراق دميانة في حلوان وكيف ذهب الى بيت ابيها اخذ منه الاسطوانة حتى ذهب الى دير ابي مقار ومقابلة البطريرك مخائيل وكتابه الى ملك النوبة وكيف انه وضعه في الكيس مع الاسطوانة وكيف خانه ذلك اليهودي واتى بالجند قبضوا عليه فخبأ الكيس بباب الهرم وحمل الى السجن. وبعد قيامه في السجن حيناً توصل الى مخابرة سعيد واخبره عن الكيس وانه يريد ان ياتي به فتوسط له عند السجان بالخروج على ان يعود الى السجن في تلك الليلة — الى ان قال « فاتيت خلسة لاستخراج الكيس من باب الهرم فرأيتكما وخفت ان تكونا عيناً عليَّ وجرى ماتعلمانه . ثم ذهبت الى باب الهرم واتيت بالكيس وهو معلق بعنقي تحت اثوابي . . . وانتِ كيف تخلصتِ من الاسر ؟ »

فقصت عليه حديثها الى آخره واطنبت بمكارم اخلاق العم سمعان . وكان هذا لما سمع حديث زكريا وما يتخلله من كلام البطريرك مخائيل عن مخالفته ملك النوبة في اخراج مصر من حكم المسلمين الى حكم الروم قد فترت همته عن الذهاب اليه ولكنه اراد زيادة الاستفهام فقال « بالحقيقة انك قاسيت كثيراً في ذهابك الى دير ابي مقار . هل البطريرك هناك الى الآن ؟ »

قال « سمعت انه قادم الى الفسطاط لمقابلة صاحب مصر ابن طولون »

قال « واين كتابه الى ملك النوبة . . ألا يزال معك ؟ »

قال « هو في هذه الحقيبة (الكيس) مع الاسطوانة »

قالت « دميانة اراك كثير العناية بهذه الاسطوانة حتى عرضت نفسك للخطر من اجلها . . فما الفائدة منها ؟ »

قال « ستعلمين ذلك بعد حين »

وكانوا يتحدثون والركائب ماشية حتى وصلوا الى جسر الجيزة فعدُّوا عليه الى الروضة

ومنها الى ضاحية الفسطاط عند بابلون قرب دير المعلقة . فلما صاروا هناك قال زكريا « لا بد لي من الذهاب الى السجن الآن فاين تمكثان ريثما نرى مايكون ؟ »

قالت دميانة « انا افضل النزول في هذا الدير »

فقطع كلامها قائلاً « لايوافق ذلك لان اهله يعرفونك فاخاف ان ينقلوا خبرك الى الاسقف المعهود او والدك او الى اسطفانوس فيسعون في ضررنا والافضل ان تنزلي في كنيسة بابلون بهذه المحلة باعتبار انك من بعض اهل القرى ومعك خادمك هذا ريثما آتيكما »

فاستحسنت رايه فمضى بهما الى دير بابلون وادخلهما فيه واسرع الى السجن

الفصل الرابع والستون

سعيد

وكان زكريا قد خرج من ذلك السجن خلسة بايعاز سعيد الى السجان . والسبب في هذا التوسط ان زكريا سعى ثاني يوم سجنه في الوصول الى سعيد وقد علم انه صار من اهل النفوذ بعد ان اخذ في بناء الجامع فانفذ خبره اليه فبعث يسأله عن امره فتواعدا على المقابلة بجانب السجن والسجان لايرى بأساً في ذلك اكراماً لسعيد . فاطلعه على ما جرى له وانه بعد ان اتى بكتاب التوصية الى ملك النوبة خبأ الكتاب والاسطوانة في مدخل الهرم الكبير . وقص عليه اهمية الاسطوانة بالنظر الى مصلحة دميانة . فاخذ سعيد يبحث مع زكريا عن السبيل المؤدي الى انقاذ دميانة من البجة اما رأساً وهو امر شاق لا وجه له واما على يد ملك النوبة واتفقا آخيراً على ان يذهب زكريا لاستجلاب الاسطوانة وتوصية ملك النوبة ويجعلها عند سعيد ريثما يسعى في الافراج عنه فينفذه في هذه المهمة الى ملك النوبة . فاستأذن السجان في خروجه في اصيل ذلك اليوم على ان يعود نحو العشاء . وتواعدا ان يأتي زكريا اولاً الى منزل سعيد في قصر له باطراف القطائع فيضع تلك الامانة عنده ثم يذهب الى السجن

فلما رجع بعد مفارقة دميانة وسمعان في ذلك الليل سار يلتمس منزل سعيد اولاً كما تواعدا فوصله فوجد الباب مفتوحاً فدخله على غير ريبة ولم يعترضه احد حتى اتى الغرفة التي يقيم فيها سعيد وكان مشتغلاً ببعض الرسوم يعدها لهندسة الجامع وقد استبطأ زكريا فلما اعلموه بوصوله خف لاستقباله وسأله عن سبب غيابه فلم يدر زكريا كيف يبدأ الحديث لفرط

لمقته وكان السرور باديًا في حركاته وسكناته وقد ذهبت السويداء التي كانت قد تغلبت عليه . فلم يمهله سعيد ان قعد فابتدره قائلاً « لقد ابطأت عن الموعد وأنت تعلم اني ضمنت للسجان رجوعك عند العشاء ونحن الان في منتصف الليل ولا يخفى عليك ان الشكوك والظنون محيطة بنا من كل ناحية .. »

وكان زكريا يسمع قوله و يضحك كانه لا يبالي بما يحدق به من الخطر فاستغرب سعيد استخفافه بالامر فقال « ما بالك تستخف بما اقول لعل تلك الاسطوانة اسكرتك من الفرح .. »

قال « كلا ليس الاسطوانة بل دميانة .. »

فاجفل وصاح فيه « دميانة !. دميانة .. ماذا تعني .. ما بالها .. اين هي ؟ »

قال « دميانة . هنا »

فلم يتمالك ان وقف فجأة وصرخ « دميانة هنا . اين هي .. اين ؟ . » وهم بالخروج من الغرفة وهو يحسب دميانة في الدار فاستوقفه زكريا وقال « طول بالك ... ليست في هذا المنزل وانما هي في هذا البلد .. هي قريبة جدًا من هذا المكان دعنا منها الآن »

فنظر اليه وهو يتفرس في ملامحه وقد حسبه يمزح وقال « قل الصحيح يازكريا اين دميانة .. ؟ »

قال « قلت لك انها قريبة من هذا المكان ولكن لاسبيل اليها الآن وستاتي عند الاقتضاء وفي الوقت المناسب »

قال « الآن .. اين هي ؟ »

فنظر فيه نظر الجد وقال « تربص ياسيدي حتى تتخلص من السجن وعند ذلك اجمعك بدميانة وهذه هي الاسطوانة » واستخرج الجراب او الكيس من تحت ابطه واستخرج منه الاسطوانة والكتاب وقال « هذه الاسطوانة التي اخبرتك عنها وهذا هو كتاب البطريرك مخائيل الى ملك النوبة احتفظ بهما عندك لحين الحاجة »

فتناول سعيد الاسطوانة واخذ يقلبها بيده وهي مختومة وتناول الكتاب . وبينما هو يقلبه سمع دبدبة في صحن منزله وقد علا صياح الخدم يستغيثون فخرج ليرى السبب فرأى شرذمة من الجند دخلوا المنزل وفي مقدمتهم رجل يقول « هذا هو اللص اقبضوا عليه » واشار الى زكريا واكبَّ على الاسطوانة واراد اختطافها من يد سعيد وهو يقول « وهذه هي الاوراق المسروقة » فقبض سعيد على الاسطوانة وجذبها نحوه وعرف ان الرجل الذي

يكلمه اسطفانوس فانتهره قائلاً « اذهب في سبيلك يا غلام ولا تطمع نفسك بشيء من ذلك » فصاح احد الاجناد قائلاً قد اتينا بأمر الوالي للقبض على هذا السجين الهارب وما معه وهذه الاسطوانة وهذا الكتاب كانا معه فينبغي ان نأخذهما ونأخذه الى السجن وفي صباح الغد ينظر الوالي في امره »

فقال سعيد « خذوا الرجل الى سجنه واما هذه الاشياء فانها محفوظة عندي لحين الحاجة اقدمها بين يدي الوالي او القاضي . »

فصاح اسطفانوس « بل نأخذها الان وان ابيت ان تعطينا اياها فن هذا الجند يأخذك انت ايضاً الى السجن لانك واطأت السارق على الخروج من السجن وساعدته على اخفاء السرقة . . »

وقبل ان يتم كلامه رفسه سعيد برجله فالقاه في الخارج وصاح برجال قصره ان يخرجوه من المنزل والتفت الى عريف الجند وقال له « لا يغرنك كلام هذا الغلام الجاهل بل اصغ الى ما اقوله لك . . كنت عازماً ان اسلمكم السجين تأخذونه الى سجنه وقد رأيت الآن ان احتفظ به هنا عندي الى حين الطلب فمن كان له عليه طلب يطلبه مني »

فلما سمع العريف الكلام الجد من سعيد تهيب وخرج ومعه اسطفانوس يصيح و يهدد و يتوعد ولما صار خارج البيت قال للعريف « اشهدوا ان اللص والسرقة عند صاحب هذا القصر »

وكان مرقس قد كاشف اسطفانوس بسرقة الاسطوانة وافهمهُ انها اذا وقعت بيد دميانة قضت على ثروته ومستقبله ووعده خيرًا اذا قدر ان يحصل عليها . فاخذ اسطفانوس يراقب حركات الذين حوله فعلم بمجيء سعيد ومخاطبته و بالاذن في خروجه لكنه لم يره ساعة الخروج وانما علم انه ليس في السجن وانه سيعود اليه بعد ان يمر ببيت سعيد فاستخدم اسم والده بغير علمه باعداد شرذمة من الجند تربط قرب بيت سعيد فاذا دخل زكريا المنزل قبضوا عليه واتهموا سعيدًا بالاشتراك معه وسار هو معهم لعله يقدر ان يختطف الاسطوانة و يخفيها ثم هو لا يهمه شيء وقد اخرج هذا التدبير الى حيز الفعل لكنه لم ينجح في القبض على الاسطوانة ولا على السجين ورجع مخذولاً يبكي من غيظه وسار تواً الى مرقس فقص عليه ماجرى واستحثه على الشكي من سعيد لانه خالف القوانين باخراج اللص من السجن ثم هو ابى تسليمه الى الجند . وفوق ذلك انه مواطيء للبطريرك خائيل على مساعدة ملك النوبة لاخراج مصر من ايدي المسلمين وارجاعها الى ملك الروم . وان كتاب البطريرك الى

ملك النوبة موجود مع الاسطوانة عند سعيد وذلك يغني الحكومة عن اقامة الرابطة يقبضون على القوافل الآتية من النوبة لعلهم يعثرون فيها على مكاتبة كما فعلوا بقافلة الامس

وفي صباح اليوم التالي ركب مرقس حماره الى القطائع وطلب الدخول على المعلم حنا كاتب المادراني والد اسطفانوس فسلم عليه ثم قص عليه امره وطلب اليه ان يساعده في حمل الوالي على مقاصة سعيد لجسارته وتعديه لانه ساعد السارق على اخفاء السرقة

ولم يكن المعلم حنا يجهل اسباب تلك المخاصمات ولكنه كان في شاغل عنها بمنصبه واعماله ولم يكن ابنه اسطفانوس يجسر على مخاطبته بشأن من الشؤون وقد رأيت لما كلفه ان يخطب دميانة له انه كان اول من زهد اباها به فلما سمع شكوى مرقس قال له « هذا القضاء موجود ارفع شكواك الى القاضي وهو ينظر فيها ولا يضيع حقك »

فقال « ولكن ربما انحاز القاضي الى سعيد لانه حائز على رضى الوالي اليوم فلم ينصفنا »

قال « القاضي غير متهم فاذا كانت دعواك حقًّا نلت حقك منها » قال ذلك وحوّل وجهه يتظاهر بالاهتمام بامور أخرى

فقال مرقس « يظهر انك لم تهتم بهذا الامر فربما كان من قبيل المسائل الخصوصية ولكن سعيداً وزكريا مشتغلان بمؤامرة ضد دولة المسلمين فهم يساعدون البطريرك مخائيل في ايصال كتبه الى ملك النوبة لقلب دولة المسلمين واعادة البلاد الى ملك الروم وقد قبض الجند على كتاب عندهما من البطريرك المذكور الى ملك النوبة . واراد الجند ان يأخذه منهما فابى سعيد تسليمه ولكنه قال ان الكتاب عنده مع الاسطوانة يقدمهما عند الحاجة »

فملّ المعلم حنا من هذا الحديث وقد ساءه سعي مرقس في هذه الوشايات لكنه استنكف ان يقول له ذلك في وجهه فتلطف وقال « اذا كان عندك مثل هذه البينات فاطلب الرجل فيقع تحت طائلة القصاص »

فخرج مرقس خجلاً ولقيه اسطفانوس خارجاً فاستحيا من الاعتراف بما ناله من الخجل لاستخفاف المعلم حنا باقواله فقال « ان والدك اشار عليّ باقامة الدعوى »

فقال « معلوم .. وها اني ذاهب لاشتكيه » وكان اسطفانوس مسموع الكلمة عند ارباب المناصب اكراماً لوالده فرفع المسألة الى القاضي باسم مرقس بحجة ان الخادم زكريا الذي كان قد سجن بتهمة سرقة بيت سيده خرج من السجن خلسة بمساعدة سعيد المهندس الفرغاني ولما ذهب الجند للقبض عليه طردهم سعيد واهانهم ولم يسلم السارق

فلما طلب من القاضي النظر في هذه القضية استدعى المتهمين فجاء سعيد وقال « اني

اطلب ان تنظر دعوانا بين يدي الوالي نفسه لان المسالة ذات شان »

الفصل الخامس والستون

المحاكمة

فلم يسع القاضي الا اجابة الطلب فرفع الامر الى ابن طولون بنوع خصوصي فطلب ابن طولون حضور الجميع في غرفة خاصة من قصره فحضر مرقس وزكريا وسعيد فامر لهم ابن طولون بالجلوس وهو يتفرس في وجوههم فتذكر انه شاهد زكريا مرة قبل هذه فقال ابن طولون « باي لسان تتداعون » فقال « في العربية فاننا نفهمها جميعاً » فقال « من منكم المدعي » فوقف مرقس وقال « انا يا مولاي »

قال « وما دعواك ؟ »

قال « لي دعوى خصوصية على هذا الخادم النوبي وقد اطلعت على دسائس ذميمة سعى فيها ضد ولي امير المؤمنين مولانا الامير وساعده على ذلك المهندس الفرغاني »

فالتفت ابن طولون الى سعيد وتفرس فيه تفرس عتاب فرآه مطمئن البال لم يتغير مطلقاً وكان بين يدي ابن طولون كاتب امره ان يدون دعوى المعلم مرقس ثم قال له « قل لنا اولاً ما هي دعواك الخصوصية على هذا الرجل »

قال « انه كان خادماً في منزلي فغافلني في اثناء غيابي عن طاء النمل وسرق كثيراً من نقودي واوراقي وفي جملتها اسطوانة فيها اوراق خصوصية مختومة لا يجوز فتحها »

فالتفت ابن طولون الى زكريا فرآه مطرقاً متادباً فقال « ما تقول يا رجل ؟ »

قال « انا اعترف يا مولاي اني سرقت من منزله هذه الاسطوانة (واخرجها من جيبه) ولم اسرق شيئاً آخر ولا اظنه يستطيع اثبات السرقة علي »

فلما راى مرقس الاسطوانة في يد زكريا مد يده ليأخذها منه فامتنع عن تسليمها اياه ودفعها الى ابن طولون وقال « ان لهذه الاسطوانة حديثاً سنصل اليه في اثناء الدفاع فتبقى مع مولانا الامير »

فرجع مرقس مقهوراً وزاد غضباً لنفسه فقال ابن طولون « وما الذي اطلعت عليه من دسائس هذا النوبي علينا »

قال « لما سرق هذه الاسطوانة وغيرها من منزلي فرَّ الى دير ابي مقار فارسلت في في اثره رجلاً تعقبه فعلم انه حمل كتاباً من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة جواباً على كتاب جاء من ذاك يحرضه فيه على السعي في اخراج مصر من حكم المسلمين وارجاعها الى ملك الروم »

فلما سمع ابن طولون هذه الشكوى اعتقد صدقها لانه سمع بذلك من قبل واراد ان يكون البحث فيها بحضور البطريرك نفسه فقال « وقد علمت ان البطريرك مخائيل نزل الفسطاط بالامس والاولى بنا احضاره ليكون الكلام في حضوره » وصفق فجاء غلام امره ان يدعو البطريرك مخائيل في تلك الساعة الى الجلسة لتأدية شهادة

فتقدم زكريا عند ذلك وقال « لا يزال بعض المدعى عليهم غائبين فاذا استحسن مولانا ان نستقدم الباقين فعل »

قال « ومن ايضاً ؟ »

قال « ابنة المعلم مرقس هذا فانها شريكة معي في سرقة هذه الاسطوانة »

فقال « من يحضرها ؟ »

قال « انا احضرها »

وكان لهذا الكلام وقع السهام في قلب مرقس فاراد المعارضة في احضارها فقال « لا يا سيدي اذا ذهب لا يرجع فانه سريع الهرب »

قال زكريا « يرسل مولاي من شاء من الخفر يحرسونني حتى اعود فان الفتاة على مقربة من هذا المكان »

فامر ابن طولون بعض الحرس يرافقونه ويأتون به ومكث الامير وسعيد ومرقس في انتظار مجيء البطريرك ودميانة . وابن طولون في اثناء ذلك يردد في خاطره ما سمعه من مشاركة سعيد في الدسائس على الدولة فنظر اليه وقال « سعيد .. الم نرفع قدرك ونجعلك من خاصتنا ؟ »

قال « ومن ينكر ذلك ؟ اني غارق في نعم مولاي الامير وحاشا لله ان اسعى في غير خدمته »

قال « فالمعلم مرقس كاذب في ما يقول ؟ »

قال « سيظهر ذلك قريباً ياسيدي .. وهذا هو الكتاب الذي يزعم المعلم ان زكريا حمله من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة »

قال ذلك ودفع الكتاب مختوماً الى ابن طولون فوضعه بين يديه بجانب الاسطوانة واراد فضه فاجل ذلك الى حضور البطريرك

و بعد قليل جاء الغلام ان البطريرك بالباب فامر بدخوله فدخل وعليه لباسه الرسمي وقد بدت البغتة في وجهه فوقف له الحضور وابن طولون ايضاً ودعاه الى الجلوس على كرسي بجانبه فجلس واول شيء وقع بصره عليه كتابه الى ملك النوبة بين يدي ابن طولون فاستغرب ذلك والتفت فوجد المعلم مرقس وكان يعرفه ويعرف قصة ابنته مع اسطفانوس وكذلك سعيد

الفصل السادس والستون

كشف السر

ولم يكد يستقر البطريرك في مجلسه حتى دخل الغلام ينبيء بمجيء زكريا ودميانة فدخلا وفي اثرها سمعان النوبي وقف في بعض اطراف القاعة . فلما وقع نظر البطريرك على زكريا ودميانة ادرك بعض الغرض من حضوره . فاول من تكلم ابن طولون فوجه كلامه الى البطريرك لان مسألته اعظم اهمية عنده من سواها فتناول كتابه بيده ووجهه نحوه وقال « اليس هذا الكتاب منك ؟ »

فنظر البطريرك في الكتاب وقال « بلى »

قال « اليس خاتمك عليه ؟ »

قال « بلى ياسيدي »

قال « هو الى ملك النوبة تخابره فيه بشان اخراج هذه البلاد من حوزة المسلمين ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قال « الهذا الحد بلغ من امرك ان تواطيء عدونا علينا ؟ »

فتبسم البطريرك وقال « ان الامير يطالبني بما سمعه من الوشاة .. وهم لسوء الحظ من ابنائي ورعيتي .. لقد قالوا اني خائن واني اخابر وادس الدسائس وقد قبضوا على كتابي هذا على غير علم مني فما على الامير الا ان يفضه ويأمر بتلاوته وعند ذلك يعرف الحقيقة فاما ان اكون خائناً استحق ما ضربتموه عليَّ من الاموال التي اثقلت كاهلي او اكون بريئاً والامر بعد ذلك للامير » قال ذلك وقد بدا التأثر في عينيه وشفتيه وصارت لحيته ترقص في صدره .

فرآه ابن طولون يقول الحق ويطلب العدل فقال « صدقت . » واشار الى الكاتب بين يديه وقال « انت تقرأ القبطية ؟ »

فوقف الكاتب وقال « نعم يا سيدي »

فدفع اليه الكتاب ففضه واخذ يقرأه ويترجمه والكل ساكتون يسمعون وهذا فحواه :

« ولدنا بالروح فيرقي ملك النوبة

« وصلنا منك عدة كتب تدعونا فيها الى خلع طاعة حكامنا المسلمين والرجوع الى سلطة الروم . ولو كان الروم خيرًا لنا من سواهم ما خرجنا من طاعتهم ورضينا ان يحكمنا اي كان غيرهم . وهؤلاء العرب قد تعودناهم وتعودونا وهم خير لنا من اولئك . لا انكر عليك ان بعض الولاة المسلمين كانوا اهل ظلم وشدة ساموا ابناءنا الاقباط انواع العذاب ولكنهم على الاجمال اهل عدل ورفق وخصوصًا اميرنا الحالي احمد ابن طولون فانهُ ما انفك منذ تولى مصر وهو يرفع المظالم ويكف الاذى عن طائفتنا .. على انك لو تدبرت ما لحقنا من الاذى في عهد هؤلاء العرب لوجدت الحق علينا نحن لفساد نياتنا وانقسامنا فيما بيننا نتهم بعضنا بعضًا ويشي بعضنا ببعض لضغائن في الصدور .. واقرب شاهد وقع معنا ان بعض الاساقفة قصر في واجباته الكنسية فحرمته فلكي ينتقم لنفسه وشى الى الوالي اني صاحب اموال واشار عليه ان يطالبني بالاموال اللازمة للدولة فضربوا علي ضرائب يعلم السيد المسيح اني عاجز عن نصفها وربعها ولكن الوالي لا يصدق قولي .. هذا مثل ضربته لك فاعتبر به ورأيي ان نقنع بالرضوخ لحكامنا هؤلاء فهم خيرٌ لنا من سواهم واذا وجدنا في بعضهم عيبًا فقد كان في ولاة الروم قبلهم ما هو اشرّ وادهى . وفي الختام اهديك البركة والدعاء ونطلب الى المولى ان يصلح نياتنا ويجمع قلوبنا فتحسن معاملة حكامنا لنا والسلام »

كان الكاتب يقرأ ويترجم والحضور يسمعون والبطريرك مطرق ينتظر النتيجة . وابن طولون بعد ان كان منقبض الوجه لم يأت الكاتب عن آخر الكتاب حتى انبسط وجهه والتفت الى البطريرك وقال « لقد اسأنا عشرتك وسمعنا الوشاية فيك .. والله لو كان كل ابناء طائفتك على رأيك كانوا اسعد حالاً وانعم بالاً فوجب علينا التخفيف عنك وقد اتت هذه الشكوى لك لا عليك »

قال « هذه ارادة الرب »

فالتفت ابن طولون الى مرقس وقال « هذه دعوى يامعلم قد سقطت فاين هي الاخرى »

فوقع مرقس في حيرة لكنه اراد التخلص وتحويل الموضوع فقال « ان ابانا البطريرك

قد تبرأ بنص كتابه ولكن حامل الكتاب حمله وهو لا يعلم فحواه وكان ينبغي له ان يأبى نقله ولكنه نوبي يخدم مصلحة ملكه ولو علم ان الكتاب بهذا المعنى لم يحمله »

فقال ابن طولون « الواقع ان الكتاب بهذا المعنى وقد حمله وليس في حمله الا خدمة لحكومة المسلمين جزاه الله عنا خيراً .. وبعد ذلك نرجع الى مسالتك الخصوصية ولا بأس من فصلها بحضور البطريرك »

فقال زكريا « بل حضور غبطته ضروري لها »

فتغيرت سحنة مرقس وبدا الاضطراب عليه وتلعثم لسانه والحضور مصغون لسماع دعواه ولما ابطأ ولم يتكلم تقدم زكريا فقال « استأذن سيدي الامير ان انوب عن المعلم مرقس بالكلام »

فقطع مرقس كلامه قائلاً « من انابك عني ؟ انا اتكلم عن نفسي »

فسكت زكريا وتراجع ودميانة واقفة وقلبها يخفق شفقة على ابيها وطال سكوت مرقس فقال زكريا « للمعلم مرقس شريك في الدعوى اذا امر الامير باحضاره »

قال « من هو ؟ »

قال « اسطفانوس بن المعلم حنا كاتب الخراج »

فامر ابن طولون باحضاره وما عتم ان حضر فاوقفوه بجانب المعلم مرقس . وهذا لم يفتح عليه بالكلام واعتذر اخيراً بالم اصابه فمنعه من التكلم . فامر ابن طولون باجلاسه والتفت الى زكريا وقال « قل يا اسمر ما تعرف من امر هذه القضية ؟ »

فتقدم زكريا وتناول الاسطوانة بيده وقال « ان الخصام كله على ما في هذه الاسطوانة . ومافيها غير رق مكتوب في مصلحة هذه العذراء الطاهرة وهي ياسيدي ابنة المعلم مرقس ماتت والدتها وهي طفلة وكان لها عرابة بمثابة الوالدة وكانت غنية غنى فاحشاً واظنكم تعرفونها اعني ماريا القبطية صاحبة قرية طاء النمل التي مرَّ بها الخليفة المأمون عند زيارته مصر وضافها وبالغت في اكرامه . وكان المأمون لما ضافها اهدى اليها بعض الجواري والخصيان وفي جملتهم انا فقد كنت خصياً حملت اليه هدية من ملك النوبة مع خصيان آخرين .. وربيت في منزلها وكان اسمي ابراهيم فسمتني زكريا . فلما ولدت امرأة المعلم مرقس هذه الفتاة سمتها دميانة على اسم القديسة دميانة وكانت مارية نيح الله روحها تعرف اسراف هذا المعلم فارادت ان تضمن مستقبلها فوهبتها قرية طاء النمل هذه وقرى اخرى في تلك الجوار وكتبت بذلك صكاً مسجلاً حفظته في هذه الاسطوانة » قال ذلك واستأذن

ابن طولون بفض الختم فاذن له فقضه واستخرج رقاً مكتوباً بالقبطية دفعه الى الكاتب وطلب اليه ان يتلو خلاصته بالعربية فتلا :

« ان ماريا القبطية وهبت ابنتها بالروح دميانة بنت المعلم مرقس قريتها طاء النمل كلها وما يلحقها من المغارس . وتبقى هذه القرى تحت مناظرة ابيها ولا يحق له ان يبيع منها شيئاً . فاذا بلغت ابنته رشدها وتزوجت صارت هذه القرى لها ملكاً خاصاً ليس لابيها شيء منها ... الخ »

وكان الحضور يسمعون ما يتلوه الكاتب وعيونهم على مرقس وهو مطرق والعرق يتقطر من وجهه . وصدره يعلو ويهبط من التنفس الثقيل الذي اعتراه فلما فرغ الكاتب من القراءة قال ابن طولون « اليس ثمت من شهود ؟ »

قال الكاتب « نعم ياسيدي اني اقرأ اسمي مخائيل ومنقريوس »

فقال البطريرك « ان مخائيل اسمي وكنت لا ازال اسقفاً نعم اشهد ان مارية القبطية وهبت هذه الفتاة هذه القرية . واما منقريوس فانه قسيس طاء النمل وهو حي هناك »

فقال ابن طولون « نكتفي بشهادتك » والتفت الى زكريا وقال « هل فرغت من حديثك يا اسمر ؟ »

قال « كلا ياسيدي .. لا ازال في اول الحديث هل اتمه ؟ »

وكان ابن طولون قد توسم الصدق في لهجته فاصبح مستعداً لتصديق كل ما يقوله فقال له « اتمه »

قال « ونظراً لرغبتها في رعاية هذه الفتاة جعلتني في جملة الهبة وامرتني ان ابقى في خدمة دميانة حتى تشب وتتزوج وبالغت في الوصية فاطعتها ولازمت البنت من طفوليتها ولا ازال الى الآن وسابقى ما بقيت حيا .. فنشأت الفتاة على تربية حسنة غرستها فيها والدتها رحمها الله فانها كانت تقية طيبة العنصر فنشات ابنتها مثلها تحب الصلاة والعبادة وفيها ميل الى البر والاحسان وبلغت هذا السن (واشار اليها) ولم تعلم بما في هذه الاسطوانة لان والدها كان يبالغ في اخفائها عنها وانا صابر لعله يحسن معاملتها . فرابته بعد ان ماتت زوجته الاولى والدة دميانة عكف على التسري واقتناء الجواري وتعاطي المسكر والانغماس في القصف والزهو والبنت تكره ذلك فيه وهو لا يلتفت اليها . واخيراً اراد ان يزوجها بشاب على شاكلته هو هذا (واشار الى اسطفانوس) تبركاً بمنصب والده مع ان والده يتبرأ منه ولكنه تواطأ معه على اخفاء امر الوصية والتمتع بالاموال معاً وكلاهما سكير ومجان »

فلما وصل الى هنا تنفس الصعداء ليستريح ثم تحول نحو سعيد فامسكه بيده واتم حديثه قائلاً « واما الفتاة فعرفت هذا الشهم ولا ازيدكم تعريفاً بمناقبه وكان مقيماً عند جارهم ابي الحسن البغدادي وتواعدا على الاقتران وكان هو مشتغلاً بحفر العين بالمغافر . فعلم اسطفانوس بذلك وخاف اذا نجح سعيد بحفر العين ان يعظم في عيني الامير وياخذ دميانة كرهاً فكاد له كيداً لا يرتكبه اعظم الاشرار .. اوصى بعض رجاله ان يضع قصرية الجير في المكان الذي يعلمه الامير حتى حدث ماحدث من اجفال جواده ووقوعه وظن يومئذ مولاي ان ذلك من سعيد فامر بضربه وسجنه ثم اطلق سراحه لاجل بناء الجامع . وهل يتذكر الامير اني ذكرت له اسم سعيد وانه اقدر من يبني له الجامع كما يريده ؟» فهز ابن طولون رأسه ايجاباً

فعاد زكريا الى الكلام قائلاً « وبعد ان اوقعوا سعيداً في الفخ ارادوا اكراه الفتاة على الزواج باسطفانوس ولم يطاوعني ضميري على ذلك وانا عالم بالحقيقة ففررت بها فخبأتها في حلوان وذهبت فسرقت هذه الاسطوانة لاطالب بحق الفتاة . ولما رجعت الى حلوان رأيت الفتاة قد اخذها البجة سبية فرأيت ان اوسط ابانا البطريرك في استنجاد ملك النوبة على البجة فسرت اليه في دير ابي مقار فحملني هذا الكتاب وفي ذيله وصيته بي ليساعدني . فحملتها ورافقني جاسوس ارسله هذا المعلم في اثري كما قال ولما وصلت الى الاهرام استنجد رجالاً للقبض عليّ فلما تحققت وقوعي في قبضتهم اخفيت الاسطوانة والكتاب في مدخل الاهرام . وقبضوا علي وسجنوني ثم احتلت في الخروج بواسطة مولاي سعيد المهندس لاستجلاب الكيس فعثرت بالصدفة على مولاتي دميانة ومعها هذا النوبي (واشار اليه) وهو الذي انقذها من بلاد البجة . وعلم هؤلاء بخروجي فاحتالوا بالقبض على الاسطوانة فلم يفلحوا وارادوا الشر فعاد عليهم . وانا لا غرض لي في كل ما تقدم الا القيام بالمهمة التي عهدت الي فقد تعهدت ان اخدم هذه الفتاة واراعي مصلحتها وقد بذلت جهدي في ذلك والامر لمولانا » قال ذلك وتراجع ووقف والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون مايبدو من الحكم

فاذا بابن طولون يقول « ان حديثك ياسمر مع طوله لايمل لقد كشفت عن خفايا كثيرة » والتفت الى مرقس واسطفانوس وقال « هل تدافعان عن نفسيكما ؟ . »

وكان مرقس مطرقاً يكاد يذوب خجلاً وقد ارتج عليه اما اسطفانوس فعظم عليه السكوت فقال « ان التهمة التي وجهها اليّ هذا النوبي لادليل على صحتها . كيف يتأتى لي ان ادس قصرية الجير ؟ »

فتقدم زكريا وقال « انا لا اقول اني شاهدتك تفعل ذلك ولكنني استدل من قرائن كثيرة انك انت الفاعل .. »

فقطع ابن طولون كلامه قائلا « انا ايضاً اؤيد هـذا القول بدليل تذكرته ... تذكرت الآن بعض الناس من ابناء طائفتك ولعلهم من اهلك كانوا يقبحون عمل هذا المهندس لدي ويبغضونه الي بكل وسيلة وانا اسمع اقوالهم باخلاص فلما كبا جوادي في قصرية الجبر جعلوا ان سعيداً فعل ذلك عمداً ليقتلني فصدقتهم واسأت معاملة هذا الصادق (واشار الى سعيد) وهو اولى بالمكافأة واني اشكر زكريا لانه كان وسيلة لاخراجه من السجن وبارشادي الى مقدرته في فن الهندسة ... بارك الله فيك ولله درك من خادم امين نصوح .. »

وكان البطريرك مصغياً فلما سمع قول ابن طولون هز رأسه متعجباً وهو يمشط لحيته باناملة وقال « سبحان الله .. ان الضرر لا يأتينا الا منا .. يسيء بعضنا بعض ويفسد بعضنا اعمال بعض .. »

فصاح اسطفانوس « ان هذا الشاب (واشار الى سعيد) لطمني ورماني في صحن الكنيسة ليلة الاحتفال بعيد الشهيد فاغضيت عنه ولم ارد اذيته فكيف اسعى ضده ؟ »

فقال زكريا « اغضيت عن عجز ولو استطعت قتله ما تأخرت ولكنك جبان خسيس »

فصرخ اسطفانوس « تهينني في حضرة الامير وانت خصمي ذميم ؟ »

فاشار ابن طولون فسكتا فقال هو « لا حاجة الى المدافعة فان ادعاءك ان سعيداً ضربك مع ما ظهر من خلالك يؤكد لنا انك تعمدت اذاه بوضع قصرية الجير »

الفصل السابع والستون

على الباغي تدور الدوائر

وكان مرقس يسمع ما يقولون وينتظر فرصة يتخلص بها الى الكلام ليغطي خجله فلما رأى التهمة ثبتت على اسطفانوس وجه كلامه اليه وقال « اسكت يا اسطفانوس بالحقيقة انك لئيم الطبع فقد خدعتني كما خدعت سواي فانا اشهد انك تعمدت الاذى لجارنا وولدنا سعيد — اردت بذلك ان تتخلص منه لتبقى دميانة لك .. هذا هو الصحيح »

فلما سمع اسطفانوس هذه الشهادة ضده من زميله وصديقه وشريكه بكل سيئاته حمي غضبه وقال له « أتزعم ذلك وانت الذى اغريتني عليه وكم حببت اليّ الزواج بابنتك وانا اقول لك انها لا تحبني فابيت الا ان أتزوجها . لا لسبب غير طمعك بمالها »

فقال مرقس « هذا غير صحيح .. » وضحك ضحكة استخفاف وقال « طمعاً بمالها ... اليس مالها ومالي سواء »

قال « او تضحك ايضاً ؟ وتقول ان مالك ومالها سواء ؟ الم تخبرني بهذه الوصية وتشترط عليّ اذا تزوجت الفتاة نكون شركاء بالورثة وهي لا تعلم بها ؟ انت اغريتني وغششتني ... واطمعتني بابنتك وما كان اغناني عنها فانت وحدك سبب هذا الشقاء.. لتتمتع بالملذات والشهوات » قال ذلك وقد بح صوته وخرج من طور العقل لشدة الغضب

فانتهره ابن طولون قائلاً « يكفي قد عرفنا كما جميعاً . وعرفنا فضل مهندسنا الحكيم وسنرفع منزلته ونعوض عليه ما لحقه من الاذى بسبب تلك الوشايات وسنزف اليه عروسه على نفقتنا باحتفال ينسيهما ما قاسياه ويتولى عقد الاكليل غبطة البطريرك الجليل »

قال ذلك ونظر الى دميانة وكانت جالسة على مقعد بالقرب من زكريا تسمع ما يدور من الاحاديث ولا تفهم الا نتفاً قليلة لجهلها اللغة العربية فكان زكريا يترجم لها باختصار . على ان اشتغال قلبها بسعيد وتتبعها حركاته وسكناته كانا يشغلانها عن سماع كل شيء . فقد مضت عليها مدة وهي لم تره واتفق انها رأته للمرة الاولى في تلك الجلسة فاضطرت ان تغالب عواطفها وتصبر نفسها الى آخر الجلسة . وقد همها من الجهة الاخرى الاطلاع على ما كان محدقاً بها من الاسرار ولا سيما مسألة الاسطوانة وما فيها فلما اطلعت على فحواه طار قلبها من الفرح وازدادت فرحاً لما سمعت ما قاله ابن طولون خطيبها وكيف انه سيرفع قدره وينفق على العرس من ماله . فان ذلك فوق ما كانت تتمناه

على ان سقوط والدها تحت غضب ابن طولون نغص عيشها وكدرها . وزادها حزناً واسفاً ما شاهدته في ابيها من الانكسار والتذلل بعد ظهور الحق عليه . ونسيت ما قاسته من استبداده وعنفه وما اراده من ضياع حقها . فلما قال ابن طولون ما قاله ووجه خطابه اليها بغتت وهي تحدث نفسها بتلك الامور والتفتت الى والدها فرأته ينظر اليها بعين الحزين الذليل فنهضت وتقدمت خطوتين حتى وقفت ووجهت كلامها الى الامير وتكلمت بالقبطية قائلة « اني لا استطيع التعبير عن افكاري بالعربية فاقولها بالقبطية واتقدم الى ابينا البطريرك ان ينقلها اليكم بالعربية . قد غمرتنا ايها الامير بفضلك وانا شاهدت العصي تتساقط على

سعيد (واشارت اليه) شاهدتها بعيني ولم يخطر لي ان اضع الحق عليك وقد علمت من ذلك اليوم انها دسيسة .. انك ايها الامير انت نعمة لبلادنا كما قال ابونا البطريرك واحمد الله لانه اظهر الحق على يد العم زكريا فان لهذا العم الطيب القلب فضلاً كبيراً في كشف هذه الاسرار وقد فعل ذلك لا لمطمع غير القيام بوعده ونصرة الحق .. »

ثم بلعت ريقها وظهرت دمعتان في عينيها واشارت بيدها نحو والدها وقالت « نعم ان والدي قد اساء التصرف معي ولا ادري كان ذلك من تلقاء نفسه او باغراء من سواه وعلى كل حال فاني اتقدم الى مولاي الامير ان يعفو عنه فاني لا اكون سعيدة ما لم يكن والدي ايضاً سعيداً »

فترجم البطريرك كلامها باختصار . اما والدها فلما سمع قولها غلب عليه البكاء لفرط ندمه وقال لها « لقد جمعت ناراً على راسي .. اني قد اسات اليك من كل وجه ولا شك ان عنصرك اطيب من عنصري فقد كنت اريد ان اكون سعيداً ولو شقيت انت اما انت فتقولين انك لا تسعدين ان لم يكن ابوك سعيداً .. فاصفحي عن زلاتي واستشهد الامير وسائر الحاضرين اني سارجع عن كل ما يسوءك من طرق المعيشة في بيتي واكون طوع ارادتك لانك اقرب مني الى الرشاد وادنى الى الصواب »

فلما راى اسطفانوس ما جرى صاح « وانا يا دميانة وانا ؟ »

قالت « اني اترك امرك الى سعيد فانه صاحب الشأن معك »

فتقدم سعيد وقال « اذا جاز لي يا مولاي الامير ان اتكلم فاني اتقدم اليه ان يصفح عن اسطفانوس فانه فعل ما فعله مندفعاً بضعف الانسان ولا يجديني ان اراه يذوق العذاب لا سيما وقد ظهر انه ندم »

فقال اسطفانوس « نعم ندمت . ومن يرى هذه الاخلاق العالية وهذه الصدور الرحيبة ولا يندم .. اني احب ان اكون من احقر اصدقائك »

فقال « دعنا من الصداقة فقد صفحت عما مضى والسلام »

فاشار ابن طولون اشارة سكت لها الجميع واصغوا لما يقوله فقال « يسرني انكم تصالحتم وساؤيد هذا الصلح باحتفال العرس الذي ساقيمه بعد قليل بحضور الاب البطريرك »

الفصل الثامن والستون

بالرفاه والبنين

وفهم الحضور انهُ يريد الانصراف فنهضوا واذا بصوت خرج من طرف القاعة فالتفت الجميع فراوا سمعان النوبي وكان واقفاً يسمع ما يدور وكان لما سمع ما قاله زكريا عن اصله وانه كان في جملة هدية ملك النوبة للمأمون علم انه اخوه الضائع واحب ان يتصدى للكلام فلم يسعفه المقام فظل صابراً حتى فرغ القوم من المحاكمة فتقدم وقال « باذن لي الامير بكلمة : اني رسول ملك النوبة الى هذا البطريرك لا كلفه ما كلفه به سواي من قبل اما بعد ان شاهدت من عدلك وعظيم خلقك فاني ارى غير رايه وانا عائد الى ملكي اثنيه عن عزمه واعيد العلائق بينه و بين المسلمين ان شاء الله »

فقال ابن طولون بغير اكتراث « لك ذلك » وتحول وخرج من باب خاص في تلك القاعة وبقي الحضور يتصافحون و يتصالحون والبطريرك يباركهم و يخفف عنهم فقبلت دميانة يد والدها فقبلها هو و بكي ووعدها ان يخرج ما في منزله من السراري والجواري وان يعيش لله ولها و يكون طوع ارادتها . وتقدم اسطفانوس الى سعيد يستغفره و يصالحه فقال لهُ « ليس في نفسي شيء عليك وقد صفحت عما فعلتهُ لكنني لا اميل الى مصادقتك لان من كان لا يغضب لنفسه ولا يحفظ كرامتها لا يليق بالصداقة » فلما سمع اسطفانوس قوله كاد يذوب من الخجل وتحول وخرج وهو يبكي فاشفق سعيد عليه فناداه وقال لهُ « اذا شئت ان نتصادق فاصغ لما يقوله والدك فانه من اطيب الناس قلباً واحسنهم خلقاً فاذا عملت برأيه كنت من اصدقائنا »

واما سمعان فلم يصدق انه اطلق بعد خروج ابن طولون حتى اكب على زكريا وجعل يقبله و يقول لهُ « اخي ابراهيم ! ابراهيم ! »

فبغت زكريا والتفت الى سمعان وتفرس فيه وقال « اخي سمعان . . . اخي حقيقة . . » وتعانقا واجمل منظراً بين اولئك المجتمعين اجتماع سعيد بدميانة فقد تخاطبا وتشاكيا طويلاً بلسان لا يفهمه سواهما اعني لسان العيون فضلاً عن الكلام وطال وقوفهما وفرغ الآخرون من احاديثهم وهما غارقان في المشاكاة وقص الاحاديث فتقدم زكريا اخيراً وقال « هل تريد مولاتي ان تخرج والى اين ؟ »

فانتبهت لنفسها وسألت سعيدًا فقال « هل تأتون الى قصري هنا »

فخجلت دميانة من هذه الدعوة وادرك زكريا خجلها فقال « نذهب الآن الى دير المعلقة لان سيدتي تحب الادبار واظن ابانا البطريرك نازلاً هناك ؟ » فاشار البطريرك ان نعم فقال « فنحن ذاهبون الى هناك للتبرك به وربما يامر الامير بالاكليل فنجتمع ونقيم في قصر المهندس الفرغاني »

فصاح ابوها « بل تقيم في قريتها طاء النمل تامر وتنهى »

ففرحت بتصريح ابيها على هذه الصورة ومشت هي وزكريا والبطريرك الى دير المعلقة ومعهم سمعان وذهب سعيد الى قصره ومضى اسطفانوس كاسف البال الى ابيه يستغفره ويرجو عفوه . وبقي مرقس فقال لابنته « الا تاذنين ان ارافقك الى الدير »

فضحكت وقالت « ان لهذا الدير فضلاً علي فقد بدأت متاعبي فيه ولكن . . قد مضى ما مضى تفضل انت والدي وسيدي » فمشي معهم الى هناك واحتفلت رئيسة الدير بقدومهم

وبعد ايام امر ابن طولون باعداد معدات العرس لزفاف دميانة الى سعيد فبعث سعيد الى مربيه ابي الحسن البغدادي فاتى وقد فرح بما جرى وبعثت دميانة الى الاب منقريوس قسيس قريتها ليفرح معها فاتى . فزينوا القطائع كلها بالانوار والرياحين وكان احتفالاً مثل احتفالات الملوك وظل اهل الفسطاط يتحدثون به اعواماً . وسكنت دميانة مع سعيد في قصره اياماً ثم انتقلا الى طاء النمل وسكنا في قصر ابيها او هو قصر مارية القبطية وكان قد اخلاه ابوها من السراري والجواري وجعله لائقاً بذينك العروسين الطاهرين

وقضى مرقس بقية عمره يبذل ما في وسعي لرضا ابنته وزوجها . . وكان ابو الحسن من اعظمهم مسرورًا بذلك وعاش زكريا بقيــة عمره معززًا مكرمًا واما اخوه سمعان فانه سافر الى بلاد النوبة يثني ملكها عن مناوأة المسلمين فافلح وعاد واقام في طاء النمل . واما الاب منقريوس قسيس تلك القرية . . . فقد فرح بظهور الحق لانهُ كان في جملة الذين شهدوا وصية مارية (١)

« انتهت الرواية »

---

(١) اختلف المؤرخون في مصير ابن كاتب الفرغاني فقال بعضهم ان ابن طولون غدر به وهو يبني الجامع وقال آخرون انه قضى بقية حياته بهناء وراحة وليس هنا محل تحقيق ذلك